التاريخ الإسلامى

١٧

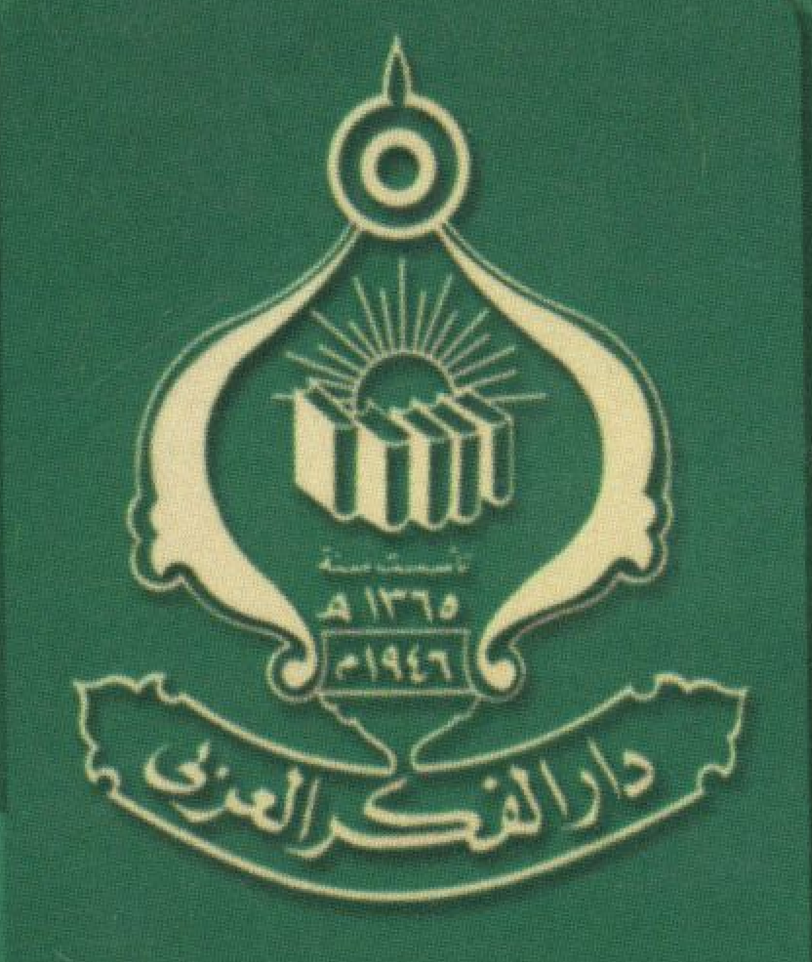
موسوعة

الثقافة التاريخية

والأثرية والحضارية

المسلمون فى الأندلس





أ.د. صابر دياب



المسلمون فى الأندلس

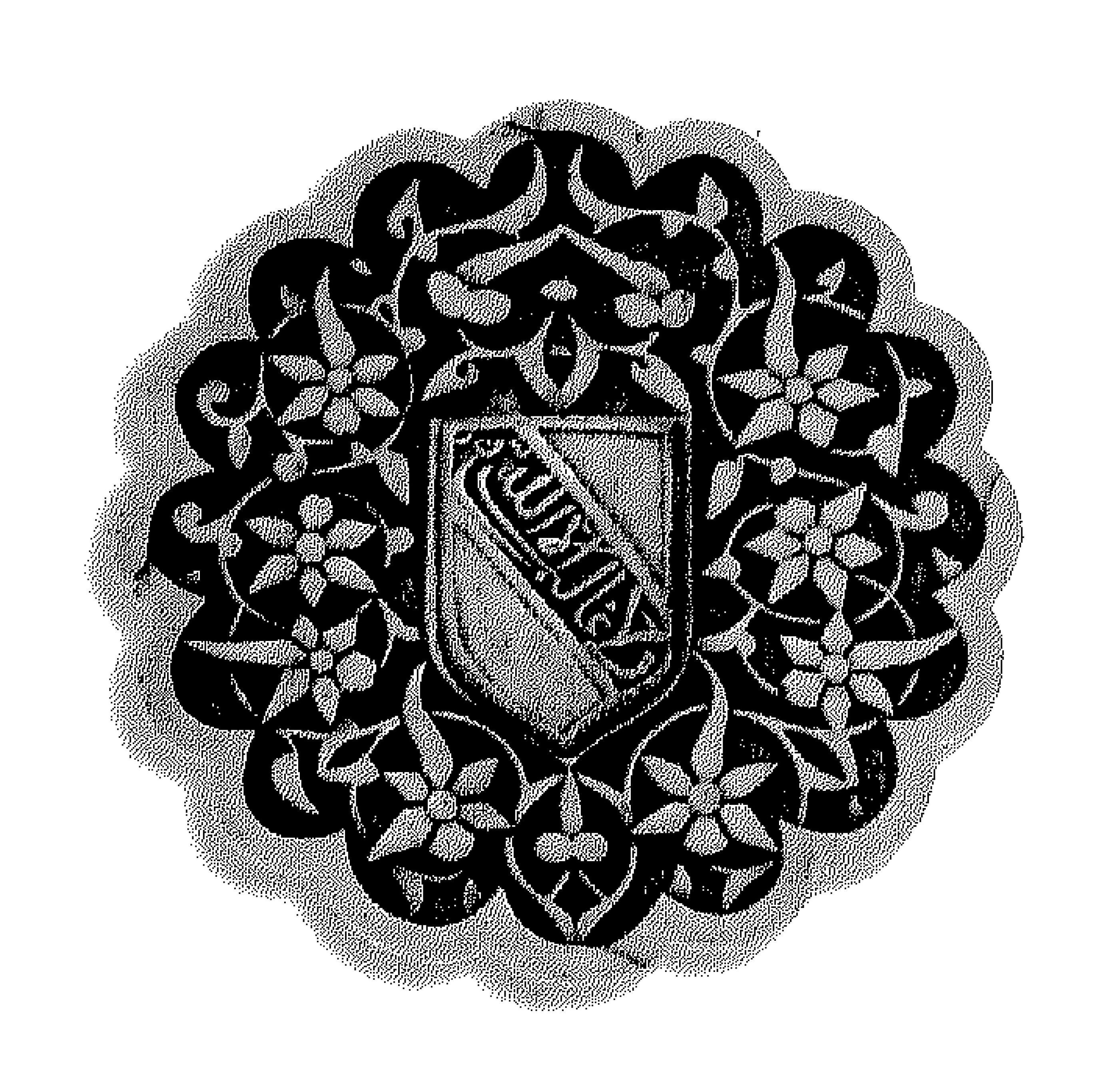
(٩٥ - ٤٢٢هـ / ٧١١ - ١٠٤٠م)

تأليف

د. صابر محمد دياب حسين

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة

كلية دار العلوم - جامعة الفيوم



لا غالب إلا الله

زخرفة أندلسية - قصر الحمراء

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

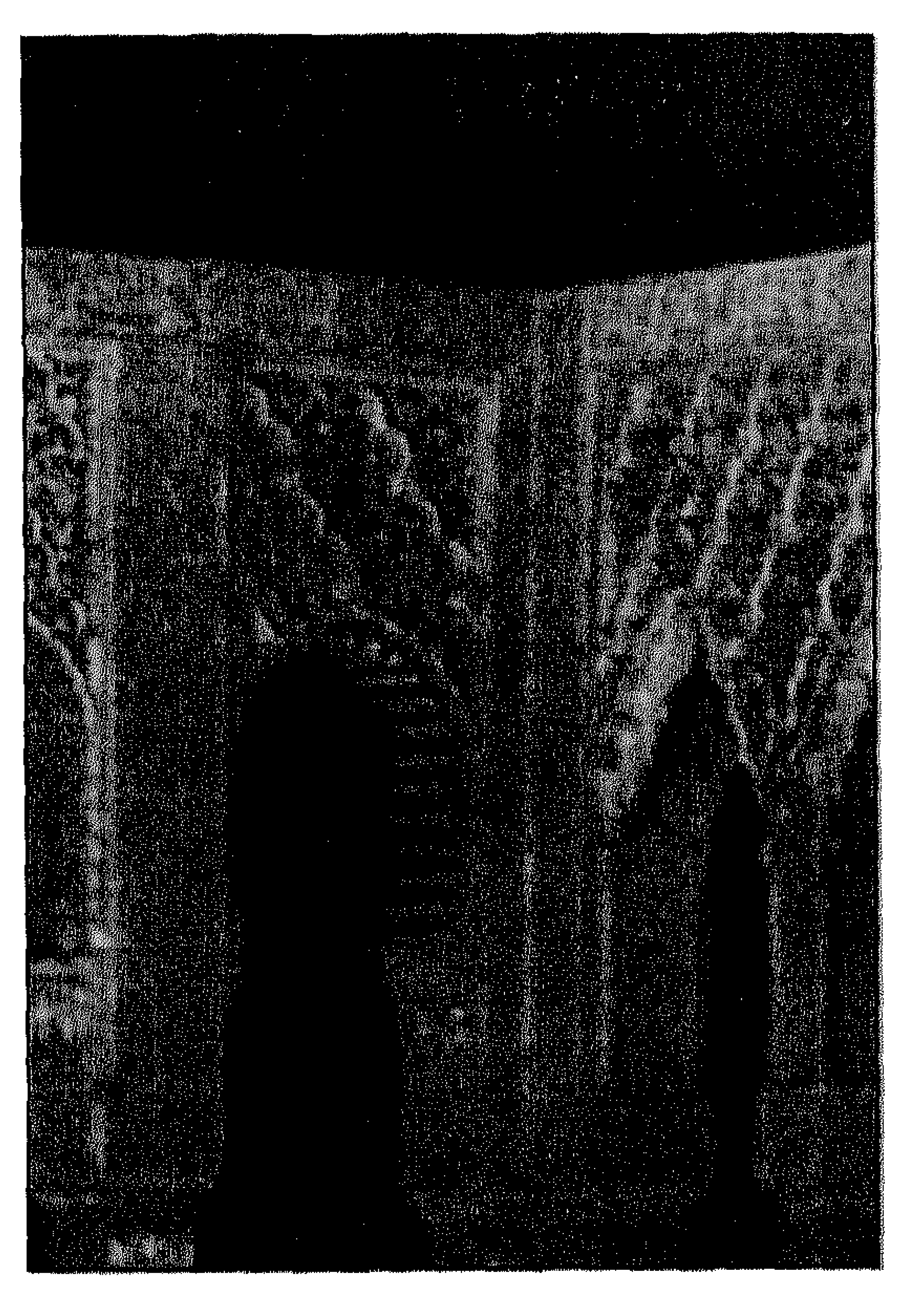
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
ثريا إبراهيم حسين



نافورة السباع - قصر الحمراء

٩٥٦,٠٧ صابر محمد دياب حسين.
ص أ م س المسلمون فى الأندلس/ تأليف صابر محمد دياب حسين.
ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨.
أ-د ١٠٨ ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الإسلامى؛ ١٧).
ببليوجرافية: ص ١٠٤.
تدمك: ٢ - ٢١٠٥ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - الأندلس والفتح الإسلامى. ٢ - الأندلس وعصر الولاة. ٣- الأندلس وبنو أمية. أ- العنوان.
ب - السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٧٩٤٠ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية

لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

د

تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة.
ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

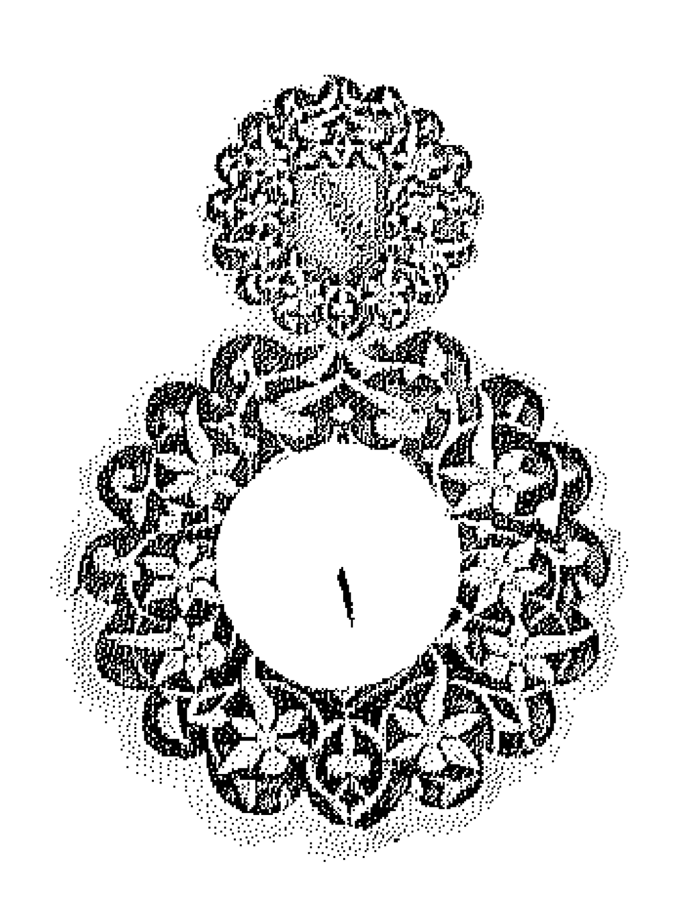
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

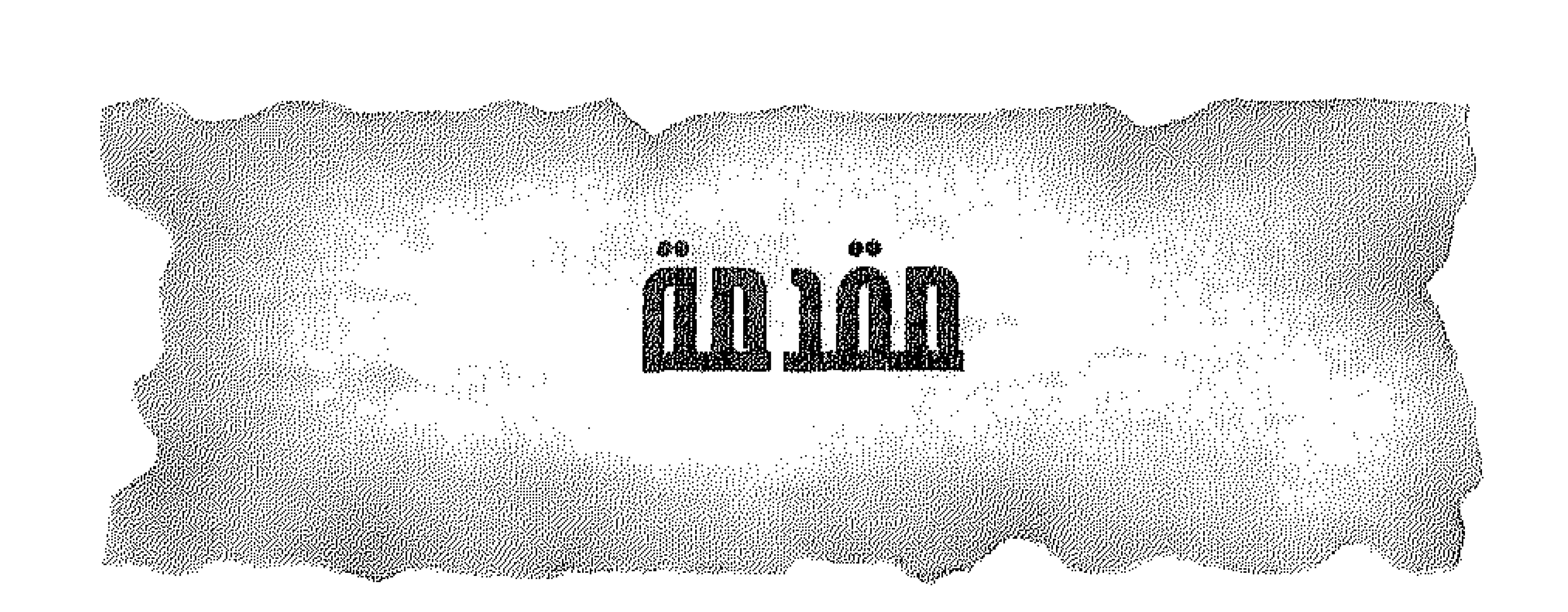
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





أحمدك اللهم وأستعينك وأستهديك، وأصلى وأسلم على خير خلقك وخاتم أنبيائك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، وكل من تبع نهجه بإحسان إلى يوم الدين.

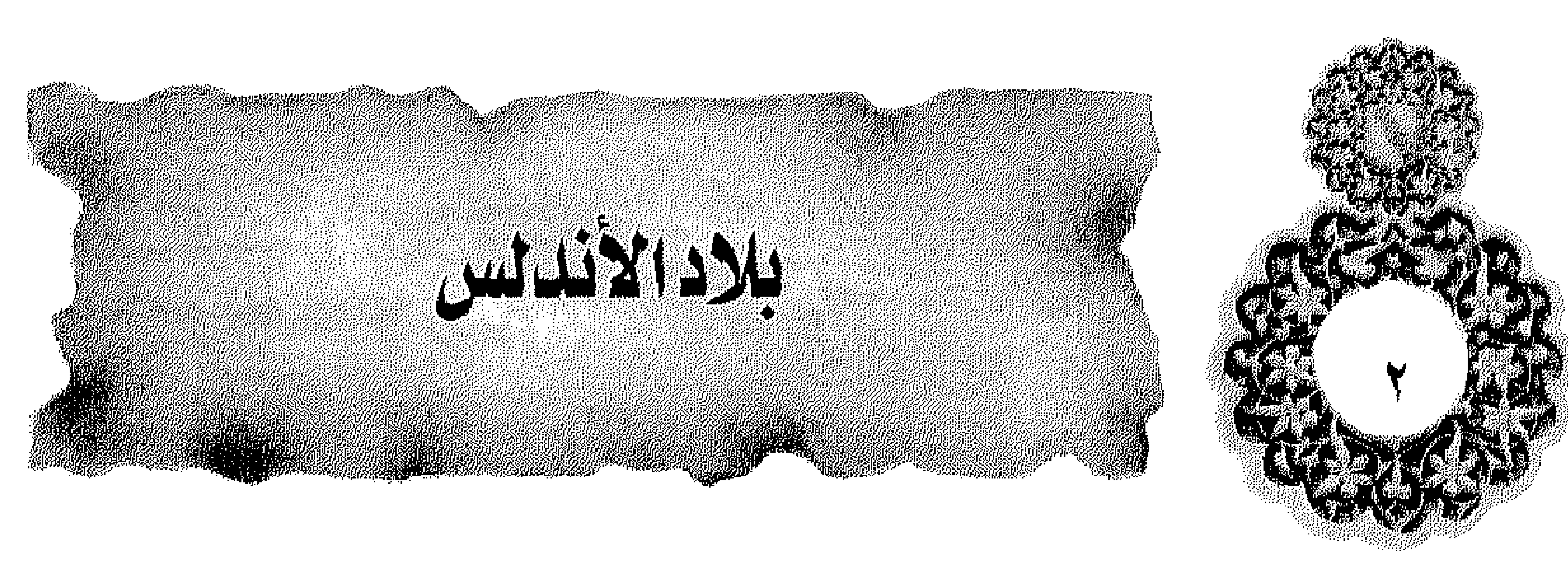
وبعد،،،،

فأقدم بين يَدىْ القـراء هذا الكتاب، وهو عبارة عن عـرض للوجود الإسلامى فى الأندلس منذ فترة الفتوح الإسلامية إلى سقوط دولة بنى أمية فى الأندلس، معتمدا فى ذلك على العديد من المصادر والمراجع، ومحاولا مناقشة الأحداث والوقائع فى ضوئها بدون استطراد أو إسهاب.

والله أرجو أن يكون فى ذلك نفع لأمة الإسلام جميعا.

والله من وراء القصد، وهو المستعان

د. صابر محمد دياب حسين



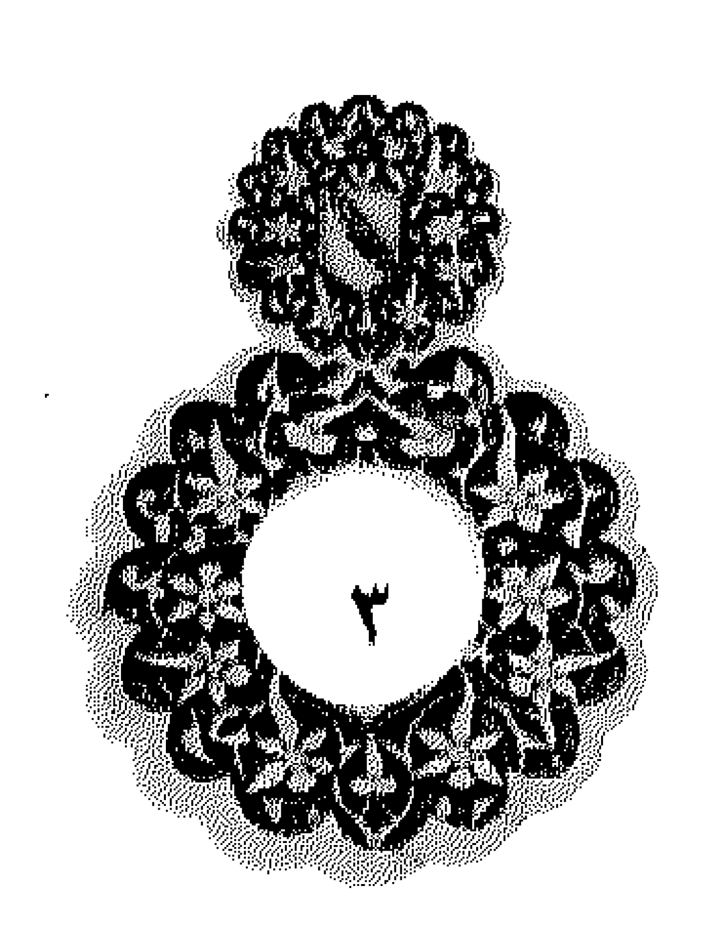
تمهيد:

لقد تقرر فتح الأندلس فى أشد الأوقات ملاءمة من حيث أحوال المسلمين أنفسهم، فالدولة الأموية فى أواخر القرن الأول الهجرى، كانت قد أحكمت قبضتها على أمورها، فى عهد عبد الملك والوليد ابنه، واستردت سيطرتها على العالم الإسلامى كله تقريبا، وبالتالى صار فى إمكانها أن تحشد من الموارد البشرية والاقتصادية ما يضمن لها إحراز النصر فى أى اشتباك جديد، هذا فضلا عن القدرة الاقتصادية والإدارية العظيمة التى توافرت للدولة الإسلامية بعد إصلاحات عبد الملك بن مروان الإدارية والاقتصادية، وما نتج عنها من تدفق الأموال على خزانة الدولة فى دمشق، ذلك التدفق الذى أدى إلى تكدس المال فى بيت مال الخلافة، وظهرت صورته فى بذخ الوليد وترفه (٨٦ - ٩٦هـ).

هذا كله فضلا عن تزايد قدرة المسلمين على ركوب البحر، والنمو المُطَّرِد للأسطول العربى المسلم منذ خلافة «عثمان بن عفان» (٢٣ - ٣٥هـ) وقيادة كل من عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ومعاوية بن أبى سفيان، وإحراز النصر متتاليا، معتمدا على قواعده بسواحل الشام ومصر، واستيلائه على قبرص ورودس، ودخوله معركة فتح العرب للمغرب مؤيِّدا لـ«حسان بن النعمان الغسانى» واستيلائه على قرطاجنة سنة (٨٧هـ/ ٦٩٨م)، وقهره البحريةَ البيزنطيةَ فى حوض البحر المتوسط والسواحل الممتدة فى الشمال الإفريقى.

هكذا صارت الدولة العربية الإسلامية قادرة - إذا شاءت - أن تضرب - كالعملاق - بما لديها من القوات البحرية الإسلامية المتنامية، التى توافرت لها، إلى جانب القوات البرية، بعد تمام فتح المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير، ونجاح الجهود المبذولة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان، وإنشاء قاعدة القيروان، وتأليف قلوب البربر الذين انضموا تحت راية الدولة الإسلامية، واستعدادهم لمعركة الجهاد المقدس.

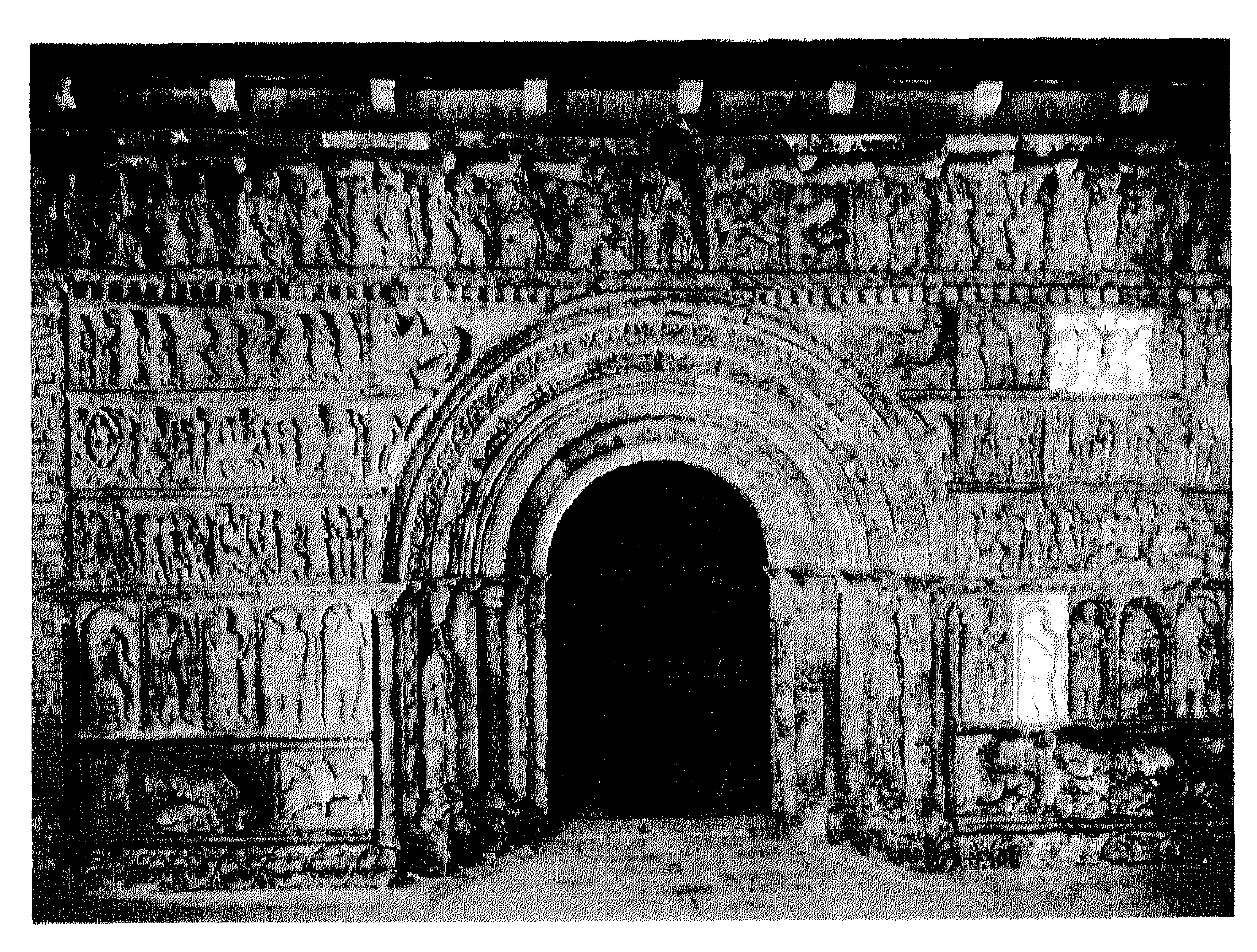
ومن ناحية أخرى، فإن فكرة فتح الأندلس خرجت إلى حيز الوجود فى أشد الأوقات مُلاَءَمَةً: من حيث أوضاع الأندلس الداخلية، وعجزُ دولة القوط الغربيين عن القيام بمقاومة ناجحة، ناهيك عن الدافع العقائدى لدى القوات الإسلامية.





١ - اضطراب الأوضاع السياسية:

يتفق المؤرخون القدماء والمحدثون على حقيقة اضطراب الأوضاع السياسية فى بلاد الأندلس بصورة لم تحدث من قبل، حيث كانت البلاد ترزح تحت عناكب الفوضى، وتسبح فى بحار من الدماء والفتن والثورات والتنافس على السلطة، بسبب طبيعة النظام السياسى السائد (الملكية الانتخابية).



بوابة حولها نحت بارز للقديسين - كنيسة سانتا ماريا - إسبانيا

والجدير بالذكر أن القرن الثامن الميلادى شهد مأساة مؤلمة وخصاما على المُلْك بين أبناء «غيطشة» الملك السابق، المعتمدين على حقهم فى وراثة الملك بعد أبيهم، وبين الملك المنتخب «رود ريكوس» أو «لذريق» كما يسميه العرب. وقد استطاع العرب الإفادة من هذه الفرقة، لينَفِّذوا خطتَهم المرسومة سابقا لفتح الأندلس.

٤

كانت بداية هذه المأساة التى قسمت دولة القوط على نفسها سنة ٧٠٠م. حيث تولى الملك «غيطشة» «أو» «ويتيزا» حسب منطوق الاسم باللغة الإفرنجية ـ على الطريقة التقليدية، ثم استبد به الطمع التقليدى فبايع ابنه «أخيلا» أو «وقلة» بالعهد وولاه بعض البلاد، الأمر الذى أغضب زعماءَ القوط فأعلنوا الثورة، بعد وفاة «غيطشة» سنة ٧٠٨م. حيث لم يرض كبارُ القوط بالخضوع لصبى صغير. ودارت الحرب بين الفريقين إلى أن اختير «لذريق» فى عام ٧١٠م حاكما، وتعقب أبناء الملك السابق «غيطشة» وأنصارهَ بالقتل والتنكيل، بصورة ملأت حياة البلاد بالفوضى والدماء. مما اضطر أبناء غيطشة المضطهدين للتوجه إلى بلاد المغرب، فرارا بأنفسهم من بطش لذريق، فى وقت كانت خيلُ طارق بن زياد ترابط فى منطقة طنجة؛ استعدادا لفتح ميدان جديد للجهاد.

٢ - فقدان روح القتال لدى القوط:

يضاف إلى ذلك أن القوط الغربيين آنذاك كانوا قد فقدوا روح القرن الخامس القتالية، التى مكنتهم من دخول روما والاستيلاء على إسبانيا، فقد مالت نفوسُهم إلى الدعة وأهملوا تجنيد الجند وتدريبهم على فنون القتال، كما كانوا يفعلون من قبل، بل عهدوا بأمور الحرب إلى عبيدهم، الذين زاد عددهم على عدد الجند الأحرار فى الجيش القوطى، مما كان سببا فى ضعف الجيش؛ ولذلك لم يجد المسلمون عند فتحهم الأندلس حكومة ملكية متحدة الكلمة، بل شراذم متناحرة، ومجتمعا تنخر فيه العنصرية، وجيشا مفككا لا يستطيع الصمود أمام ضربات الجيش الإسلامى القوية.

٣ - التفرقة العنصرية والفرقة المذهبية:

كذلك كانت الفُرقة المذهبية عاملا أعاق القوط والإسبان معا عن المشاركة فى أحرج الأوقات، فلم يعتبروا قتال المسلمين معركة قومية، بل تركوا الملَكية وحدها تلقى مصيرها المحتوم، وكان مصيرا أليما حقا.

وهذه الفُرقة العنصرية ظهرت بصورة هددت المجتمع بالتفكك فى عهد لذريق، الذى كان يخشى الشعبَ الإسبانى الرومانى وغيره من العناصر المضطهدة، فحاولت الحكومة القوطية ـ عبثا ـ الاستنجاد برجال الدين لكسب رضاء الناس؛ ولذلك قضى لذريق أيام حكمه القصيرة يحارب الثائرين عليه فى كل ناحية، حيث قام بحملات متتابعة على العناصر الثائرة فى شمال وجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا).

وقد نتج عن الفُرقة العنصرية، والانقسام المذهبى أن ضعف كيان المجتمع القوطى فى إسبانيا، وبدأت سياسةُ الاضطهاد الدينى فى الواقع تمثل حقيقة كبرى فى تاريخ القوط وهى تركهم المذهب الآريوسى القديم.

وقد كان آخر ملوك القوط الآريوسيين هو «ليوفيجيليد» (٥٦٨ - ٥٨٦م)، الذى أعلن ابنه فى مجمع طليطلة الدينى اعتناقَ الكاثوليكية لتصبح المذهب الرسمى للدولة، كما صارت اللغة اللاتينية لغة رسمية. وبذلك توثقت صلة إسبانيا بالبابوية، وصار نفوذ الأسقف لا يقل عن نفوذ الملك إن لم يزد عنه فى كثير من الأحيان.

٤ - التعصب الدينى ضد المخالفين للمذهب والدين:

اضطهاد اليهود:

وقد بدأ القوط مع الكاثوليك يُغيِّرون نظرتهم المتسامحةَ القديمةَ، وبدأوا الخضوع لنزوات المتزمتين من رجال المذهب الكاثوليكى، مما أدى إلى اضطهاد اليهود، والتضييق عليهم، ففى سنة ٦٩٤م - أى قبل الفتح الإسلامى بسبع عشرة سنة - اتهم ملوكُ القوط اليهودَ بأنهم يتآمرون عليهم مع أعدائهم، واستصدر الملك القوطى من مجمع طليطلة الدينى قرارا بنفيهم من البلاد. وكانت الإجراءات التى اتخذت معهم غاية فى القسوة.

وقد وصل اضطهاد اليهود الذروة فى عهد «لذريق» إرضاء لرجال الدين المسيحى الكاثوليكى بإسبانيا؛ ولذلك لا نعجب إذا رأينا اليهود - فى مقدمة القوات الإسلامية - بمثابة العيون لهذه القوات، يدلونها على مسارب البلاد ومسالكها. وتقول الروايات: إن اليهود اتصلوا من إسبانيا بيهود المغرب الأقصى، ليكشفوا للفاتحين المسلمين عن عورات البلاد ويعملوا على إغرائهم على فتحها.

٥ - تدهور الأحوال الاقتصادية:

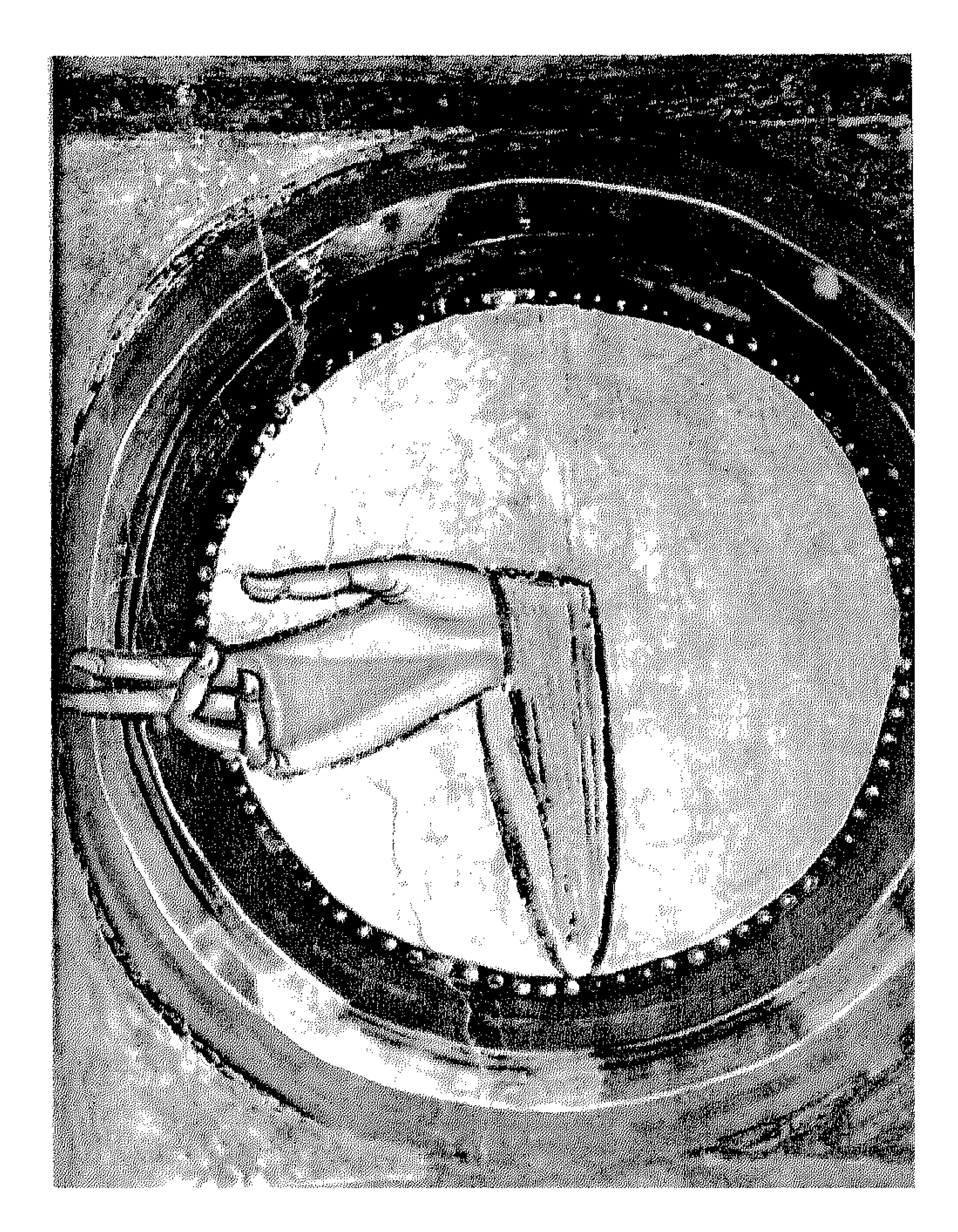
كذلك كانت حالة إسبانيا الاقتصادية أيام القوط - قبيل الفتح الإسلامى - على درجة كبيرة من السوء كالأحوال السياسية بالضبط. وفضلا عن ذلك كان المجتمعُ القوطىُّ فى السنوات القليلة السابقة على الفتح الإسلامى يفتقد كل عناصر البقاء والاستمرار والقوة. فكانت أغلب الأرض فى يد زمرة قليلة من الناس (الأرستقراطية الإقطاعية)، وكان رجال الدين لديهم أيضا ثُلُثُ الأرض الخصبة، أما التاج فيملك باقى الأرض الخصبة. ولم يشهد المجتمع القوطى فى مستهل القرن الثامن الميلادى طبقة وسطى قوية مستقرة تكون قوام أى استقرار اقتصادى.

٦ - شراسة النظام الإقطاعى فى إسبانيا:

أما الغالبية العظمى من الناس فكانوا إما فلاحين يرتبطون بالأرض ويباعون معها كما تباع السلعة، أو عبيد يعملون فى ظروف صعبة، إذ كان الأغنياء يقتنون العبيد بالآلاف، ويعاملونهم معاملة جافة مجافية لبديهيات العرف الإنسانى، الأمر الذى دفع باليأس فى قلوب هؤلاء العبيد، وباتوا يترقبون ساعة الخلاص.

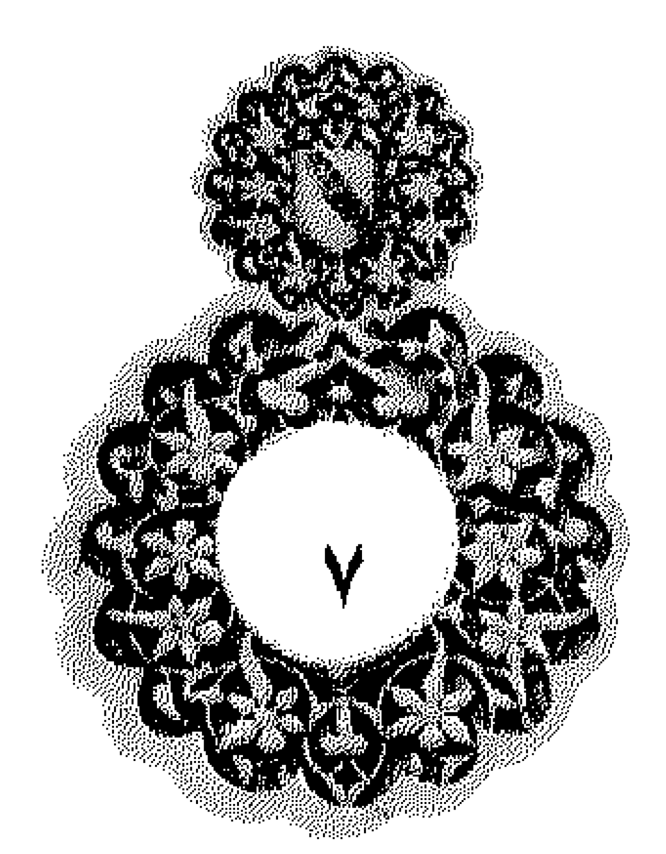
وبالجملة، فقد كَوَّنَتْ الأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية والاقتصادية صورة قاتمة وكئيبة جدا ليست فيها بارقة أمل فى إشراقة بوضع جديد أفضل مما هم فيه. وكان ذلك عاملا ساعد ـ لدرجة كبيرة ـ فى النصر الذى أحرزه الجيش الإسلامى الفاتح.

من هذا كله نستنتج أن بلاد الأندلس كانت مهيأة لتقبل الفتوح الإسلامية، ومولدَ عهدٍ جديدٍ مختلفٍ تمامَ الاختلاف عن سابقه من العهود.



تصوير جدارى بالفرسك - يد القدرة -

كنيسة سان كلمنت - إسبانيا



الفصل الأول
فتح الأندلس

استرعى الفتح الإسلامى لإسبانيا أنظار المؤرخين فوقفوا عنده يحللونه ويفسرون أحداثه، ولا غرو فهو من أهم ما وقع من أحداث فى التاريخ القومى الإسبانى.

والمؤرخون لم يختلفوا فى بداية فتح قدر اختلافهم فى بداية الفتح الإسلامى لإسبانيا، كما أن هذا الفتح أثار فى الأذهان كثيرا من الأسئلة والتساؤلات، فى حاجة إلى إجابة شافية. فمثلا: هل كان الفتح مبيتا؟ أى هل كان عملا مُدَبَّرا مخطَّطا له وفق إستراتيچية إسلامية عامة؟ أم هل تم بتحريض معين؟ ثم ما هى أهداف هذا الفتح وغاياته؟.

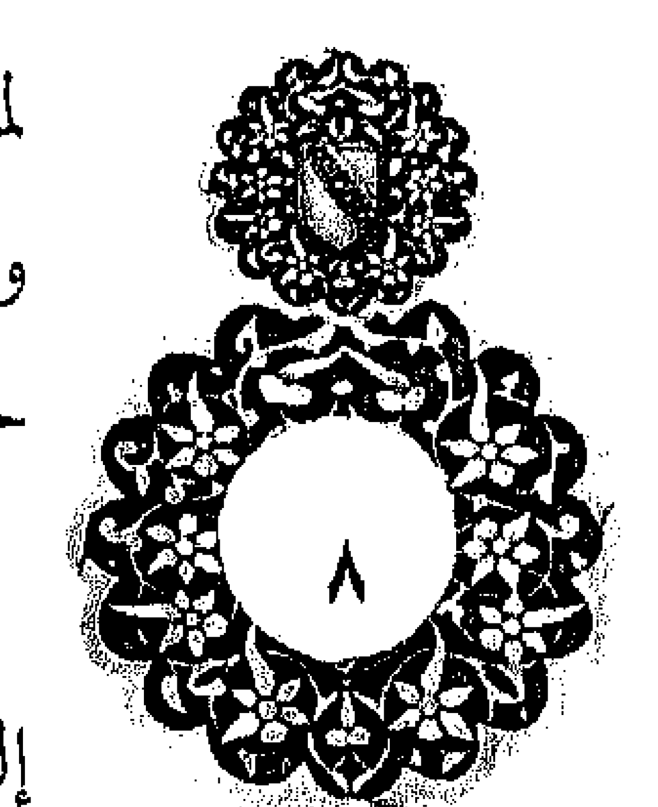
وللإجابة على كل هذه الأسئلة، يجب معرفة حقيقة العلاقات بين القوات العربية الإسلامية وبين الكونت جوليان Julian صاحب سبتة آنذاك من ناحية، وبين أبناء «غيطشة» الملك السابق على لذريق، فلقد حاول بعض المؤرخين أن يشكك فى وجود شخصية جوليان واعتبره ضربا من الخرافة. لكن الدراسات التاريخية الحديثة ألقت الضوء على الكثير على هذه الشخصيات التاريخية، التى لعبت دورا كبيرا فى مصير إسبانيا.

فلقد أثبتت أبحاث كل من (دوزى وكوديرا وبروفنسال) أن (جوليان) هذا حقيقة موجودة، وأنه كان يتولى منطقة سبتة منذ أيام «عقبة بن نافع الفهرى»، وأن عقبة صالحه وأبقاه على سلطانه فى البلاد. ولم يكن (جوليان) هذا عاملا قوطيا، وإنما كان عاملا بيزنطيا على منطقة سبتة (Ceuta) وأنه كانت تربطه علاقات مودة بالقبائل المغربية المقيمة حول سبتة من ناحية، هذا فضلا عن علاقته بحكام القوط فى إسبانيا من ناحية أخرى.

والروايات العربية تذكر أن (جوليان) هذا، لم يكتف بمخاطبة طارق بن زياد فى أمر فتح البلاد، بل ذهب بنفسه إلى عامل أفريقية «موسى بن نصير» فى القيروان ليحبذ لديه فكرة فتح الأندلس، مبينا



جبل طارق



لموسى ما سيعود على المسلمين منها من الخير العميم، وأن الأمر يسير وهين، وخاصة إذا أسرع موسى بالهجوم، خلال غيبة «لذريق» فى بنبلونة فى حملة حربية (بشمال إسبانيا).

ويذهب المؤرخ «سافدرا الإسبانى» (Savedra) إلى أن «جوليان» ذهب إلى طارق بن زياد وموسى بن نصير، تنفيذا لمؤامرة دبرها مع أبناء «غيطشة» وأنصاره. والدليل الوحيد على صحة هذا الفرض هو عبارة «سباستيان» السلمنقى، إذ قال: «فلما انهزم «غيطشة» أقام القوطُ لذريقَ ملكا فعلى الحسدُ والحقدُ ـ فى الحقيقة ـ أولاد «غيطشة»، من أن يغْصِبَهُم لذريق مملكةَ أبيهم، فدبروا أمرهم بمهارة وأرسلوا رسلا إلى إفريقية يرجون من المسلمين المساعدة، وقدموا لهم سفنا عبروا عليها إلى إسبانيا». لكن هذه الرواية لا يؤيدها إلا ما جاء فى كلام أن القوطية.

ولقد رحب موسى بن نصير بـ(جوليان) وما عرضه عليه؛ لأن هذا العرض جاء موافقا للخطة الإسلامية العامة للفتح، كما أن موسى كان يميل للجهاد والغزو دائما. والحقيقة أن موسى ـ مثله فى ذلك مثل كل قائد حصيف ـ تشكك فى أقوال (جوليان) ومدى صدقه فى هذا العرض؛ ولذلك أراد أن يختبره فى صدقه، بأن أمره بالقيام بقيادة سرية مقاتلة ـ كرأس حربة للجيش الإسلامى ـ فى جنوبى إسبانيا (الأندلس)، ليطمئن من عدم خداع (جوليان) أو خيانته. وقام (جوليان) فعلا بالغارة المطلوبة منه خير قيام، وعاد إلى موسى محملا بالغنائم، مما سر موسى سرورا كبيرا.

أ - حملة طريف:

كان لا بد لموسى بن نصير ـ وهو عامل أفريقية التابع للخلافة الأموية ـ أن يستأذن الخليفة «الوليد بن عبد الملك» (٨٦-٩٦هـ) الذى تردد فى الإذن له خوفا على المسلمين من مغبة ذلك العمل الجرىء الخطير، الذى يريد موسى القيام به فى أرض تيه مجهولة للمسلمين؛ ولذلك طلب الوليد من موسى اختبار البلاد بالسرايا، قبل أن يدخل فيها الجيش، وقد نفذ موسى أمر الخليفة، فعين «أبا زرعة طريف بن ملوك المعافرى» وكان قائدا مقتدرا حازما، فقاد هذا سرية استطلاعية من أربعمائة رجل و ١٠٠ فارس، عبرت فى رمضان (٩١هـ يوليو ٧١٠م) على سفن «جوليان إلى الأندلس، ونزلوا خفية فى جزيرة «بالوماس» التى سميت جزيرة طريف، وعاونهم جندُ جوليان وأنصارُه فى مهمتهم.

وقام طريف وسريته بعدة طلعات استطلاعية سريعة على الساحل، ثم عاد بسريته ظافرا، وأرسل غنائمه إلى موسى بن نصير فى القيروان، فتشجع موسى وأعد حملة عظيمة لتقوم بالفتح الحقيقى.

ب - حملة طارق بن زياد:

٩

بعد أن أعد موسى بن نصير جيشا عظيمـا كثيفا لفتح إسبانيا، عيَّنَ على هذا الجيش واحدا من خيرة جنده وقواده، وهو «طارق بن زياد» الذى لم نسمع عنه شيئا قبل ذلك. ويبدو أن طارقـا هذا كان قـريبا إلى قلب مـوسى؛ نظرا لبسالتـه وتفانيه فى الجهـاد فى سبيل الإسلام ورفع لوائه. مما جـعل موسى بن نصير يعهد بأمر خطة وحملة فتح الأندلس إلى «طارق بن زياد»، وهو عمل خطير وضخم، وكان أغلب جيش طارق من البربر.

وبذلك يصبح موسى بن نصير أول قائد عربى مسلم يعهد بمثل هذا العمل الخطير إلى قائد غير عـربى، وجند ليسوا عـربا فى أغلبهم. ولكن هذا الجيـش لم يخل من القادة العرب أمـثال «عبد الملك بن أبى عامـر المعافرى» و«علقمة اللخمى» ومن القادة العظام من البـربر مثل «مونوسة البربرى» وقام هؤلاء وأولئك بالمهام التى عهدت إليهم.

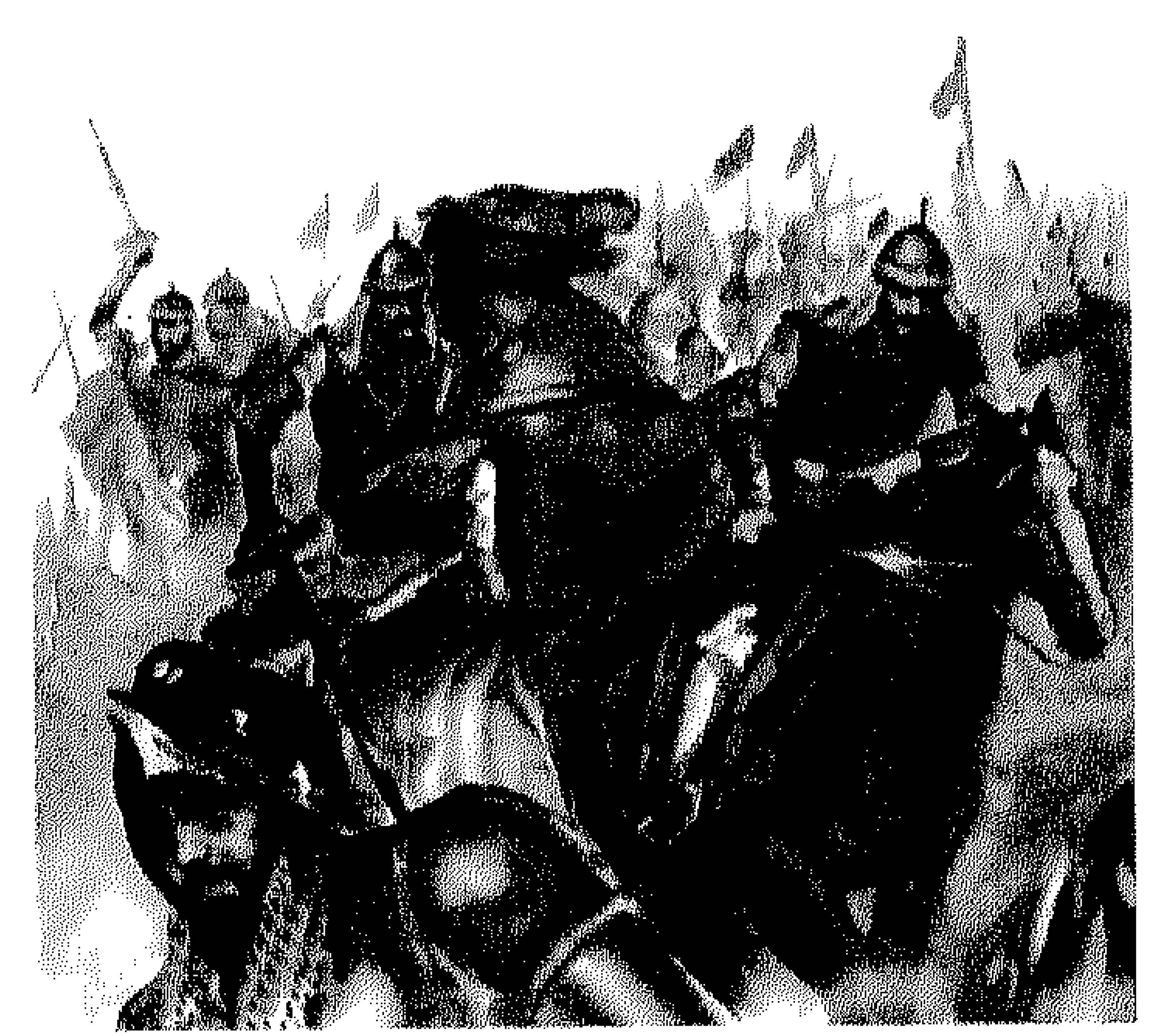
ولقد تعهد جوليان بإرشاد ومساعدة المسلمين، ونقل قواتهم من وإلى الأندلس على سفنه. وتم عبـور المسلمين فى شهر رجب الفـرد سنة (٩٢هـ/ ٧١١م) (فى فصل الربيع)، وتجمـعوا عند الجبل الذى عرف فيما بعد باسم «جـبل طارق»، وحصنوا أنفسهم. ثم بعث طارق «بعبد الملك بن أبى عامر المعافرى» على رأس بعث حربى سار مسـاحلا حتى أخذ «قرطاجة» ثم الجزيرة الخضراء ـ وهى تقابل جبل طارق ـ، وبذلك تم للمسلمين السيطرة على جبل طارق ومضيقه. ثم عهد طارق بحراسـته إلى يوليان وجنده ليؤمن ظهـر الجيش الإسلامى الفاتح، وقـد حاول جماعـة من أنصار «لذريق» بقيـادة شخص يدعى «بنج» (أو بنشوا بنثيـو) مهاجمـةَ المسلمين فقضى المسلمـون عليهم بسهولة.

والراجح أن طارقا كان ينـوى المسير مباشـرة إلى قرطبة - عاصمـة إقليم بيطس ـ لأنه سار مساحـلا حتى جزيرة «البرباط». وكان بهذا الموضع بـليدة عرفت باسم «لكة» أو وادى لكة ـ الذى ورد عند رودريجو بالإفرنجية هكذا «ليته» أو جواد اليت Guadalet «عند كوندى». واستعد طارق لمجابهة لذريق وجنوده الذين كـانوا قد وصلوا إلى قرطبة ثم عسكروا عند «شـذونة». وكان جيش لذريق ـ حسب تقدير بعض المراجع ـ يقدر بحوالى مائة الف (١٠٠,٠٠٠ مقاتل).

طلب طارق الإمـدادات من إفريقيـة، فأرسل له مـوسى بن نصيـر بسرعـة حول ٥,٠٠٠ (خمسـة آلاف جندى) بقيادة «طريف». وكان مـعظم الجيش من الفرسان، مما سـاعد الجيش الذى بات يتحرق للقاء العدو. وكان ما أحرزه المسلمون من نصر وتقدم مما أنعش أعداء لذريق من أسرة

«غيطشة» «والناقمين عليه فى الجيش، وحفزهم للانقضاض عليه، أو نفض أيديهم منه، إذا اشتبك مع المسلمين فى قتال.

ويقال: إن «شيشبرت و«أبة» ـ أخوى غيطشة ـ كانا على رأس هذا الفريق وأنهما انتظرا اللحظة المواتية للتخلى عن «لذريق» ليلقى جزاء فعلته بغيطشة. وليس ببعيد أن يكون «لذريق» أحس بما يدبر ضده، فأراد استطلاع قوة المسلمين قبل المعركة، وأرسل طليعة للاستكشاف، اكتشفها المسلمون فانقضوا عليها لكنها هربت، وأخبرت «لذريق» بما عليه العرب من تحفز وحمية وشوق للقتال.



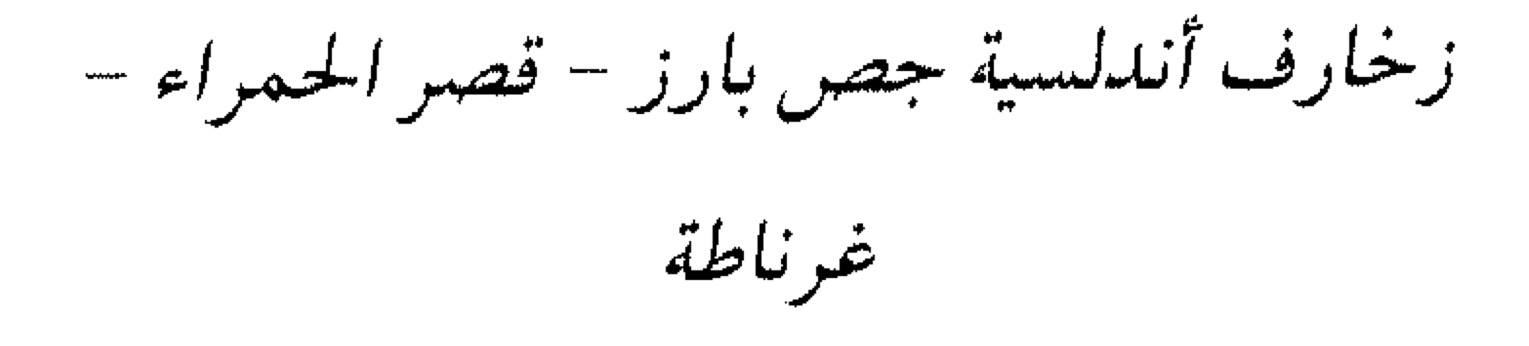
معركة البرباط

جـ - ابتداء معركة وادى البرباط:

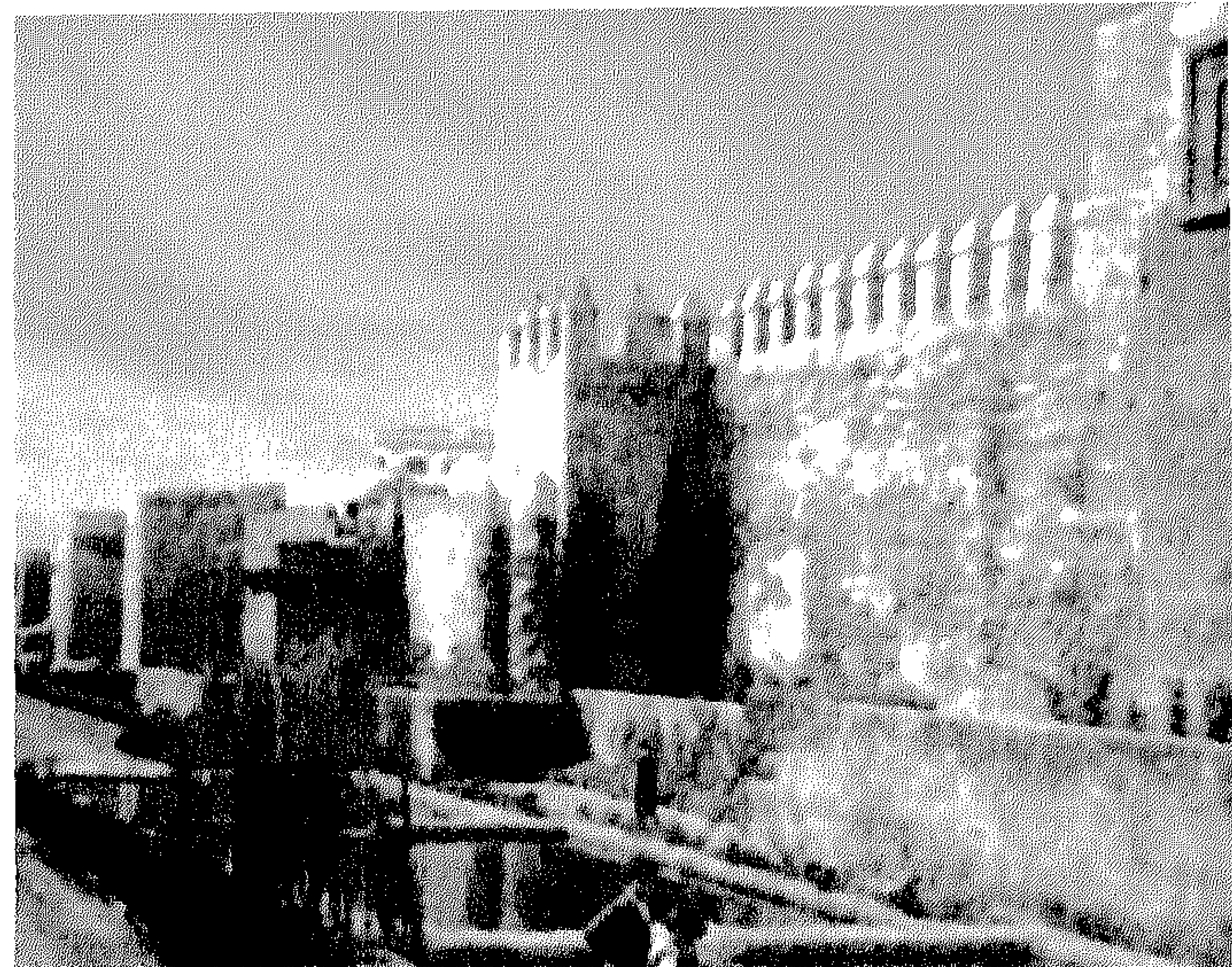
التقى الجمعان (الإسلامى والإسبانى) يوم الأحد الموافق ٢٨ رمضان سنة (٩٢هـ - ١٩ يوليو ٧١١م) على وادى برباط ـ قرب شذونة ـ واشتد القتال فى اليوم التالى، واستبسل جوليان وعساكره إلى جانب المسلمين، وثبت عساكر القوط فى البداية أمام المسلمين من العرب والبربر والسودان.

ولقد قام جوليان وجنودهُ بدور قوى فى تحبيب الناس فى المسلمين، مؤكدا لهم أن المسلمين أتوا لتخليص الناس من ظلم وعسف «رودريك» المستبد. وفعلا تأثر كثير من الناس

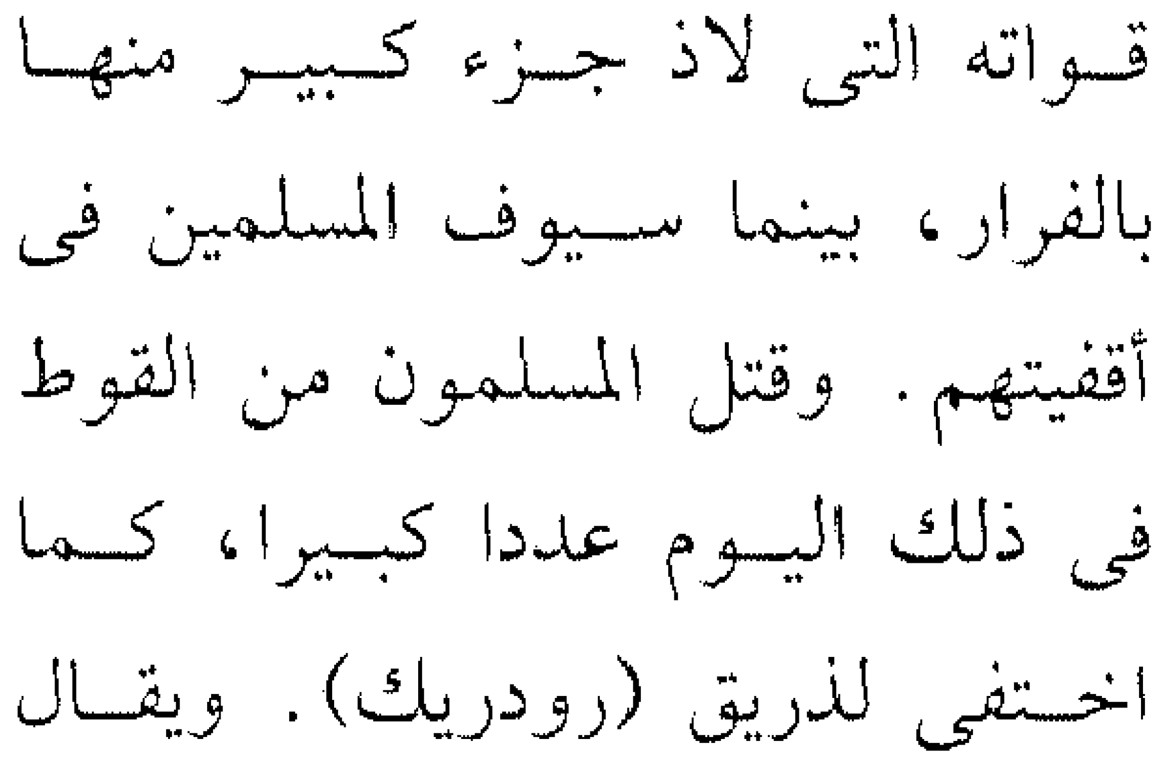




زخارف أندلسية جص بارز - قصر الحمراء - غرناطة

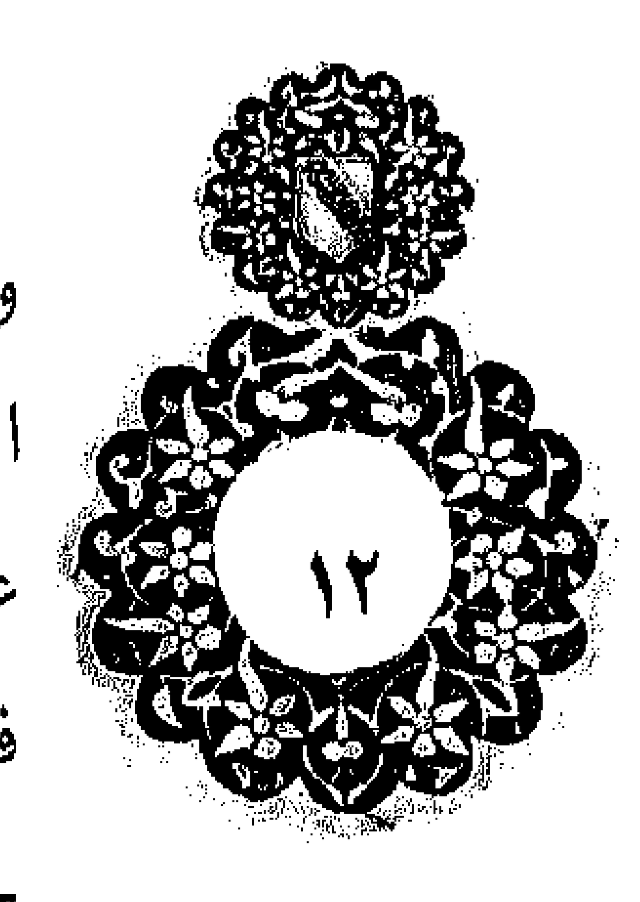


سور مدينة قرطبة



والجند القوط بكلام «جوليان» وجنده، فانفضوا من حول رودريك، فدبت الفوضى فى قواته التى لاذ جزء كبير منها بالفرار، بينما سيوف المسلمين فى أقفيتهم. وقتل المسلمون من القوط فى ذلك اليوم عددا كبيرا، كما اختفى لذريق (رودريك). ويقال أنه قُتِلَ أو غرق، إلا أنه فى الحقيقة تمكن من النجاة هربا. وقد غنم المسلمون من هذه المعركة غنائم كثيرة، كان من بينها وأهمها تلك الخيول، التى ستكون ذات تأثير إيجابى فى قوة المسلمين، إذ ستساعدهم فى تحركاتهم وقتالهم للأعداء؛ لأن أغلبهم كان راجلا كما استشهد من المسلمين فى هذه المعركة حول ٣٠٠٠ مقاتل من مجموع الجيش البالغ عدده ١٢ ألفا. وتحمس طارق بن زياد وجنده بهذا النصر، فاندفعوا نحو قرطبة تتقدمهم طليعةٌ من الجنود السود التى استبسلت فى هذه المعركة أيما استبسال.

مدينة طليطلة



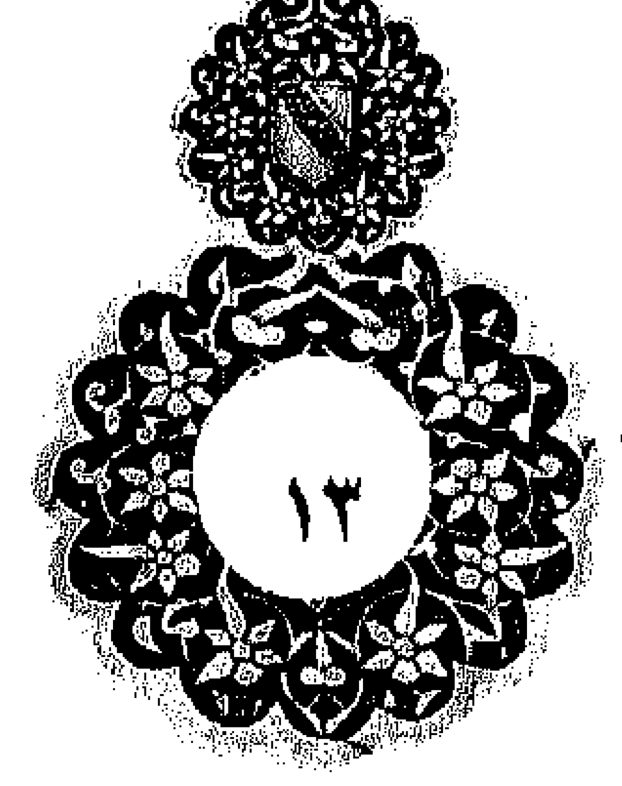
لما وصلت أنباء انتصارات طارق بن زياد إلى أسماع موسى بن نصير فرح والمسلمون معه لذلك فرحا شديدا، وأقبلوا جميعا زرافات ووحدانا نحو الأندلس من كل فج، فخرقوا البحر. فلحقوا بطارق، ودخل الأندلس وقتها عددٌ كبير من البربر واستقروا فيها، وزاد جيشُ طارق بن زياد زيادة عظيمة فدعته لتقسيمه إلى عدة بعوث (سرايا) حربية صغيرة، كل بعث منها يرسله إلى جهة أو ناحية.

أما عن الموقف فى صفوف أهل الأندلس والقوط، فقد ارتاعوا وارتفعوا عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال وأيقن حزب «غيطشة» بهزيمة «رودريك» واستعدوا لإعلان أحدهم ملكا مكان الطاغية المهزوم. فقد حاول «أخيلا» أو «وقلة» استصدار قرار من مجلس طليطلة باعتباره ملكا، لكنه لم ينجح، حيث تواترت أنباء بأن «رودريك» لم يقتل. أما جوليان فقد ثبت بقواته فى ناحية الجزيرة الخضراء.

وكان من رأى موسى بن نصير - بعد انتصار طارق فى معركة «البرباط» سنة ٩٢هـ/ ٧١١م - أن يعود طارق لإفريقية، مثلما فعل «عبد الله بن سعد بن أبى سرح «بعد نصر» سبيطلة». لكن طارقا رأى الاستمرار فى التقدم إلى «سنجة» ليعبر من مخاضتها، إلى قرطبة لفتحها. فاستعصت عليه فى البداية ثم استسلمت له بعد أن ألح «طارق» عليها بالهجوم، وبذلك فتح له طريق قرطبة - طليطلة. وقد بدأ طارق «بطليطلة» التى كان بها أنصار «لذريق» يعيدون تنظيم صفوفهم لجولة قادمة، وأمكن لطارق وجندهُ الاستيلاء على طليطلة، ودخلها قبل أن يكمل جند لذريق استعدادهم للقائه. ثم أرسل طارق حملة بقيادة «مغيث الرومى» إلى «قرطبة» ليشغلها عن قطع الطريق على جيش طارق.

وهناك رأى يقول: إن طارقا بعث آنذاك بحملة فتحت جنوب شرق الأندلس ومدائنه مثل: «مالقة» و«غرناطة» و«أريوله»، وهو ما لم يفتح إلا فى ولاية «عبد العزيز بن موسى بن نصير». أما ما يمكن أن يكون قد عمله طارق وقتذاك، فهو أنه جسها بالسرايا والحملات الاستطلاعية فقط.

وقد انضم للمسلمين عدد كبير من الناقمين على لذريق، واليهود الذين تطلعوا إلى المسلمين ليخلصوهم من الهوان والظلم الذى لحقهم على يد الإدارة القوطية وعمالها، ولينتشلوهم من وهدة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتردية. ولا شك أن طارقا استفاد من كل ذلك فائدة كبيرة بعد ذلك، فقد دله هؤلاء الناقمون على مسالك البلاد وطرقها. وهكذا كان التوفيق حليف المسلمين بدرجة أكثر مما توقعوا، وسار طارق بجنده (العرب والبربر والموالى والسود والأيبيريين واليهود)، إلى طليطلة عاصمة دولة القوط.



د - فى طليطلة:

استطاع طارق دخول طليطلة دون مقاومة تذكر، وأخذ منها غنائم كثيرة، من بينها مذبح كنيستها المُحَلَّى بالجواهر، وهو الذى قال عنه المسلمون ـ خطأ ـ أنه مائدة «سليمان بن داود» عليهما السلام، وأفاض المؤرخون فى وصفها بطريقة واضحة تبين شدة دهشتهم لما كانت عليه المائدة من قيمة وارتفاع قدر.

وقد وجد طارق والمسلمون طليطلةَ شبه خاوية من الناس الذين تركوها عندما علموا بمجيء الجيش الإسلامى الفاتح. ثم اتجه بعدها حتى وصل بلدة سميت باسم «المائدة» ـ قرب قلعة «هنارس» التى وجد فيها المسلمون المائدة ـ وكان الشتاء يوشك أن يحل، إذ أقبل شهر أكتوبر بخريفه، ففضَّل طارق العودة إلى طليطلة ليقضى بها الشتاء، وليعيد ترتيب قواته، وتوزيع ما جمعه من غنائم كثيرة، وليريح الجنود بعد الجهد الذى بذلوه.

هـ - فتح قرطبة:

كان طارق قد ابتعث مغيثا الرومى بجماعة من جنده إلى «قرطبة» (٧٠٠ راجل) وكانوا قد قاربوها، فوقفوا على الضفة اليسرى من الوادى الكبير المواجه لها، ينتظرون فرصة مناسبة للعبور، وقد تخفوا فى غابة بين قريتى «شقندة» و«طرسبل» على الضفة اليسرى للوادى الكبير يستطلعون الأحوال بالبلد قبل العبور إليه. وكان أهل قرطبة يكرهون القوط ولذريق بسبب ظلمهم وعسفهم بالناس. وكانت قرطبة محاطة بسور من الحجر الضخم، الذى لم يخل من ثغرات سوف يعبر منها المسلمون إلى داخل البلد. ثم عبر المسلمون من الجزء المقابل لباب القنطرة أو باب الصورة ـ نسبة إلى تمثال أسد كان قائما على مقربة من السور ـ والتف مغيثٌ الرومى وجنده حول السور يتلمسون فيه ثغرةً للنفاذ منها إلى «قرطبة»، وقد تم لهم فعلا ما أرادوا.

فاجأ المسلمون حامية قرطبة القوطية (٤٠٠فارس) فلم يشعروا إلا والمسلمون بين ظهرانيهم، فاضطربت أمورهم، وانحَلَّ عِقْدُهم وفر حاكم قرطبة القوطى، إلى أقرب كنيسة ـ وهى كنيسة القديس أثيكلوا ـ وتحصن فيها، فحاصرها المسلمون، وقطعوا عنها الماء الذى كان يجرى إلى داخلها فى مجرى تحت الأرض، اكتشفه أحد الجنود المسلمين السود، ولم يستسلم المحصورون إلا بعد أن استبد بهم الجهد والبلاء.

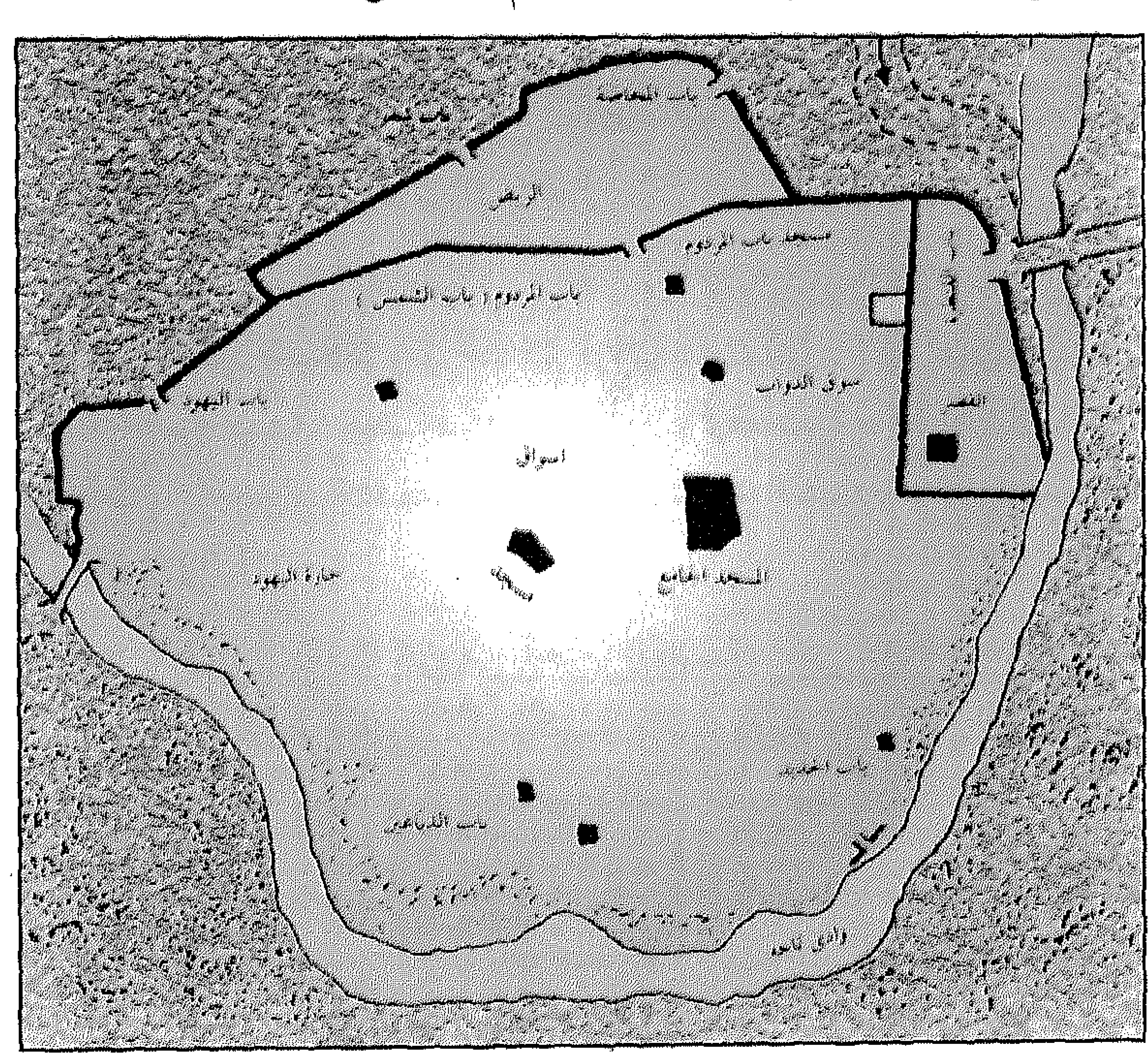
كما أن الرازى يقول: إن مغيثا الرومى أحرق الكنيسة، التى كانوا (الجند الإسبان) يتحصنون بها، فماتوا حرقا. لكننا نستبعد ذلك؛ لأن الكنيسة بقيت بعد ذلك أيام المسلمين، وكان لها ذكر إبان الحكم الإسلامى فى قرطبة زمنا ليس بالقصير وليس للنار فيها أثر.

استطاع المسلمون القبض على قائد المحصورين وقُدِّمَ إلى مغيث الرومى (القائد المسلم) وكان هذا القائد القوطى لقرطبة هو القائد القوطى الوحيد الذى وقع فى أسر المسلمين، وقد سلم مغيث الرومىُّ القائدَ الأسير إلى طارق بن زياد ثم قتله مغيث بسيفه حين دب الخلاف بين طارق وموسى ابن نصير على من يستبقيه فى حوزته ليعرضه على الخليفة فى دمشق، وقد سميت هذه الكنيسة

١٤

«كنيسة الأسرى»، كما أن الحامية التى اعتصمت بها قتلت عند بابها. واحتل مغيث قصرَ الحاكم القوطى ودخل بلاط «قرطبة» فاختطه، وهو الذى سيصبح فيما بعد مقر الأمراء والخلفاء بالأندلس بعد تعديله وترك المسلمون «كنيسة الأسرى» لنصارى قرطبة. فظلت كنائسُهم فى عاصمة الأندلس الإسلامية ما دام حكَمَهَا المسلمون. ولقد عهد مغيث الرومى لليهود بحراسة المدينة (قرطبة) استنامة (تألىفا) لهم دون النصارى للعداوة بينهم. كما عمم المسلمون قاعدةَ الاستعانة باليهود فى حراسة البلاد المفتوحة. مما يوحى بأن اليهود مدوا يد المساعدة للمسلمين إبان فتح الأندلس، ولا غرو فقد عانى اليهود من عنتِ واضطهادِ القوط الشىء الكثير.

فى هذه اللحظة ـ أى بعد تمام فتح قرطبة عاصمة البلاد وبعد اندحار رودريك وحزبه نهائيا ـ تقول بعض الروايات: إن أبناء غيطشة تقدموا إلى طارق بن زياد يطلبون منه العودة إلى حكم الأندلس، مستقلين عن كل من القوط والمسلمين معا. ولكن لم يكن مثل هذا الطلب الذى تقدم به أبناء «غيطشة» مما يمكن لطارق أو غيره ـ وهم قواد ضمن جنود الدولة الإسلامية ـ أن يصدر فيه برأى أو قرار؛ لأن هذا الطلب يتجاهل إستراتيجيةَ الدولة الإسلامية، القائمة على الجهاد لرفع لواء الإسلام، وإعلاء كلمة الله فى الأرض، ودحر جحافل الشرك والكفر والظلم فى كل بقاع هذه المعمورة ما دام فى المسلمين عرق ونبْضٌ ونَفَسٌ يتردد بين جنباتهم؛ لذلك رفض طارقُ الطلبَ، ووافق على رد ما استلبه القوط منهم من أموال وعقار وأرض وهو ما لم يقبله أبناء «غيطشة»، لطمعهم فى أكثر من ذلك، ألا وهو الاستقلال بحكم الأندلس.

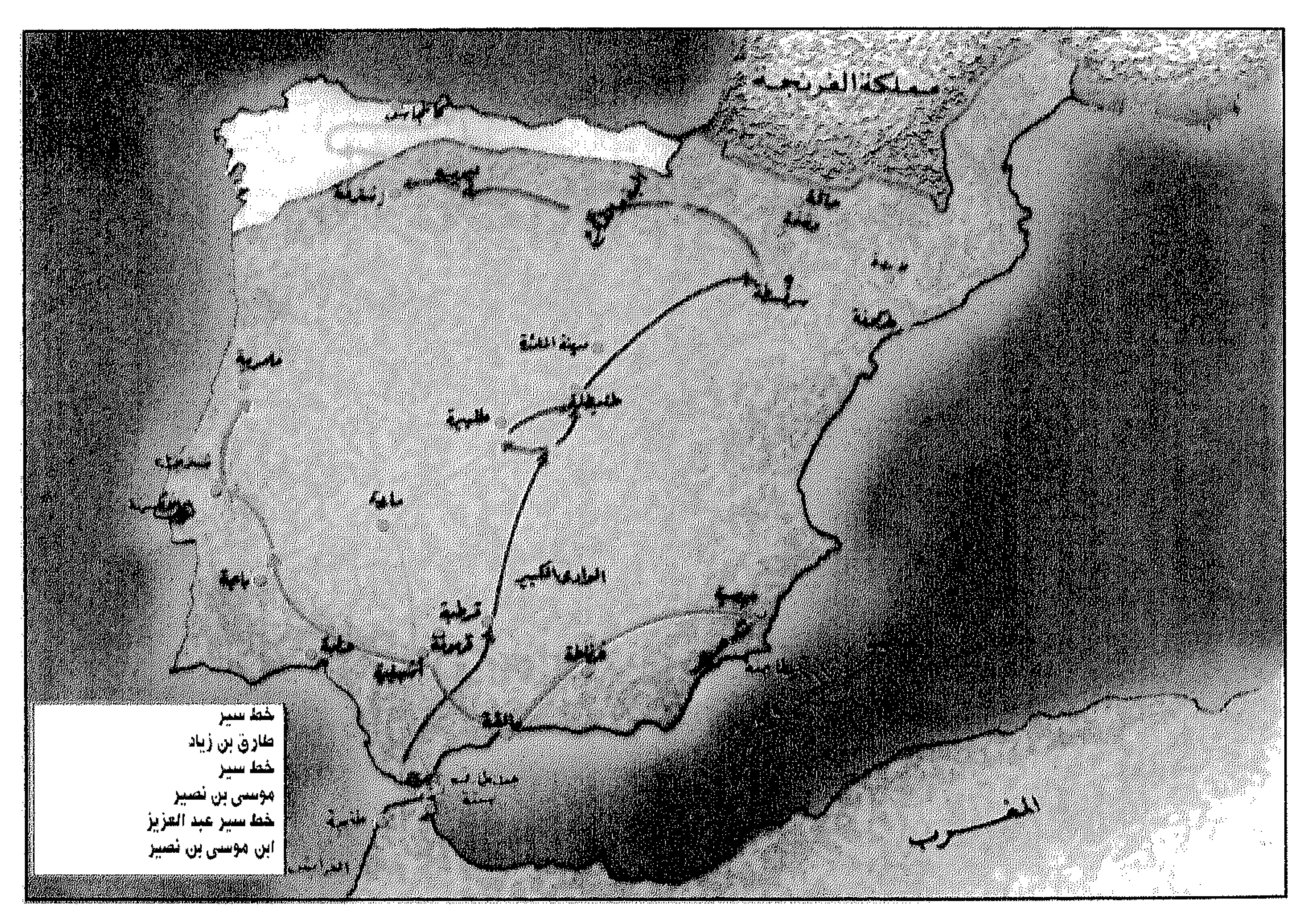


خريطة مدينة طليطلة الإسلامية

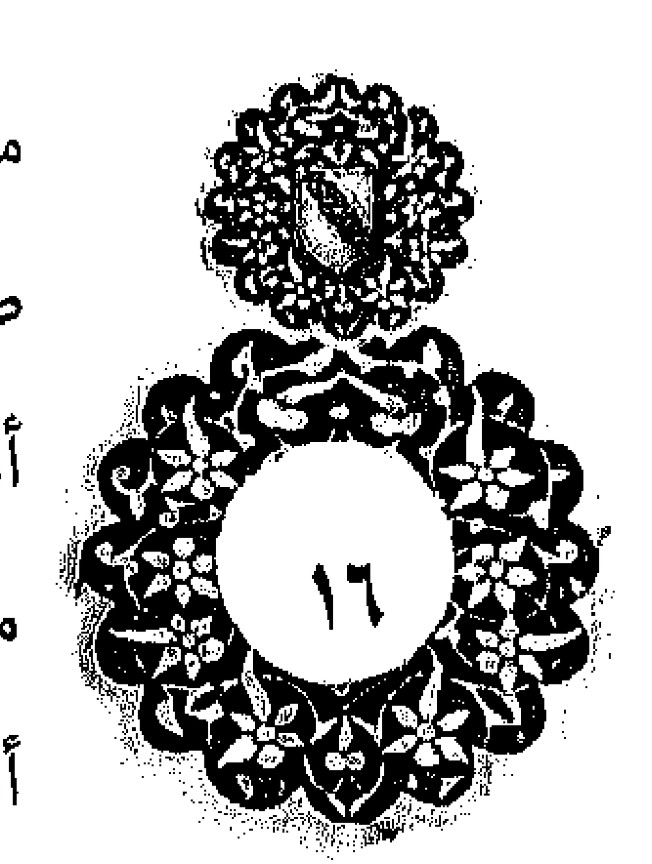
وإزاء هذا الموقف اضطر طارق بن زياد أن يرفع أمر أبناء «غيطشة» إلى موسى بن نصير عامل أفريقية، الذى أحالهم بدوره إلى الخليفة فى دمشق. وقد أقر الخليفة ما فعله موسى وحَمِدَه له. وكان القرار الذى اتخذته الخلافة مطابقا لما عرضه كل من موسى وطارق على أبناء «غيطش». وإزاء هذا الموقف، قبِلَ أبناءُ «غيطشةَ» بالأمر الذى استقر عليه رأى الخلافة، وأعيد إليهم ما أخذ منهم من ضياع، كان عددها نحو ٣ آلاف ضيعة. فأخذ «ألمند» ألف ضيعة واستقر فى «أشبيلية»، وأخذ أخيلا أو وقيلا» ألفا أخرى، فى منطقة بشرق الأندلس وفضل أخيلا الإقامة فى طليطلة فى ظل الرعاية الإسلامية المباشرة. وهكذا كان الفتح الإسلامى للأندلس خيرا وبركة لآل «غيطشة». إذ أعاد لهم حقوقهم المغتصبة من مغتصب العرش من والدهم.

و - عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

تقول بعض الروايات الإسلامية بأن موسى ملأته الغيرة من طارق بن زياد، بسبب ما أحرزه الأخير من انتصارات باهرة؛ لذلك قرر موسى الذهاب بنفسه إلى الأندلس ليعاقبه وليفتح موسى بنفسه فتحا أعظم من فتوح طارق بن زياد. ونحن نستبعد ونرفض من البداية مجرد القول بأن موسى امتلأ قلبه حسدا وغلا على طارق، وخاصة أن طارق لم يحرز هذه الانتصارات إلا باسم



خريطة الفتوحات الإسلامية فى الأندلس



موسى وتحت لوائه؛ لأنه - أي موسى - كان رئيسا لطارق، هذا فضلا عن أن طارق لم يزه بانتصاراته أو يفخر بها على موسى. فما عرف عن طارق عُجْبٌ أو خُيَلاَء أو كِبْر. كما أن طارق كان حريصا على إحاطة موسى علما - بصفة مستمرة - بكل ما يحرزه من انتصارات، بدليل أن طارقا لم يبت في موضوع أبناء «غيطشة» دون الرجوع إلى قائده ورئيسه «موسى بن نصير».

والمحتمل هو أن موسى شعر بتوغل طارق وجيشه فى إسبانيا فخشى على طارق وجنده، أن يلتف عليهم العدو من خلفهم فيقطعُ خطوطَ الاتصال بين الجيش الإسلامى الفاتح بقيادة طارق وبين قاعدة الإمدادات الإسلامية ببلاد المغرب، فيباد المسلمون؛ لأن طارقا ترك - أثناء زحفه السريع - جيوبا فى كل من شرق وغرب الأندلس لم يفتحها، وهذه الجيوب كان لابد من فتحها حتى لا يتهدد المسلمين خطرٌ من «أريبولة»، و«أشبيلية» التى كانت لا تزال بيد القوط، وكان بمكنتهم - والوضع هكذا - أن يفصلوا الجيش الإسلامى الفاتح فى شمال الأندلس عن الحامية الصغيرة، التى كانت ترابط فى قرطبة، ثم القطع بين الجيش والحامية معا وبين قواعدهم فى الشمال الأفريقى، وهذا هو ما خشيه موسى بن نصير على طارق وقواته. الأمر الذى جعل موسى يطلب من طارق التوقف قليلا حتى يلحق به موسى بن نصير، بعد أن يكون قد طهر الجيوب التى تركها طارق على جانبى طريق زحفه السريع.

فالدافعُ إذن دافعٌ يبتغى خير الإسلام والمسلمين العام، والمحافظة على ما أحرزه الإسلام من نصر وقوة، وبالتالى لم يكن الدافع تلك الهواجس أو ذلك الحسد والحقد الذى قيل - والعياذ بالله - أن قلب موسى قد أُوغِرَ بهما من جنديه المخلص «طارق» ذلك البطل الصنديد، الذى طالما ارتفعت على يديه وبجهود قواته وخفقت رايةُ الإسلام.

ولقد كان موسى يرى عدمَ السيرَ فى نفس الطريق التى سلكها طارقُ بن زياد فى زحفه الكاسح السريع، لقد كان موسى بن نصير يرى سلوك غير الطريق التى سلكها طارق من قبل. ولم يكن بعمله وفكره هذا منافسا، بل مكملا ومتمما لما بدأه طارق. كما أن موسى لم يحسد طارقا على غنائمه؛ وذلك لأن ما أحرزه طارق كان باسم موسى ومردود إليه.

وعلى هذا فلم يكن ذهاب موسى إلى الأندلس لغرض تأديبى يتعلق بطارق، وإنما لفتح البلاد الجنوبية والغربية، التى تركها طارق بن زياد دون فتح أو تطهير. فلما تم لموسى ذلك لَقِيَ «طارقا» عند أو فى مدينة «طلبيرة» (على مقربة من طليطلة). وقد يكون هناك حساب أو مراجعة بين القائد العام للجيش وبين أحد قواده فى جيشه على بعض التصرفات، أو قد يدور نقاش حول خط سير مرحلة من مراحل العمليات العسكرية. وهذا أمر طبيعى ومنطقى، بل وضرورى فى

الحروب، التى تملى تطورات المعارك الحربية فيها - فى لحظة من اللحظات - ضرورةَ التوقف لمراجعة المرحلة السابقة لتقويمها ومعرفة سلبياتها وإيجابياتها، ومن هذا المنطلق وحده كان نقاش موسى بن نصير مع طارق بن زياد، من منطلق مصلحة الدولة الإسلامية فقط، وليس من منطلق نَفْسىٍّ قد يكون دار بخلد أو بصدر موسى القائد العظيم المتسامى عن مثل هذه الصغائر. . وبالتالى لم يكن النقاش أو الحساب أو قل المراجعة للمواقف، عقابا من موسى لأحد أبرز قواده وأخلصهم وأقربهم إلى قلب موسى ونفسه.

وبناء عليه نستبعد رواية ابن عبد الحكم التى تقول بأن موسى لما وصل إلى طارق قبض عليه وحبسه، وأن طارقا كتب من محبسه إلى «مغيث الرومى» لينقل خبر سجنه إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وأن مغيثا حذر موسى من مغبة تصرفه مع طارق، فهذه الرواية لم يذكرها أحد من المؤرخين سوى ابن عبد الحكم، على لسان مغيث الرومى. ومغيث هذا مشكوك فى صدق روايته؛ لأنه كان يحنق على موسى وولايته للأندلس، ويرى نفسه أحق بها من موسى؛ ولذلك طَفَقَ يلفق التهم لموسى، ويكيل له الإساءات ويختلق عليه الجرائر الشنيعة التى يمكن أن تحط من شأن موسى وقدره عند الخليفة فينال منه ليخلو الجو لمغيث الرومى، فيتولى إفريقية والأندلس معا أو إحداهما على الأقل بعد أن يقضى على موسى.

ومما يرجح نفى رواية ابن عبد الحكم - المستمدة عن «مغيث الرومى»، عن موسى بن نصير وحبسه «طارقَ بن زياد»، وأنه هَمَّ أن يجلده بسوطه (أى بسوط موسى)، أن هذه الحادثة لم يذكرها أحد من المؤرخين الأندلسيين الذين حضروا هذه المواقف بين القائدَيْن العظيمَيْن.

كما ينفى ويدحض هذا الزعم، والزعم بغيرة موسى من طارق وحقده عليه، أنهما بعد اللقاء عند «طلبيرة» بدآ مرحلة جديدة من التعاون معا لاستكمال عمليات الفتح فى بلاد الأندلس، وسار كل منهما حسب خطة عامة وضعاها معا (موسى وطارق) فى اتجاه معين متعاونَيْن ومتساعدَيْن. فكيف إذن يستوى القول بأن موسى قبض على طارق وحبسه وأنَّبه وصفَّده وأوشك أن يجلده، بسوطه (أى بسوط موسى نفسه)، ثم يقبل طارق بعد كل ما ذكر عن موسى تجاهه من إهانة وحقد وتعنيف وجحود لجميل طارق وجُهْدِه فى الفتح؟؟؟. نعتقد جازمين أن هذا لم يحدث وأن كل ما قيل عن موسى محض اختلاق وافتراء، وأنه برىء من كل ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

وكل ما يمكن قوله هو أن القائدَيْن العظيمين، وقفا معا وقفة حساب لا عتاب، ومعاودة لدراسة الموقف العسكرى الإستراتيجى للمسلمين، وأن موسى أوضح لطارق بعض ثغرات (جيوب) تركها جيشُه - أى جيش طارق - فى زحفه السريع ولم يتنبه لها، أو أن تكون الأحداث ربما لم تَدَعْ

لطارق فرصةَ تصفيتها، وطلب موسى من طارق تلافى ذلك فى المرحلة الجديدة. وهذا التخمين يؤيده قول «ابن حيان التوحيدى» ثم إن موسى أظهر الرضا عن طارق وأقره على مقدمته (أى على مقدمة جيش موسى)، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه، وسار موسى خلفه فى جيشه.

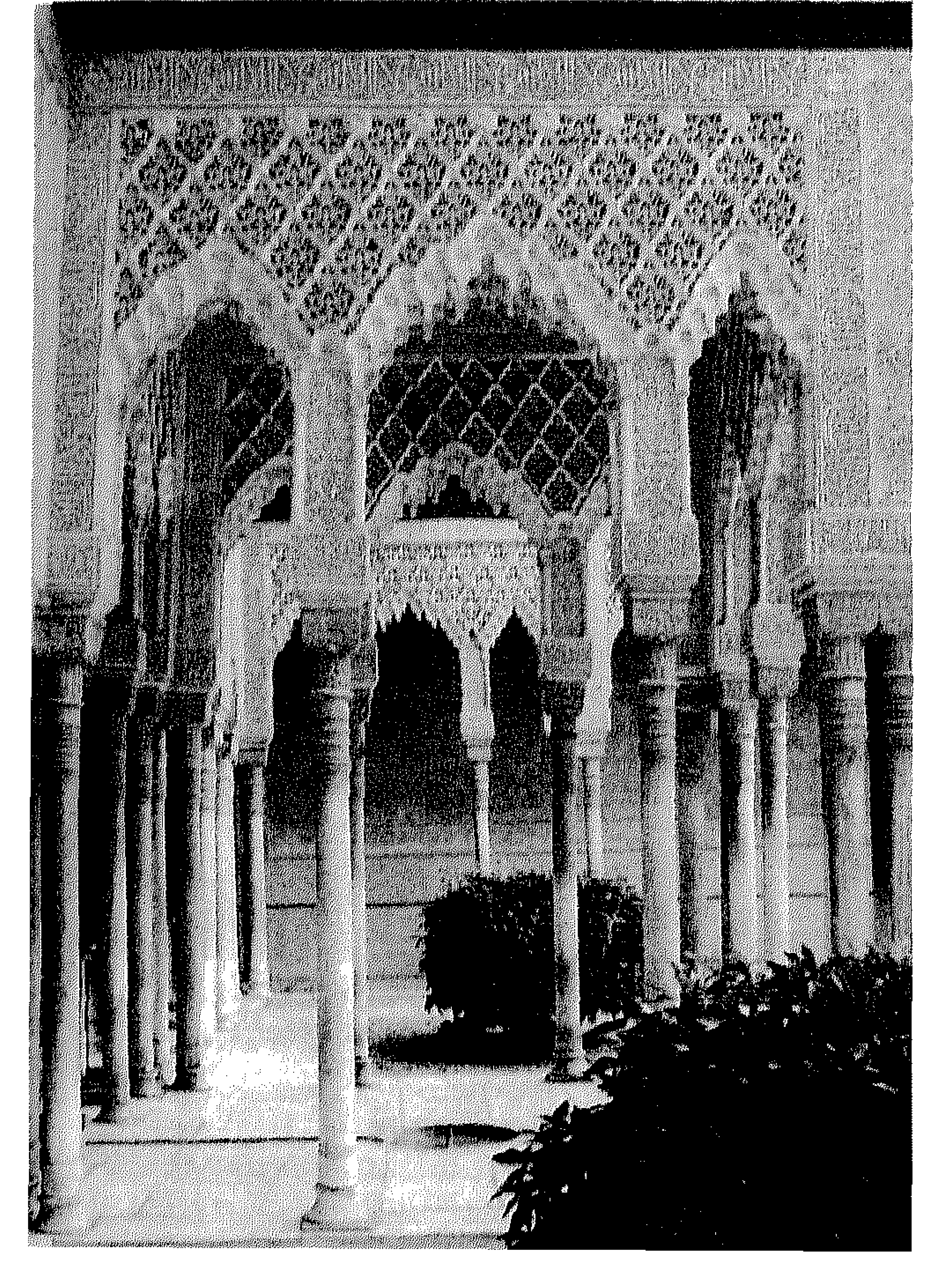
ونحن نميل للأخذ برواية المقرى عن ابن حيان التوحيدى، الذى لم يذكر شيئا من حبس أو ضرب أو جلْد قد يكون موسى ألحقه بطارق، بل ذكر أن طارقا ظل محتفظا بمنزلته لدى موسى بن نصير، ومِنّ أوثق رجاله، وصاحبَ مقدمته.

والحق، أن موسى كان على اتصال بطارق منذ نزوله للأندلس، وأن خروج طارق للقاء موسى عند «طلبيرة»، كان لغرض حربى آخر غير مجرد اللقاء. ثم إن الرجلين أتما معا ـ وفى منتهى التعاون والإخلاص لبعضهما ـ كل عمليات الفتح، وأدياه كأحسن ما يكون الأداء، ثم عادا للمشرق معا فلم يشْكُ طارق من موسى للخليفة، ونعتقد أنه لو كان ناله أذى من موسى لما توجه معه إلى دمشق أولا، ولما سكت عليه وهو فى حضرة الخليفة ثانيا. ويورد المقرى رواية، نميل إلى تصديقها والأخذ بها، وهى أن موسى لما سمع بانتصارات طارق الظافرة فى أرض إسبانيا، أباحه إياها قائلا له: «يا طارق لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يُبيحَكَ الأندلسَ فاستَبِحْهُ هنيًا مريا. فقال له طارق: أيها الأمير، والله لا أرجع عن قصدى مالم أنته إلى البحر المحيط».

فكيف بالله يكون موسى حاقدا على طارق وغاضبا عليه ومنْه، ثم يمنحه إقليم الأندلس «هنيا مريا» جزاء وفاقا له على حسن بلائه، كما أن مما يدل على كذب الرواية المنسوبة إلى «مغيث الرومى» أن الخليفة لم يُعْطِه الولاية التى رجا، فعاد للأندلس، كما خرج منها، كما ترك الخليفة سليمان بن عبد الملك الأندلس فى يد «عبد العزيز بن موسى بن نصير».

وكما سار جوليان مع طارق، فإنه سار كذلك مع موسى بن نصير ودلَّه، وكان له الفضل فى تكملة فتوح طارق، التى لو نظرنا إليها لشعرنا أنها تمت نتيجة

أشبيلية - القصر العربى



خطة محكمة وضعا ودرسا وتنفيذا، وكان جوليان وصحبه خير رفاق وخير عَوْنٍ لموسى وطارق، وبهذا تكامل العمل، وتم إخضاع شبه جزيرة أيبيريًا للمسلمين تماما.

وليس بمستبعد أن يكون طارق قد طلب من موسى بن نصير مددا، فعبر موسى بنفسه إلى طارق على رأس المدد لمساعدته فى موقفه أمام العدو. وهذا ما يورده «ابن قتيبة» إذ يقول: «وكتب طارق إلى موسى، أن الأمم تداعت علينا من كل ناحية، فالغَوْثَ الغَوْثَ». وهذا يعنى أن طارقا مأزوم يريد مددا ونجدة من قائده ورئيسه موسى والأزمة ـ فى الغالب ـ تتأتى نتيجة خطأ فى الحساب أو التصرف، وليس هناك سوى أن يهب موسى لنجدة طارق أولا، ثم تعريفه بما قد يكون وقع فيه من أخطاء ثانيا ليتلافاها مستقبلا. وهذا ما حدث. ومما يؤكد هذا الفرض والرأى أن الرازى ذكر أن طارقا أقام ـ بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة ـ فى طليطلة لا يكاد يصنع شيئا. وهو لو قد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شىء لفعل، ولكن من معه من الجند، كانوا قد أُنْهِكُوا من طول فترة المرابطة والمقاومة ضد القوط فى نواحى الأندلس.

ذلك أن المقاومة فى بعض نواحى البلاد كانت قد بدأت ترفع رأسها، لذا فضل طارق المكوث حيث هو، وكتب يستنجد بموسى. ويدلنا خط سير موسى وجيشه، على أن جوليان نبه موسى إلى خطورة ترك هذا المعقل الخطير فى أيدى أعداء المسلمين بدون فتح.



أشبيلية - زخارف العقود الإسلامية - القصر

وكان عبور موسى إلى الأندلس فى رمضان سنة (٩٣هـ - يونيو ٧١٣م) بجيش قوامه ١٨ ألفا، أغلبه عربا، كـان منهم «طالعة موسى»، وهى مجموعة من مهاجرى العرب للأندلـس ـ وكانت لهم الصدارة بين مسلمى الأندلس زمنا طويلا، كما سيكون لهـم دور حاسم فى سير الأمور. وقد قسم مـوسى جيشه إلى مجموعات وفرق، عبرت على دفـعات لتتجمع فى مكان اتفق عليه معهم. وقد بُنِـيَ فى هذا المكان بعد ذلك مـسجد عـرف «بمسجـد الرايات» وظلا هذا المسجد والموضع الذى هبطت فيـه قوات موسى بن نصير عامرَيْن قرونا طويلة، وسـمى فيما بعد باسم «مرسى موسى» ثم عجل موسى بالسير إلى مدينة «شذونة» ثم «قرمونة» و«رعواق» فأخذها.

وباستيـلاء موسى والمسلمـين على هاتين المدينتـين ـ قرمـونة ورعواق ـ، تصـبح خطوط مواصـلات المسلمين من الجزيرة الخضـراء إلى قرطبة آمنة وسليـمة، إذ أصبح المسلمون مـسيطرين على مدائن الجزيرة، وشذونة، ورعواق، وقرمونة، وأستجة، وقرطبة. وبذلك صار بإمكان موسى بن نصير الاتجاه غربا، لفتح «أشبيلية» كبرى مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك.

ز - فتح أشبيلية:

حاصـر المسلمون أشـبيليةَ بضعـةَ أشهر، وقاتلوا لفتـحها طـويلا، حتى إذا استـيأس أهلُها واليهود الذين بها، فتحوا أبوابها للمسلمين وانسحبت حامـيتُها إلى «لَبْلَة» ـ على مـصب وادى آنه ـ ومنها إلى «أكْـشونْبة» ثم «بـاجة»، حـيث مكثت ترقب الموقـف. تم تـرك موسى فى أشبـيلية حاميـة صغيرة من اليهود والبـربـر، بينـما سار هـو إلى مدينـة ـ «مـاردة»، واستولى ـ وهو فى طريقه إليها ـ على مدينة «لقنت» ألتى سلمها أهلها إليه، دون حرب، مما جلعهم يُسَمَّوْن بـ«موالى موسى».

ح - فتح ماردة:

كانت مـاردةُ محـصنة وتجمع فـيها أنصـارُ لذريق، وفلولُ القوط الذين هـربوا أمام زحف القوات الإسـلامية منـذ بدايته، فحـاصرها موسى بن نـصير بقـية الصيف والشـتاء التـالى حتى استسلمت له ـ غرة شوال (سنة ٩٤هـ الموافق ٣٠ يوليو ٧١٣م) ـ بعد أن فقدت حاميةُ المدينة عددا كبيـرا من جنودها، الذين راحوا فى القتال الشديد، الذى دار حـول ماردة، كما استُشْـهِدَ نفرٌ من المسلمين أثناء نقب سور المدينة.

ولقد عاهد موسى أهلَ البلدة على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين، وأموالَ الهاربين إلى جليقيـة للمسلمين، وأموال الكنائس وحُلِيَّـهاَ لها (للكنائس). والجدير بالذكـر أن بنود هذا العهد (الصلح) سوف يكون لها أثرها فى تحديد العلاقة بين المسلمين وبين أهالى المدينة فيما بعد.

وبعـمليات الفـتح الإسلامـى لماردة، على يد موسى بن نصـيـر، يكون الفتح الإسـلامى للأندلس قـد دخل طورا جديدا، كـما يذكـر (سافـدرا) المؤرخ الإسبـانى المعروف؛ لأن حـراسة الحصون لم يعـدْ يَعْهَدْ فيهـا المسلمون إلى اليهود، كمـا لم يعد أهل البلاد يفتـحونها من الداخل

للمسلمين، ولم يعد المسلمون يبغتون البلاد ويفتحونها فجأة، وهذه كلها أمور ودلائل على أن لونا من القطيعة قد وقع بين الأهالى والمشارقة.

أما سبب هذا التغير، فهو أن موسى - فى سيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة - رأى بعينه سوء حال الشعب الإسبانى، ورأى كذلك أن الملك «لذريق» لم يكن قادرا على تجييش جيش محترم، وأن مجلس الشيوخ (السناتو) لم يكن ليستطيع الاجتماع للتشاور فى الأمر، وأن أنصار «غيطشة» لم يكن يؤيدهم إلا نفر قليل لا يملكون عدة الحرب أو القدرة على إدارة الحكومة. وكل هذه أمور ترجح لدى المسلمين - وممثليهم فى أفريقية والأندلس - فكرة إدارة ما تم للمسلمين فتحُه إدارة مباشرة تابعة تبعية مباشرة للخلافة، أى أن يدير المسلمون ما فتحوا، من بلدان فى الأندلس «باسم الخلافة».

ويرى بعض المؤرخين - ومنهم سافدرا - أن المسلمين ظلوا حتى فتحهم لمدينة «ماردة»، لا يفكرون فى الاستقرار والفتح الثابت الدائم، أو على الأقل كانوا يبغون تحييد تلك البلاد بالنسبة للدولة الإسلامية، بدل أن تكون معادية، لكنهم الآن بعد فتح ماردة - قرروا - فى شخص موسى ابن نصير - ضم هذه البلاد ضما ثابتا للدولة الإسلامية (الأموية).

ولعل هذا التفكير هو ما غَيَّر نفوسَ أهل البلاد، فلم يعودوا يؤازرون المسلمين، كما كان الحال قَبْلا، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أى فاتح معتد، يريد بلادهم بسوء. وهذا الرأى للمؤرخ (سافدرا) (Savedra) لا نميل إلى الأخذ به أو تصديقه؛ لأن المسلمين منذ وطئت أقدامُهم أرضَ إسبانيا، وهم ينوون فتحها فتحا ثابتا ومنظما ومستقرا، وضمها لرقعة بلاد الإسلام، أما أن نفرا من أنصار «غيطشة» والأسبان لم يتنبهوا إلى نية المسلمين إلا متأخرين، أو أن المسلمين - دخلوا إسبانيا أول الأمر مساعدين لمظلومين هم أبناء «غيطشة» وحزبهم ثم لم يلبثوا - أى المسلمون - أن انقلبوا فاتحين، فهذا قول مردود عليه ومرفوض من الوهلة الأول. لأن أبسط دراسة لإستراتيجية الفتح الإسلامى توضح أن فتح الأندلس (بر إسبانيا) كان أمرا واردا فى ذهن الخلفاء والقادة فى الدولة الإسلامية.

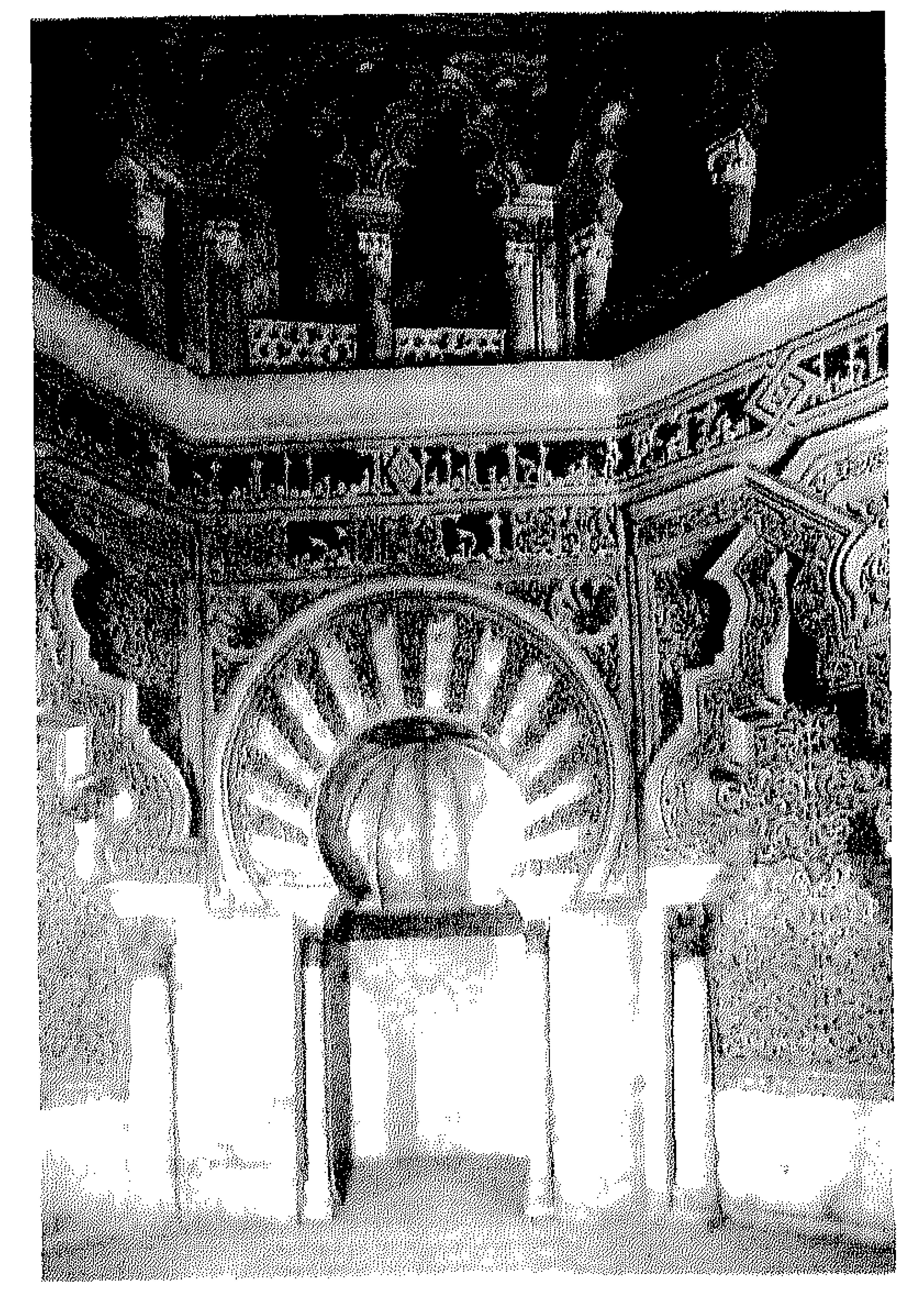
ويستدل «سافدرا» على حجية رأيه بما حدث من انقلاب أهل أشبيلية على المسلمين. فيذكر أن عجم أهل أشبيلية تَحَيَّلوا على من بها من المسلمين، وجاءوا من مدينة يقال لها «لبلة» ومدينة يقال لها «باجة»، فقتلوا من بها من المسلمين، نحو ثمانين رجلا فقدم فلُّهم على موسى بن نصير بماردة. فلما فتح ماردة، بعث ابنه «عبد العزيز» على رأس جيش إلى أشبيلية وافتتحها ورجع.

ونحن على الرغم من تسليمنا بأن هذا هو أول انقلاب وتغير فى قلوب الإسبان على المسلمين، لكننا نقول من أين استدل «سافدرا» على أن من قام بهذا العمل من الإسبان، وليسوا من فالَّة القوط المنهزمة المتجمعة فى النواحى الغربية من إسبانيا، وأن هؤلاء تجرأوا على من بأشبيلية من المسلمين لقلتهم وبُعْد إخوانهم المسلمين عنهم. وقد أيد «ابن حيان التوحيدى»، هذا

الفرض الأخير، وكذلك صاحبُ الأخبار المجموعة. ثم، لماذا ـ إذا كان أهل لبلة وباجة هم الذين ثاروا ـ لم يثر أهل لبلة وباجة أنفسُهم على المسلمين فى بلدهم دون أن يسيروا ويشاركوا أهل أشبيلية التمرد والثورة على المسلمين؟؟؟.

أضف إلى صحة القول بانقضاض فلول القوط على قلة من المسلمين فى أشبيلية، أن عبد العزيز بن موسى بن نصير «لم يعاقب الأشبيليين أنفسهم، بعد إخماد ثورتهم المزعومة، بل إنه تركهم على حالهم. وليس من المعقول أن يكونوا ثوارا على المسلمين ثم يتركهم عبد العزيز دون عقاب، أو تأديب.

على كل حال، فإن عبد العزيز بن موسى بن نصير اتجه ـ بعد إخماد الثورة ـ إلى لبلة وباجة، وربما «أكشونبه»، ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع فيها من فآلة القوط، ثم ترك المدينة وبها حاميات إسلامية تؤمنها من أى تهديد أو تدبير قوطى مضاد للمسلمين. وقد ورد نص عن ذلك عند المقرى (صاحب نفح الطيب..) وبالذات عن «باجة» وحاميتها القوية وقائدها العربى المسلم العظيم «عبد الجبار» قائد ميسرة موسى بن نصير، وجَدُّ بنى زهرة، أحد بيوت أشبيلية التى سيكون لها شأن فيما بعد.



قصر الجعفرية – محراب الصلاة – سرقسطة

استمر موسى بن نصير مقيما لمدة شهر فى ماردة، ليعيد تنظيم قواته ويريحها ويرتب أمور البلد. وقد أدرك موسى ـ وهو فى ماردة ـ ما ينتظر المسلمين من مهام ومواجهات صعبة، غرب الأندلس. وقد شعر موسى بن نصير بذلك نظرا لما رآه من تجمع فلول القوط فيها، كما يروى ابن عذارى. والدليل على أن فتح ماردة كَلَّفَ موسى بن نصير من أمره رهَقا، ـ ولم يتم إلا بحيلة، وأنه خسر فيه المسلمون أكثر مما خسروه فى قرطبة أو أشبيلية أو حتى طليطلة، بسبب تجمُّع بقايا القوط الفارين فى هذه الجهات الوعرة من كل جانب، أن طارق بن زياد اضطر للخروج فى هذه المرحلة المتأخرة لمساعدة موسى، حين أيقن بحاجته للعون، وشدة حرج موقفه

لمسلمين هناك وبصفة خاصة حين همَّ «موسى» بالمسير من «ماردة» فى اتجاه
طليطلة» إذ إن الطريق طويل ووعر ومحفوف بالأخطار بسبب تجمع فلول
قوط عليه.

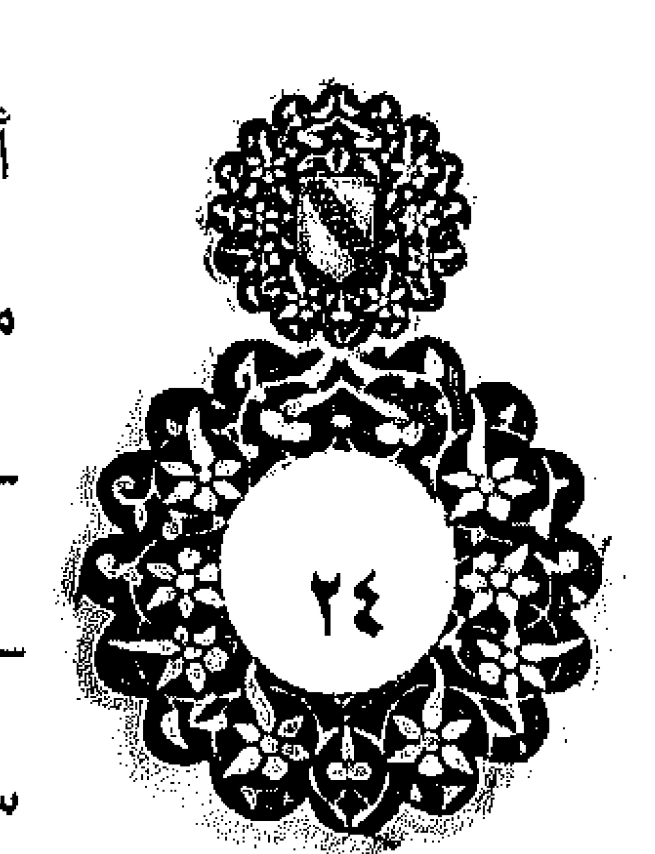
والحق، أنه كانت هناك عملية التفاف كبيرة تتم حول جيوش الفتح
لإسلامى فى المنطقة بين «وادى آنة» و «نهر التاجة» فى ذلك الحين بقيادة
لذريق»، الذى تقهقر بفلوله وتجمع بهم فى شعاب الهضبة مما يلى «وادى آنة»
ى الشمال. فكان لابد لموسى بن نصير أن يقضى على هؤلاء قبل سيره من ماردة إلى طليطلة،
سار طارق نحو ١٥٠ ميلا، وانتظر فى «وادى الأروكامبو» فى مكان يعرف باسم «المعرض» بين
التاجة» ونهر التيتار.

ولقد سار موسى فى طريق رومانى قديم، يصل ماردة وسلمنقة، بحذاء وادى نُهَيْرٍ سيحمل
ن ذلك الحين اسمه وهو «فالموثا» (وادى موسى). حيث انقض عليهم لذريق وجنوده عند منطقة
السواقى» قرب «تمامس». فأبادهم جند المسلمين، وقتل لذريق بيد «مروان بن موسى بن
صير».

وبذلك شهدت تلك البقعة مصرع آخر ملكٍ قوطى، وحمل أتباعهُ رفاتَه ودفنوها فى
«فيزيو» وظل قبره هناك معروفا، حتى زمن «الفونسو الكبير» الذى ذكر فى حولياته أنه رأى قبرا
عليه لوحة تقول: هنا يرقد لذريق ملك القوط». وهذه الواقعة صارت أساسا للملاحم الإسبانية،
التى نشأت بعد ذلك حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن البلاد، وذلك على الرغم من
إهمال المؤرخين لها.

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط فى هذه الموقعة (فالموشا) عند تمامس شجع نفرا من
بقايا القوط وأنصارهم فى طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فوثبوا على المسلمين، منتهزين
فرصة خروج طارق وجنده، ولذلك عاد لها موسى وفتحها من جديد ودخلها دخول الظافرين.

وهناك رأى يقول: إن أحد أفراد أسرة «غيطشة» كانوا يأملون - بعد مقتل لذريق - فى أن
يقيمَهم المسلمون ملوكا على البلاد، وأنهم صُدِمُوا حين أعلن موسى بن نصير، بعد دخوله
طليطلة، أن البلاد كلها خاضعة للمسلمين وخلافتهم فى دمشق. ولم يكن أمام أبناء غيطشة سوى
تقبل هذا الوضع والرضا برد أملاكهم إليهم، وما عهد إليهم به موسى من مهام. وقد استقر وقلة
(أخيلا) فى طليطلة وأمِنَ فى كنف المسلمين، وخلفه ابنه «ألبرو» أو «الفارو»، ثم حفيده
«حفص»، الذى كان قاضيا للنصارى فيما بعد. أما «أرطباس»، فاستقر فى قرطبة مكرَّما معزَّزًا بين
المسلمين. وحَفِظَ له المسلمون لقب «قومس«الذى ورثه عنه - ابنه «أبو سعيد». أما «الموند»، فقد



أقام فى أشبيلية وأنجب «سارة»، التى أكرمها المسلمون، وابنين آخرين هاجرا منها للشمال، وبقى الآخر يحظى برعاية المسلمين، ونصبوه أسقفا للمستعربين جميعا. وكافأ موسى «أبة» (أوباس) ـ أخا «غيطشة» الذى ساعد قوات المسلمين ـ فعينه أسقفا لمدينة «طليطلة» لكنه لم يعمر فى منصبه طويلا إذ خلفه «أوربانو» سنة ٧١٩م.

ط - الاتجاه نحو الشمال أو التفكير فى اجتياز جبال البرانس شمالا:

بعد أن استقر الحال بموسى، بما فتح الله عليه وعلى المسلمين من بلدان إسبانيا، بدأ يتأهب لمرحلة جديدة من الفتوح، متجها بها نحو الشمال، لإكمال عملية فتح الأندلس (شبه جزيرة أيبيريا كلها). ويرى المؤرخون أنه عقد عزمه على ذلك ـ أى على اختراق البرانس وغالة ـ وأوربا كلها، ليصل منها جميعا إلى القسطنطينية من ناحية الغرب. كما كان يأمل فى أن يصبح طريق مخْتَرِقِهِ هذا بعد ذلك مسلكا «يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون البحر». لكن لا نستطيع أن نؤكد أن العبور لما وراء البرانس كان لفتح القسطنطينية من الغرب.

وكان ما لقيه الجيش الإسلامى الفاتح من مقاومة عنيفة فى «ماردة» و«السواقى» وثورة طليطلة، مما دفع بالمسلمين ـ على الأرجح ـ إلى أن يكونوا أميل للعنف أكثر مما كانوا قبلا. فنسمع كثيرا عن نهبٍ وحرقٍ حل بالبلاد وأهلها، الذين خرجوا منها هائمين على وجوههم. ولا غرو، فقد كان موسى بن نصير ميالا للشدة والقسوة مع المتمردين والمقاومين للوجود الإسلامى.

وما أن وافت طلائع الجيش الفاتح «سرقسطة»، حتى ارتاع أسقف المدينة «بنسيو» ورهابنته، وأزمعوا الفرار بما لديهم من ذخائر الكتب النفيسة ونفائس الكنيسة، لولا أن موسى بعث إليهم من يُهَدِّئ، ويُسكنُ مخاوفهم، فبقوا حيث هم.

ودخل المسلمون بعد قتال يسير، وقام التابعى حنش بن عبد الله السبئى الصنعانى، بإنشاء مسجد للمدينة، صار بعد ذلك مسجدا جامعا ومنارا للإسلام وأهله، فى هذه النواحى قرونا طويلة.

وبعد أن فتح موسى بن نصير «سرقسطة» و«شقة» و«ولاردة»، و«طركونة»، أراد متابعة سيره نحو البرانس، لولا أن الجند ارتاعوا من إقفارِ البلاد وقلةَ عمرانها، وأن أهلها يتكلمون «لغة الباسك» وهى لغة لا يفهمها المسلمون، وأبدوا رغبتهم فى العودة، وانضم إليهم التابعى الصنعانى. وقد حاول موسى إقناعهم بضرورة الاستمرار، لكن النَّصَبَ والإجهاد كانا قد نالا منهم كل منال.

فى هذا الوقت أتى أمرُ الخليفة سليمان ابن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) - يحمله مغيث الرومى - إلى موسى بن نصير وطارق بن زياد، يأمرهما بالشخوص إليه فى دمشق. ولقد أَوْجَسَ موسى خيفة من مغيث الرومى، أن يكون قد دسَّ له ووشى به لدى الخليفة. لكن على الرغم من هذا الاستدعاء، فإن موسى بن نصير مضى يتم غزوته، كما حاول استرضاء مغيث الرومى، ليدعه يمضى فى استكمال فتح ما عزم على فتحه من بلدان، فوعد مغيثَ الرومى بمنحه نصف ما يضم من بلدان فى هذه المهلة القصيرة، ومنحه قصرا فى شرق قرطبة، كان مقرا لحاكم قرطبة القوطى. فرضى مغيث وظل هذا القصر يعرف باسم «بلاط مغيث».

مضى موسى يتابع فتوحه فى «قشتالة» القديمة، ليكمل فتحها ولكى يؤمن بها طليطلة من أية مباغتة غادرة تقع بالمسلمين فيها. وقَسَّمَ موسى جيشه إلى قسمين: قسم برئاسته، وقسم بقيادة طارق بن زياد، فكان على طارق السير نحو جبال «كنتبرية»، فهاجم البشكنس غربى الإبرو ودخل صاحب هذه الناحية واسمه «فرتون» أو «فرتونيوس» فى الإسلام وطاعة المسلمين، ومن «فرتونيوس» هذا أتى «بنوقسى» أصحاب «الثغر الأعلى». ثم تابع طارق مسيره فأخذ «أمايا» و«أشترقة» و«ليون».

ى - أقصى فتوح المسلمين فى إسبانيا:

سار موسى على الجانب الشرقى لنهر الإبرو فى قشتالة، فأطاعه من مر بهم من رؤساء الناحية، لكنه لَقِىَ مقاومة فى قرية «بارو» - أو «بازو» فى مقاطعة «فاليدولد» (بلد الوليد)، غير أنه قهرها وسار يتابع فتوحه، فاتجه شمالا مخترقا «باب تارنا» وسار متابعا «نهر النالون»، ثم حطَّ رحاله، عند قلعة يسميها «المقرى» «قلعة لك» الرومانية قرب «أبيط» (أوفيدو)، وجعل يدكها حتى سويت بالأرض، وفر سكانُها إلى منطقة تسمى الصخرة، ثم سار بنفسه حتى بلغ «خيخون» وترك بها حامية عسكرية، وجعلها حصنا لما فتحه من هذه النواحى البعيدة، ثم بعث سرية من فرسانه وصلت إلى «صخرة بيلاى» على البحر.

وإلى هنا وصل المسلمون فى تقدمهم إلى أقصى ما وصلوا فى فتح إسبانيا، وهى أقصى نقطة من أشتريس «أدركوها أيام موسى بن نصير فى دفعة الفتح الأولى. يقول المقرى: ومشى (أى مغيث) معه حتى بلغ المفازة، فافتتح حصن بازو وحصن لك، فأقام هنالك وبعث السرايا، حتى بلغوا صخرة بيلاى على البحر الأخضر، فلم تَبْقَ كنيسةٌ إلا هدمت ولا ناقوسٌ إلا كسر، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم، وبذْلَ الجزية وسكنت العرب المفاوز».

وإذ أدرك موسى أنه بلغ البحر من الشمال، فقد أحس أنه فتح شبه الجزيرة بأكملها، وكان يترك فى كل قلعة أو مدينة حامية إسلامية. وفى هذه المرحلة أيقن أنه لا معنى للاسترسال فى السير، لأن الخليفةَ يطلبه، وجنودُه قَلَّ عددُهم نتيجة من تركهم منهم كحاميات فى القلاع والمدن،

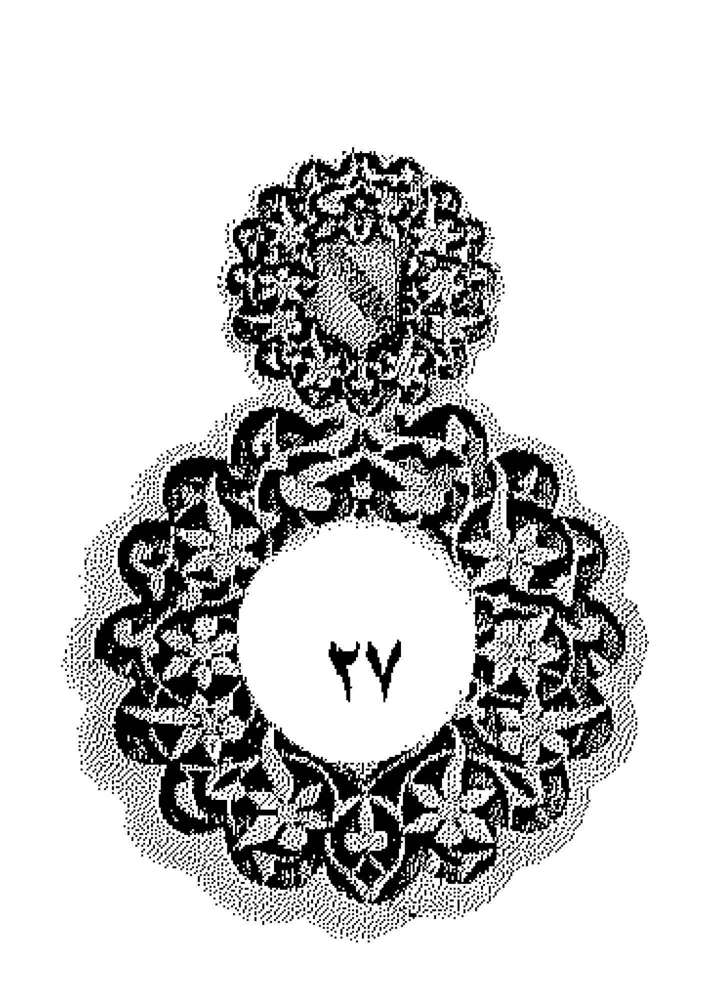
وتفرُّق بعضِهم، واستشهادُ البعض الآخر ملبيا نداء ربه، أما من بقى فآثر العودة.

وكان نفر من القوط كبير، قد تراجعوا أمام زحف المسلمين واحتموا فى نواحى «أشتريس» و«جليقية». لكن القوطَ الفالَّةَ لم تكن لتستطيع فعل شىء، لولا ما دب بين العرب من منازعات قبلية، فلولا ذلك لأمكن استئصال شأفة القوط من على وجه الأرض الإسبانية، وقد استغلت هذه الحفنةُ القوطيةُ الباقيةُ الفرصةَ التى واتتها بالخلاف القبلى بين العرب وبعضهم، فبدأت تنمو وتقوى نفسها انتظارا لفرصة سانحة ينقضون فيها على المسلمين.

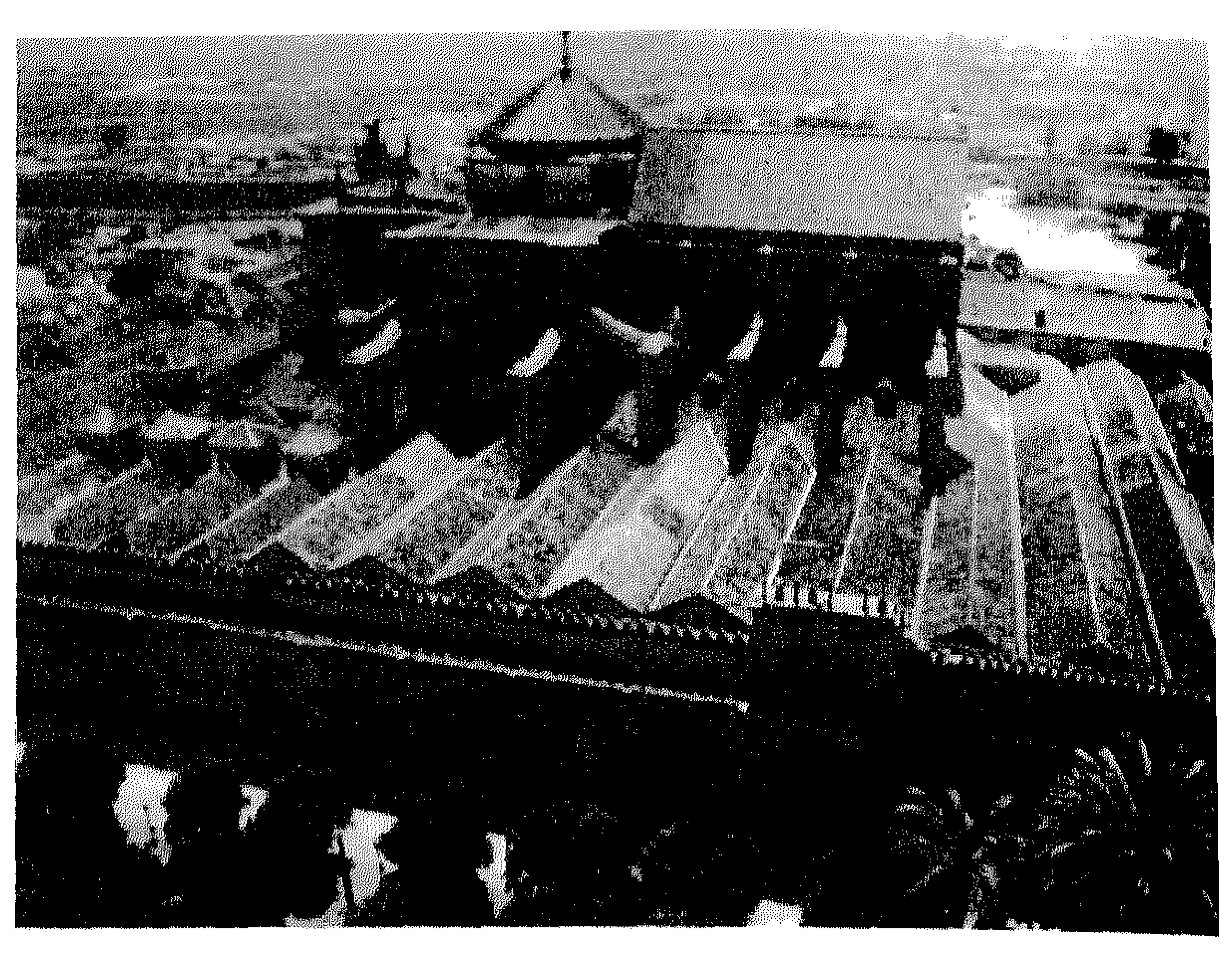


عقود إسلامية - البرتغال

وبعد أن انتهى المطاف إلى هذا الحد الأقصى للفتوح الإسلامية فى الأندلس، كان على موسى بن نصير أن يلبى نداء الخليفة بعودته وطارق إلى دمشق، وخاصة أن الوليد كان يتعجل مجيئهما إليه. وبدأ موسى العودة إلى دمشق فى أواخر (سنة ٩٥هـ -منتصف صيف ٧١٤م)، فالتقى بمغيث فى نواحى «ليون» (Leon)، حيث وافاهما طارق بن زياد من إشترقة. وسار الجمع - موسى وطارق ومغيث الرومى - مخترقين «فج موسى» (وادى موسى) إلى «طليطلة»، ثم مضى حتى «قرطبة»، حيث لقى فيها نفرا من كبار جنده، ثم من قرطبة إلى أشبيلية، حيث ركب موسى البحر ومعه طارق ومغيث وكبار الجند فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥هـ وصَحِبَهُم «جوليان». وكان موسى يصطحب معه عددا من الأسرى، يذكر «ابن قتيبة» أنهم ٣٠ (ثلاثون) من خيرة القوط ودخل الجميع دمشق لابسين أفخم الثياب للدلالة على عظمة الفتح».



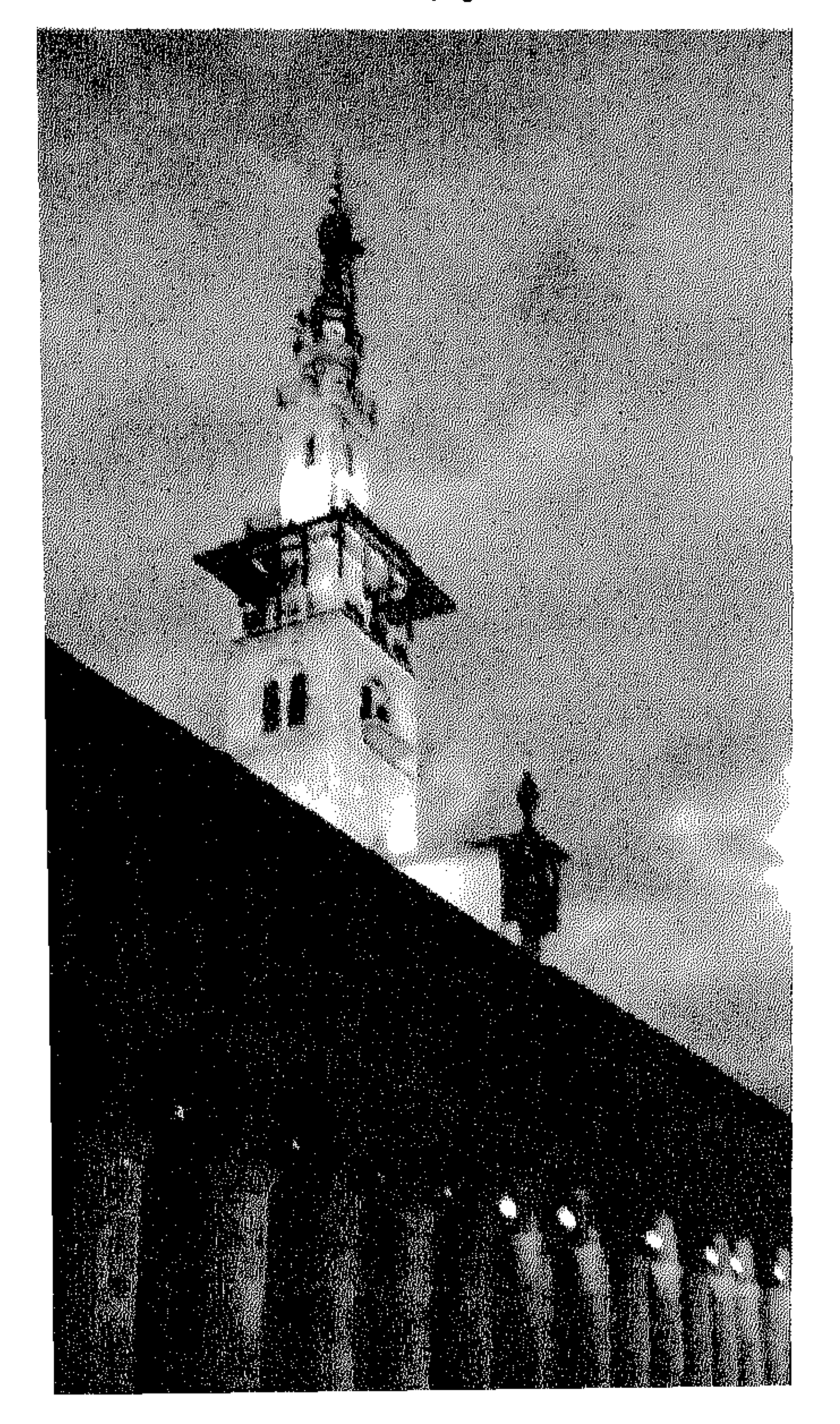
٢٧



مسجد قرطبة

غادر موسى الأندلس فى (ذى الحجة ٩٥هـ - سبتمبر ٧١٤)، فوصل مصر فى السابع من ديسمبر ٧١٤م، ثم دمشق فى ١٦يناير ٧١٥م، أى قبيل وفاة الوليد بأربعين يوما. وكان سليمان ابن عبد الملك قد أحس بدنو أجل أخيه الوليد، فكتب إلى موسى بالتريث وعدمَ القدوم إلا بعد موت الوليد، لتئول الذخائرُ والغنائمُ التى يصل بها موسى وطارق إلى سليمان بن عبد الملك. ولكن موسى لم يُلْقِ بالا لرغبةِ سليمان؛ لأنه رأى أنه إن وصل والوليد حى فهى له، وإن وصل بعد وفاته كانت لمن يخلُفَه حَقّا وعدلا. وكان موكب موسى موكب نصر باهر حقا. تحفه العظمة ويَلُفّه ثوبُ البهاء، حتى أن أحدا من الفاتحين المسلمين لم يبلغ مبلغه من السخاء وكثرة الهبات، كما لم يعد أحد من الفاتحين بمثل ما عاد به موسى، سوى ما غنموه من فتح فارس.

المسجد الأموى بدمشق



وفى نفس الوقت كان الوليد مُغيَّر القلب على موسى، فلم يُحسِنْ لقاءه، ثم مات الوليد، وخلفه سليمانُ بن عبد الملك، الذى لم يكن أقل حنقا وغضبا على موسى من الوليد؛ ولهذا كان من الطبيعى ألا ينتظر موسى خيرا كثيرا، بل كان عليه أن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر.

على أننا لا نميل إلى تصديق الروايات التى تذهب إلى أن سليمان فعل بموسى بن نصير الأفاعيل، وأنه أهانه، وطَوَّفه بالقبائل محروسا يستجدى فديته، وأنه أوقف موسى فى الشمس المحرقة، حتى أعياه وهجُها وطولُ وقوفه. وكل ما يمكننا قوله أو قبوله هو أن سليمان بن عبد الملك (الخليفة)



أهمل موسى وتركه هَمَلا، وهذا لعمرى فى حد ذاته أقسى وأمر على نفس رجلٍ عظيم كموسى، فهو أقسى عليه من لسع السياط، والكى بالنار؛ ذلك أن موسى كان قمينا وجديرا بالعودةِ إلى ما فتح لينظمه أو يزيد فيه لا أن يُحْرَمَ منه.

ومما لا شك فيه أن موسى بن نصير، كان ينوى مواصلة الفتوح لو أتيحت له الفرصة لذلك، ولكنه حُرِمَ منها، فحرم المسلمون فى الأندلس من هذه القوة الدافعة، والموجة الدافقة، والتيار الهادر المتدفق خيرا وبركة للإسلام والمسلمين، الذى وصلت موجاته إلى شاطئ خليج «بسكاى» فى غضون عام ونيف. وهنا سنحت الفرصة للقوط الفالةِ المتربصين بالمسلمين الدوائر، ليستعدوا لصراع طويل مرير مع المسلمين من جديد.

هكذا خرج موسى من الميدان وأطفئت عنه الأنوارُ الكاشفةُ لدوره المجيد والخالد فى حركة الفتح الإسلامى، وعاش بقية أيامه نَسْيا منسيا، لا نكاد نسمع عنه شيئا، وظل موسى كذلك حتى لحق بالرفيق الأعلى (سنة ٩٧هـ - أو سنة ٩٩هـ) حسب رواية أخرى، وهو فى رفقة سليمان بن عبد الملك للحج. وكانت سنه عند وفاته قد تجاوزت الثمانين.

على كل حال، نحن لا يسعنا ـ إزاء ما حدث لموسى بن نصير ـ إلا أن نقول بأن الخلافة الأموية ـ فى شخص سليمان بن عبد الملك ـ لم تعرف فضل وقدر موسى بن نصير، أو عَرَفَتْه ولم تُوَفِّه جزاءه الذى يستحقه. فموسى بن نصير بما قام به، وضع نفسه بين رجالات الإسلام الأُوَل، فهو الذى وضع أساس ما أدركه المسلمون من مجد وسؤدد، وحضارة وسلطان، فى منطقة الحوض الغربى للبحر المتوسط.

فالفتح الإسلامى للأندلس، كان ضرورة اقتضاها تأمين المسلمين فى الشمال الأفريقى، ولو لم يفتح المسلمون الأندلس، لاستمر المغرب الإسلامى مهددا بجموع النصرانية. هذا فضلا عما كان لهذا الفتح الإسلامى للأندلس فى ذاته من القيمة والأثر، وهو شيء غنى عن كل حديث.

قال المقرى ـ معلقا على ما نال موسى من الخلافة الأموية من غَمْطِ لحقِّه وإهدارِ لقيمة ما فعل ـ «فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يُتَرحَّمَ عليه، وأنَّ فعل سليمان به وبولده، وكَوْنُه طرح رأس ابنه «عبد العزيز»، الذى تركه موسى نائبا عنه بالأندلس، وقد جيء به من أقصى الغرب، بين يديه، من وصماته (أى وصمات سليمان بن عبد الملك)، التى تعد عليه طول الدهر، لاجرم أن الله (أى فلا عجب أن الله) لم يمتِّعْه بعده (أى بعد موسى).

حَقا، لقد كان موسى بن نصير، من أعظم رجالات الحرب والإدارة للمسلمين فى القرن الأول الهجرى. وقد ظهرت براعتُه الإداريةُ فى جميع المناصب التى تولاها وتقلدها، كما ظهرت براعة موسى بن نصير فى ميدان الحرب، فى كل المعارك الحربية التى خاضها أو قادها.

على أن هذه القدرات والمواهب، تبدو بنوع خاص فى حكمه لولاية إفريقية (بلاد المغرب)، حيث كانت الحكومةُ الإسلاميةُ، تواجه شعبا شديد المراس، يضطرم ويهدر بعوامل الانتقاض والفتنة. وإذا كان موسى قد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة بسياستها وقيادتها، كما كان موسى - فوق مواهبه الإدارية والعسكرية - غزير العلم والأدب، متمكنا من الحديث والفقه، عالما بالفلك وعلم النجوم، مجيدا للنثر والنظم (الشعر)، غير أن هذه المواهب والخلال البعيدة العديدة، كانت تشوبها نزعةٌ قويةٌ إلى الشدة. وهو مالايستغرب فى قائد مثله عاش كلَّ حياته فى ميدان القتال تطن السيوف فى أذنيه بصليلها بالضبط كطنين النحل فى خلاياها.

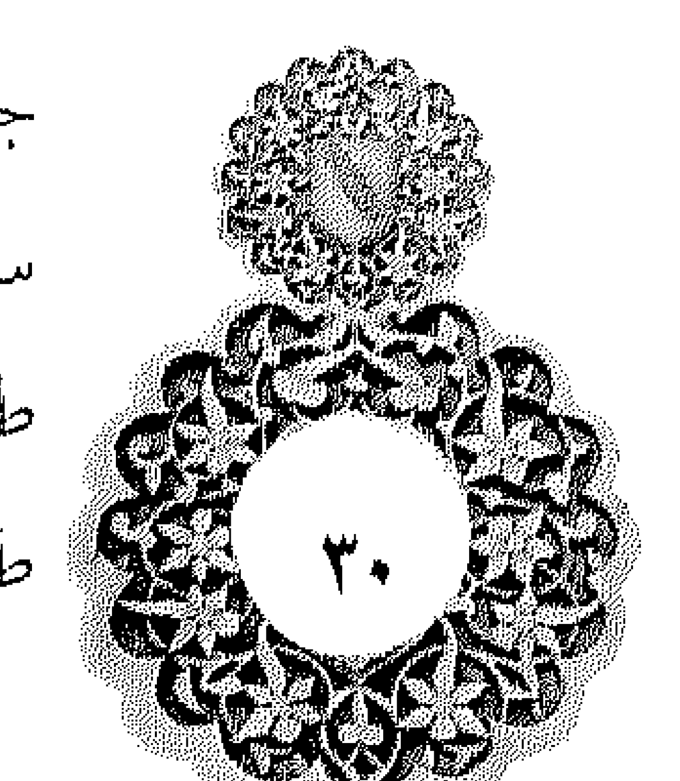
هذا ما كان من شأن موسى ومصيره، فماذا كان مصير طارق بن زياد ذلك البطل الصنديد؟.

إن هذا الموضوع تمر عليه الروايات الإسلامية مرَّ الكرام. وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية «سليمان بن عبد الملك» فى تعيينه واليا على الأندلس مكان موسى، وكيف عدل عن ذلك، رغم ما كان يتمتع به طارق من شعبية وعظيم هيبة ونفوذ فى الأندلس؛ ذلك أن سليمان بن عبد الملك توجس من «طارق» خيفة أن يطمع فى تملك ذلك القطر النائى عن الخلافة. وكان مغيث الرومى يحقد على كلٍّ من موسى وطارق منذ الفتح، ويسعى لمنافستهما والإيقاعَ بهما، مما كان له أثره فى استدعائهما إلى بلاط الخلافة فى دمشق.

وإذا كانت الروايات التاريخية لا تكشف عن مصير طارق، إلا أنها تلقى بصيصا من الضوء يوحى بأنه لم يلق مثل ذلك المصير الذى لقيه موسى، بل العكس، إذ استُقْبِلَ طارقُ استقبالا حسنا فى دمشق. وربما يكون الخليفة «سليمان» قد أثابه على حسن بلائه وجهاده، وفكر فى تعيينه واليا للقطر الذى شارك فى فتحه بأعظم جهد وأوفر قسط. لكننا لا نعرف يقينا متى ولا أين توفى طارق؟. بل يسدل على نهايته حجابا كثيفا من الصمت. وإن كان «سيد أمير على» فى كتابه «تاريخ العرب العام» ذكر أنه لقى نفس مصير موسى التَّعِس، وأنه مات فى فقر وضِعَةٍ.

على كل حال، فإنه بالرغم من هذا الغموض والجحود، لمصير ولفضل طارق بن زياد، فإنه لا يسعنا إلا الإشادةَ بفضله وصفاته وخلاله الخلقية، والعسكرية الباهرة، التى ظهرت جلية فى حروب المغرب وفتوح الأندلس، مما يجعله قمينا يتبوأ مكانة عظيمة بين عظماء الفاتحين المسلمين العظام.

ولم يمنع ذلك التجاهلُ من جانب المؤرخين، من أن يُطْلَقْ اسم طارق على أول بقعة أندلسية وطئتها قدماه، وتنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفا بسيطا لِلُّغاتِ الأوروبية



جميعها. كذلك أرادت المقادير أن تكون هذه البقعة بالذات، من المواضع التى سيشغل بها الناس على مر العصور، لأسباب وعلى صورة لم تدخل فى حساب طارق بن زياد نفسه، فلا يزال الناس ـ منذ ذلك الحين ـ يتحدثون عن جبل طارق أو «جِبْرَ التار» فيدفعهم هذا ـ الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره.

أما مصير الكونت جوليان ـ الذى مهد وساعد فى الفتح الإسلامى للأندلس ـ فلم تشر إليه الرواية الإسلامية. وفى بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى «سبتة»، وأُقْطِعَ ما حولها من الأراضى، وتقلد إمارتها جزاء ما أداه من خدمات للمسلمين، لكنه بقى نصرانيا هو وبنوه الأقربون، ثم دخل أبناؤه فى الإسلام بعد ذلك. وتقول رواية الكنيسة الإسبانية أنه قُتِلَ بيد مواطنيه، فى معركة نشبت بينه وبينهم، أو أنه قُتِلَ بعد ذلك بأعوام فى فترة ولاية «الحر الثقفى» بيد العرب أنفسهم لريبة عَلَقَتْ فى أذهانهم بولائه نحو المسلمين. وتقول هذه الرواية أيضا: إن العرب أعدموا ابنى وتيزا (غيطشة)، وأفراد أسرته لنفس هذا السبب.

لكن المصادر التاريخية الأخرى لا تقر مثل هذه الروايات الإسبانية الكنسية، بل تقول وتؤكد عكس ذلك تماما. فهذه المصادر الإسلامية تُجْمِعُ على أن العرب أحسنو معاملة «أبة» (أيفا أو إيبا) وسيزبوت (سيسفوط) ابنى غيطشة ـ وعمهما «أوباس» (أباز)». فأما «أوباس»، فقد عُيِّنَ ـ كما علمنا ـ مطرانا لمدينة طليطلة، وأقطع «أيافا» و«سيزبوت» ما كان لوالدهما غيطشة من الضياع.

ثم توفى «أيفا» (إيبا أو أبة) أكبرُ الأخوين بعد ذلك بأعوام، وترك ابنة تدعى «سارة» وولدْين صغيرين، فاغتصب «سيزبوت» ميراثه وضياعه. فبادرت «سارة» بالسفر مع أخويها إلى

عقود وأعمدة إسلامية – البرتغال



دمشق، وشكت عمها إلى الخليفة الأموى «هشام بن عبد الملك» فأنصفها، وقضى لها برد ميراث أبيها، وبعث بذلك إلى والى الأندلس «أبى الخطار الكلبى». وتزوجت «سارة» فى دمشق من سيد عربى يدعى «عيسى بن مزاحم»، ورزقت منه بولدين هما: «إبراهيم وإسحاق»، ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس، وأحرز ولداها مكانة عظيمة. وإلى سارة ينتمى نسب «ابن القوطية» القرطبى المؤرخ المشهور (صاحب كتاب افتتاح الأندلس)، نسبة إلى لقبها العربى الذى كان يطلق عليها وهو «سارة القوطية».

ك - استكمال فتح إسبانيا: (مرحلة ما بعد موسى وطارق):

لم يتوقف نشاط المسلمين فى بلاد «شبه الجزيرة الأيبيرية» ـ (بر إسبانيا أو الأندلس) ـ بعد عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد. فقد بقيت مجموعة من القوات الإسلامية، لمواصلة العمل الذى بدأه موسى وطارق. حيث شهدت سنة ٩٥هـ، فتح كثير من البلدان الإسبانية ـ كما يذكر صاحب الأخبار المجموعة ـ ويؤيد هذا الكلام قول: «ابن الفرضى»، من أن «نعمان بن عبد الله الحضرى»، عاد للأندلس بعد مرافقته موسى إلى دمشق. واشترك فى الجهاد واستشهد فى سبيل الله، واستمر التابعيان «على بن رباح» و«حنش الصنعانى»، فى سيرهما، بجند المسلمين نحو الشمال، حتى فتح الله عليهما «بنبلونة» أواخر سنة (٩٥هـ - ٧١٤م). ويذكر «ابن خلدون» أن المسلمين افتتحوا «برشلونة» بعد ذلك بقليل دون تأكيد صحة أخبار هذه الفتوحات.

ولقد كان ينبغى أن نقف بقصة الفتح الإسلامى للأندلس، عند هذا الحد؛ لأن ولاية «عبد العزيز بن موسى بن نصير»، تعد بداية لعصر الولاة. لكن لابد من تقصى أخبار ما لم يتم فتحه من بلدان الأندلس، وكيف دخلت فى طاعة المسلمين ليمكننا القول بعد ذلك أننا فرغنا من دراسة أخبار فتح إسبانيا تماما للإسلام.

فقد سبق ذكر أن موسى بن نصير ـ قبل رحيله إلى المشرق فى (ذى الحجة سنة ٩٥هـ) اختار ولده «عبد العزيز» لولاية الأندلس فكان هذا هو أول ولاتها من



أشبيلية - القصر العربى

المسلمين، واستخلف ولده «عبد الله» على ولاية أفريقية، وأن الخليفة سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار، فيقضى عبد العزيز بن موسى فى ولايته نحو سنتين تفرغ فيهما لتحصين الثغور والقلاع، وقمع ثورات الخروج والعصيان، كما افتتح عدة أماكن وحصون، وأبدى همة فى تنظيم شئون الحكومة الجديدة وإدارتها، وأنشأ ديوانا خاصا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، لتوافق مشارب الرعايا الجدد، وجَمَعَ كلمة المسلمين حولها من مختلف القبائل، كما شجع الزواج بين العرب والإسبان، وبدأ بنفسه، فتزوج من الملكة «ايجلونا أيلة» ـ أم عاصم ـ وهذه السيدة قيل أنها ابنة أو أرملة «رودريك» آخر ملك قوطى.

وفى عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير هذا، صارت أشبيلية عاصمة للأندلس الجديدة، كما جعل من كنيسة أو دير «سانتا روفينا» مقرا له ولزوجته، وذلك بعد أن أجريت فيه تعديلات على الطراز العربى الإسلامى. ووفد فى ولايته مهاجرون من مصر والعراق وفارس، فأحيوا سبل الزراعة والتجارة والصناعة بالأندلس.

لكن على الرغم من كل تلك الجهود لعبد العزيز بن موسى بن نصير، إلا أنه فشل فى تهدئة ثورة الجند. كما ثارت حوله الظنون والشكوك. فقيل عنه أنه كان منقادا لزوجته «أيجلونا»، وأنه اتخذ رسم الملوك، وتنصَّر بتشجيع زوجته هذه، وسعى إلى الاستقلال بالأندلس عن الخلافة.

ومع هذا فلا يمكن أن ننسى أو ننكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير هذا، كان فاتحا نشيطا، أسهم بقسط وافر فى فتح إفريقية، ولازم والده فى كل ما قام به فى الأندلس، ثم قاد جيشا إلى أشبيلية ليخمد ثورتَها القوطية على المسلمين سنة ٧١٣م.

وقد أقام عبد العزيز بعد ذلك فى هذه الناحية، يواصل فتوحه فى النواحى الغربية من الأندلس. ففتح «يابرة» و«شنترين» و«قلمرية» حتى سنة (٩٥هـ - ٧١٤م) غالبا. ثم نشط بعد ذلك لإخضاع جنوب شرقى شبه جزيرة أيبيريا «إسبانيا» وهى الأجزاء التى لم يصل إليها أحد من المسلمين حتى ذلك الحين. وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكومته فى «أشبيلية» فظل هذا البلد عاصمة للأندلس الإسلامى طوال حكمه.

وربما يكون استقرار عبد العزيز بن موسى فى أشبيلية بسبب رغبته فى استمرار الصلة بأفريقية، ذلك أن أشبيلية ميناء كبير يسع كثيرا من السفن الكبيرة، وبالتالى يمكن الاتصال منها بأفريقية فى يسر وسهولة.

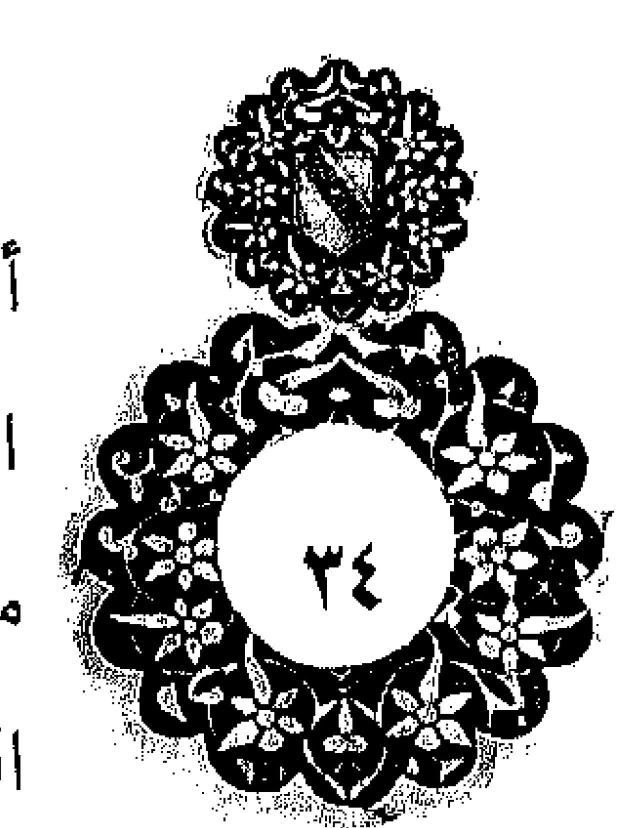
ل - فتح مرسية:

بدأ عبد العزيز بن موسى بن نصير بفتح «مالقة» فسلمها حاكمُها له دون عناء كبير. ثم قصد غرناطة، التى يقال أن حاميتَها كانت من اليهود، ففتحت أبوابها للمسلمين، ثم اتجه عبد العزيز إلى إقليم «مرسية»، حيث كان يحكم قائد قوطى يسمى «ثيودومير» (تدمير كما تسميه المصادر العربية). ويذهب سافدرا إلى أن «تدمير» هذا هو ابن أحد كبار قواد غيطشة، وأنه نصرانى مؤمن، مثقف يحترم المسلمين وخليفتهم، حتى أنه سار إليه - إلى الخليفة - ليشكو له غبنا وقع عليه من عامل الأندلس.

ويرى «الرازى» أن تدمير دخل فى طاعة المسلمين منذ البداية دون أن يُسْلِم، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح «أستجة». ولكن يبدو أن الرازى أخطأ فى ذلك؛ لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح «أريولة»، التى كانت وقتذاك عاصمة إقليم «مرسية» وكان فيها مقام «تدمير». والراجح لدينا كذلك أن «تدمير» لم يفعل شيئا لمقاومة المسلمين»، مثله فى ذلك مثل غيره من أنصار «غيطشة»، وأنه بقى مكانه يرقب الأحداث، حتى سار إليه المسلمون، بقيادة «عبد العزيز بن موسى» أول ولايته سنة ٩٥هـ.

قُبة القصر العربى - سرقسطة





على أنه مما لا جدال فيه أن تدمير (ثيودومـير) كان صديقا للمسلمين من أول الأمر، فهو من أنصـار «غيطشة» المؤيدين للمسلمين، وربما كـان يعتقد أن المسلمين سيتركونه وشأنه، أو يكون قد تفـاهم مع موسى أو طارق على شيء من هذا القبيل. فلما رأى » عبدَ العزيـز» يسير إليه فى جيش قاوم هذا الجيش، الذى كان الإعـياء قد بلغ منه مبلـغه، وكان أفراده يحـتاجون إلى إنهاء القـتال ليفـرغوا لتنظيم البـلاد. وانتهز «تدمـير» هذه الفرصـة، ففاوض المسلمين فى التسليم وشروطه. وقد حصل على ما يضمن بـقاء شىء من السلطان له، وعقدَ صلحا وعهدا مع المسلمين، الذين قادهم «عبد العزيز بن موسى»، هذا نصه (نقلا عن الضبى):

نسخة كتاب الصلح الذى كتبه «عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبوش:

«بسم الله الرحمن الرحيم» من عبد العزيز إلى تدمير. . .

أنه نزل على الصلح، وأنه (أى تدمير) له عهـد الله وذمته أن لا يُنزعَ عنه مُلْكه، ولا أحدا من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يُقْـتلُون، ولا يُسبُون، أولادهم ولا نساءهم ولا يُكْرَهُونَ على دينهم، ولا تَحترق كنائسَـهم ما تعبد (صحتـها ما تقيد) وما نصح، وأن الذى اشـترط عليهم أنه صالـح على سبع مـدائن: أريولة، وبلنتلة، ولقنت، وقـسرة، وأنه، ولورقـة، ، وأنه لا يأوى لنا (للمسلمين) عـدوا، ولا يخون لنا أمْنا، ولا يكتم خبرا عَلمَه، وأنه علـيه وعلـى أصحـابه دينارٌ كل سنة، وأربعة أمدادِ قمحٍ، وأربعة أمداد شعيرٍ، وأربعة أقساط طلا، وأربعة أقساط خل، وقسط عسل، وقسط زيت، وعلى العبد نصف ذلك.

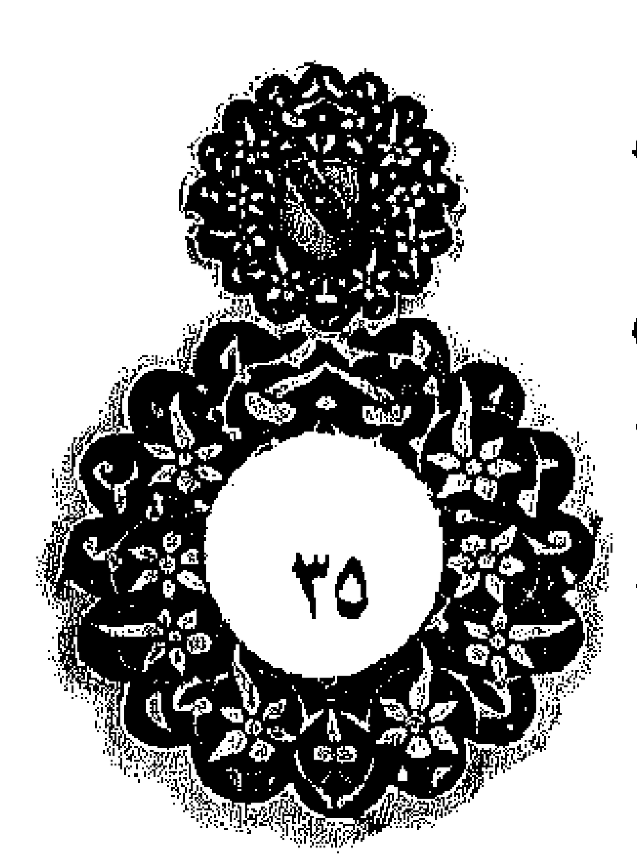
كتب فى رجب من سنة ٩٤هـ (وصحتها أول سنة ٩٦هـ).

ـ شهد على ذلك عثمـان بن أبى عبدة القرشى، وحبيب بن عبيـدة الفهرى، وعبد الله بن ميسرة الفهمى، وأبو القائم الهذلى.

تحليل الصلح:

ونحن لو حللنا نص هذا الصلح على ظـاهره، لقلنا أن عبد العـزيز بن موسى بن نصـير، اعترف لتدمير بالاسـتقلال فى نواحيه، مقابل أن يعاهده على دفع الجزية، والمنطقـة المتعاهد عليها عظيمة المساحة والأهمية معا، وتشمل كل جنوبى شرقى إسبانيا.

فكيف يمكن القول بأن المسلمين سلموا فى هذا الجزء الهام من إسبانيا دون حرب؟. اللهم إلا لمجرد أن تدمير ضمن وتعهد لهم بـالجزية والصدق والنصح؛ لأن المسلمين كان بإمكانهم أخذَ الإقليم كله كما سيطروا على بقية شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) قبل ذلك.



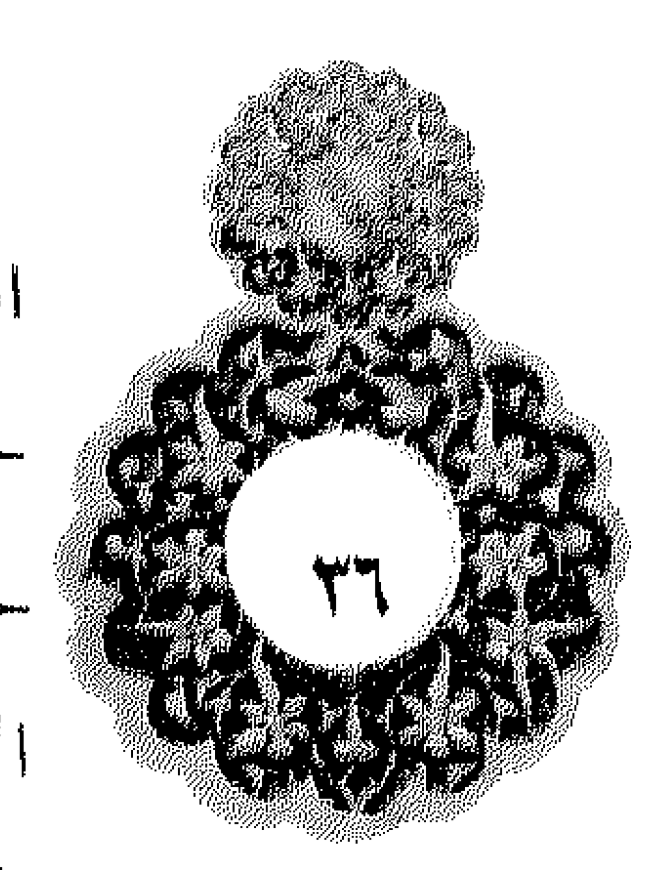
إذن (فمن الخطأ الأخذ) بظاهر كلام هذا الصلح، بل ولا يمكن قبول هذا الظاهر منه. ولكن ما يمكن قوله فقط هو أن الأمان اختص فقط بالمدائن السبع المذكورة فيه دون غيرها من باقى مدن الإقليم. وهذه المدائن ليست مدنا بل هى حصون، وقد أقر المسلمون «تدمير» فى إدارتها وحكمها. والدليل هو ما قام به المسلمون بعد ذلك من التغلغل فى جنوب شرقى الجزيرة، واستقرارهم فيها أو فى بعض نواحيها دون حرج.

أضف إلى هذا أن العهد أو الصلح اقتصر على «تدمير» فقط دون ذريته من بعده، وهو ما يعنى أن العهد يظل ساريا طيلةَ حياته فقط. وهنا يمكن القول أن المسلمين - وعلى رأسهم عبد العزيز بن موسى بن نصير- قبلوا مهادنةَ ومصالحَة رجلٍ من أنصارهم، هو «تدمير»، على بعض بلاده التى كان يملكها اعتبارا وتأكيدا للمودة ونحوه، وتسكينا لخواطر من كان يعيش فيها من النصارى.

والمسلمون بفعلهم هذا، لم يخسروا شيئا؛ لأن جنوب شرقى إسبانيا دخل بعد ذلك فى طاعة وأمان وذمة المسلمين، أسوة بغيره من نواحى «شبه جزيرة أيبيريا». وظل «تدمير» على طاعته وولائه للمسلمين مؤديا لهم ما تعهد به لهم.

م - رؤية:

هكذا تم فتح الأندلس للمسلمين، بعد حروب عنيفة، وجهود مضنية متواصلة، استمرت أربع سنوات إلا أشهرا، إذ بدأ الفتح سنة ٩٢هـ وانتهى فى أوائل سنة ٩٦هـ، فتح المسلمون خلالها - وهى سنوات قليلة - هذه الجزيرة الضخمة من أقصى الجنوب إلى جبال البرانس (ألبرت)، وشاطئ البحر فى الشمال، ومن «مالقة وطركونة» فى الشرق إلى «قلمرية» وأشبونة (لشبونة) فى الغرب. كما أخذوا سهول الجنوب، ومرتفعات «قشتالة»، ونواحى الجوف (استرامادورة) القاحلة، ولم يغادروا بلدا عظيما أو حصنا هاما إلا ورفعوا عليه رايةَ الإسلام، وأدخلوه فى حوزة الدولة الإسلامية الكبرى، ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح فى هذه المدة القصيرة لما صَدَّقَه أحد؛ لأن شبه الجزيرة الأيبيرية، قطر عسير ليس من السهل فتحه أو إخضاعه. وقد وفق المسلمون إلى ذلك الفتح العظيم فى نظام دقيق وسياسة حكيمة، لا يمكن تجاهلها أو غمط حق المسلمين فى الإشارة إليها، والإشادة بمن قاموا بهذا الفتح العظيم المنظم المستقر، فى تلك المدة الوجيزة، سواء كان هؤلاء الفاتحون جنودا أو قوادا عظاما. كما لا يجب أن نغفل دور الحكومة المركزية فى عاصمة الخلافة (دمشق) من حيث موافاة الفاتحين بالميرة والأمداد حين كانوا يحتاجون إليها، وكانت هذه الإمدادات ترسل للفاتحين من مصر أو من بلاد المغرب أحيانا.



ومهـما قال المؤرخون فـى قادة فتح الأندلس، من أمـثال وطراز البطلْين العظيمْين موسى بن نصير وطارق بن زياد، فلن يستطيعوا أن يوفوهما وغيرهما حـقهم من التـمجـيد والثناء. ولو تدبـرنا قائدا صنديدا مـثل «طارق بن زياد» لحظة، لاستـخـرجنا من حيـاته وأعمـاله سـرا هائلا من أسرار عظمـة وقمـة الإسلام، وناحـية من نواحى امتـيازه وتفرده عـلى غيره من الأديان السـماوية السابقة.

فطارق بن زياد المغربى البربرى، كان قبل إسلامه قائدا خاملا وهَمَلا مغمور الذكر والسيرة، فى عداد المنسيين فى ركن من أركـان جبال الأطلس. فإذا به ـ بعد إسلامه ـ يصيـر فاتحا عظيما، وسيـاسيا مـحنكا، يقود الجيـوش ويفتح الأمصـار، ويبرم المعاهدات، فى قـدرة وكياسـة جديرة بالإعجـاب، فما الذى أحدث هذا التـغير ـ بل قل الانقـلاب ـ فى شخصيـة طارق، إنه الإسلام وحده لا غير، ولا جدال فى هذا.

كذلك إذا نظرنا إلى فتح الأندلس ذاتـه، نجده معجزة هو الآخر تحت أى مـقياس أو منظار من المقاييس أو المناظير؛ ذلك أننا إذا قمنا وتتبعنا أخبار الفـتح والقائمين به، يصيبنا شىء كبير من الذهول من شدة الإعجاب بعمـليات الفتح والقائمين به وعليه، والأدلة والشواهد كثـيرة ومتوافرة تنطق بها الأحداث وتذخر بها صفحات الكتب.

عقود وأعمدة أندلسية – مسجد قرطبة

فالفاتحون كانوا ـ فى معظمهم ـ بربرا، لم يعهدوا نظاما ولا جيوشا. ولا عهد لهم بالمعاهدات قبل ذلك، فما الذى دفعهم هذه الدفعة القوية المنظمة المبهرة؟ إنه الإسلام، الذى خطا بأهله ومعتنقيه ـ خلال القرن الأول ـ بضعة قرون إلى الأمام. فهاهم الرومان فى إفريقية قبل ذلك ـ لم يحَضِّرُوها، حتى على نحو يقارب ما فعله الإسلام، بعد حكم للرومان دام عدة قرون. فما بالنا وقد فعل الإسلام ذلك فى نصف قرن؟ إنها معجزة الإسلام الحقيقية والدائمة أبدا.

ولو قلنا أن موسى أكمل عمل طارق، وأن عبد العزيز بن موسى بن نصير أكمل عمل الاثنين معا، لتبين لنا أن المسلمين ساروا فى فتح هذه البلاد وفق خطة وإستراتيچية مدروسة بدقة، ونفذت بإحكام وأمانة وإخلاص، لم يتوفر لغير المسلمين. وفقد قُضِىَ على المقاومة، وفُتِحَتْ عاصمةُ البلاد فى أول وثبة. ثم اتجهت الهمم السامية للمسلمين إلى إخضاع كبريات المدن الإسبانية فى غرب شبه الجزيرة الأيبيرية. ثم فتح المسلمون إقليم «سرقسطة»، وتتبعوا فلول المقاومة، فى معاقلها فى الشمال والغرب، واختتم المسلمون عملهم الباهر البديع، بفتح جنوب شرقى إسبانيا. ولو أن مجلسا حربيا ـ على أعلى مستوى ـ اجتمع لوضع خطة لفتح هذه البلاد لما أمكنه وضع خطة أفضل من خطة طارق بن زياد وموسى بن نصير وعبد العزيز بن موسى بن نصير. وهو ما ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا، وعن فكر أى فرد يدرس هذا الفتح المبين؛ ذلك أنها فى الواقع تدل على نبوغ حربى مبكر عند قادة حركة الفتح الإسلامى منذ البداية.

ن - ظاهرة الاندماج:

لقد فتح المسلمون، خلال القرن الأول الهجرى، بلاد العرب كلها، والعراق، وفارس، والشام، وجزءا من آسيا الصغرى، ومصر، والشمال الأفريقى، وشبه الجزيرة الأيبيرية، لكنهم لم يتكلفوا فى فتح قطر من هذه الأقطار مئونة هى أيسر مما تكلفوه فى فتح الأندلس.

فقد سيرت الخلافةُ الجيوشَ نحو كل قطر من هذه الأقطار، وألقت فى ميادينها بآلاف العرب، وأمدتهم بالمؤن والأعطيات، ولم يتم الفتح فى معظم هذه النواحى من غير معارك دامية، راح فيها آلاف من العرب، شهداء ملبين نداء ربهم ودينهم، ولقى فيها نفر كبير من كبار القادة ربهم مستشهدين منيبين إليه، كما رأينا فى فتح بلاد المغرب.

أما الأندلس، فقد احتمل البربرُ صدمتَه الأولى، واستشهد منهم فى «واقعة وادى البرباط» وحدها ثلاثة آلاف مقاتل مسلم، وأقبل العرب بعد ذلك مع موسى بن نصير، يسيرون فى البلاد الهوينَى لا يكادون يلقون من المقاومة ما يتناسب مع أهمية هذه البلاد. ثم لا تكاد ناحية تُعْجِبُ قوما، حتى يحطوا رحالهم فيها ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات، أو حصون. وما زالوا كذلك حتى انتشروا فى شبه الجزيرة الأيبيرية كلها فى الشمال على مقربة من «خليج بسكاية» وفى



أقصى الشمال شرقا وغربا، بل طمحت بهم آمالهم إلى ما وراء إسبانيا، من بلاد «غالة» (فرنسا) فانساحوا فى بطائحها يفتحون ويستقرون.

والملاحظ أن الخلافة لم تتكلف فى سبيل ذلك جهدا خاصا، فلم ترسل جيشا، ولم تدفع دينارا، إنما الذى فتح الأندلس هم البربرُ وجندُ أفريقية وجند مصر، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية، وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسى، بين غيره من الفتوح الإسلامية.

ويجب أن نقرر أن الخلافة، لم تفد أيضا من هذا الفتح شيئا ماديا، لأن غُنْمه كان لفاتحيه. كما نرى الخلافة لا تكاد تُولِى هذا القطرَ العظيم ولو جانبا يسيرا من اهتمامها الذى يستحق، فلم ترسل من أول الأمر واليا خاصا بالأندلس، بل تركته نحو تسع سنين، تحت تصرف «عامل أفريقية»، يتصرف فى شئونه كما يريد. وهى لم ترسل عاملا على المال (صاحب الخراج) يحصى نواحيه، ويخمس النواحى، ويقرر مقادير الخراج والجزية والجباية، ليقرر ما ينبغى أن يُنفق فى البلاد، وما يجب أن يُحمل إلى دار الخلافة. وهى لم تُعنَ كذلك بتنظيم قضاء الأندلس من أول الأمر، بل كان ذلك من شئون الولاة، الذين تُرِكَ لهم تعيين أو عدم تعيين القضاة حسبما يرون.

وعلى كل حال، فلم يرد من الأندلس إلى دار الخلافة شيئا من ماله أو جبايته أصلا، وهو ما يعد فى حد ذاته وضعا غريبا.

ولعل هذا يوضح لنا وضع القطر الأندلسى منذ تمام فتحه حتى قيام الدولة الأموية (الإمارة أول الأمر) فيه (سنة ١٣٨هـ - ٧٥٦م). فلم تعد الأندلس قطرا أو ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة الرئيسية (المركزية) مثل ولايات أخرى، مثلا: كمصر، وشمال أفريقية. وإنما كان الأندلس ذو وضع خاص متميز بين هذين الوضعين. فقد كان يكون جزءا من الدولة الاسلامية مكملا لإفريقية، داخلا فى طاعة الخلفاء، يُخْطَبُ لهم على منابره، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه أو عليه عن هذا اللون الباهت من ألوان التبعية إلا قليلا.

كذلك هناك ظاهرة أخرى، لا تقل أهمية ولا غرابة عن الظواهر السابقة، وهى هجرة العرب إلى الأندلس، وسكناهم نواحيه، وخاصة العرب المهاجرين، بعد الفتح، الذين لم تحدثنا عنهم المراجع؛ ذلك أننا نجد أنفسنا أمام جماعات ضخمة من العرب استقرت فى نواحى قرطبة وأشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة، عدا جاليات صغيرة فى كل ناحية تقريبا، وكان عددهم يقدر بأضعاف من أتوا مع الفتح، فمن أين أتى هؤلاء العرب؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد، بحيث لم يبق للبربر غير القليل منها. وسهول الأندلس واسعة فسيحة

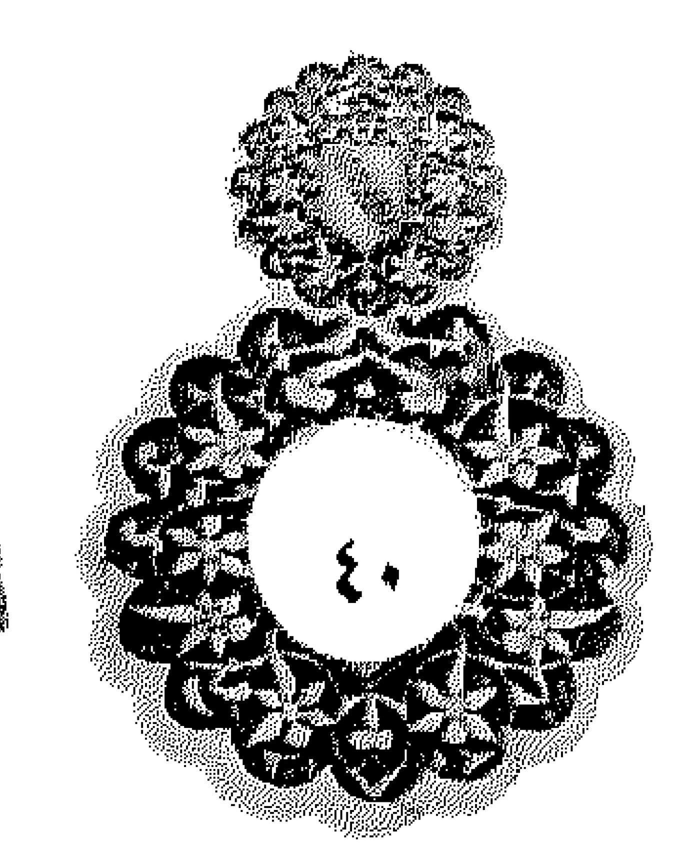
لا يملؤها إلا مئات الألوف، فكيف أقبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها؟.

فى الحقيقة، ليس هناك من تفسير واضح لتلك الظاهرة، إلا القول بأن ثمة تيارا قويا دافقا من مهاجرى العرب، كان يتجه نحو الأندلس منذ بداية الأمر. وأن جانبا عظيما من هؤلاء العرب، استقر فى الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة فى كل ناحية. وقد وضعت هذه الجماعات، يدها على ما استطاعت من الأرض، وأخذت تعمل على عمارتها واستنطاقها، مستعينة بالزراع من الأهلين على نظام المزارعة.

كما أن الأحداث السياسية بالمشرق الإسلامى كانت من أسباب هجرة العرب إلى الأندلس. ومن هذه الأحداث السياسية، ثورة «عبد الله بن الزبير» وهزيمته ٧٢/٧٣هـ، قبل ذلك انتصار «مروان بن الحكم» الأموى، وتوليه العرش وما تلى ذلك من أحداث.

أما عن البربر، فكانت أعداد مهاجريهم أضعاف أعداد العرب. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن العرب استأثروا دونهم ـ أى دون البربر ـ بخير النواحى، ولم يتركوا لهم سوى الهضاب القاحلة فى شمال البلاد، وهو ماردد له «دوزى» كثيرا. ولكن الدكتور حسين مؤنس يعقب على هذا الرأى بقوله: وهذا غير صحيح على إطلاقه؛ لأن البربر قد انتشروا واستقروا، من أول الأمر فى كل ناحية، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من «زناته»، أول من أسلم من البربر وانضم للعرب، وكان منهم طارق بن زياد «الفاتح العظيم».

وصفوة القول، أن هذه الجماعات المسلمة ـ عربا وبربرا ـ أخذت تستقر فى نواحى البلاد خلال فترة عصر الولاة، وهو ما كان له أثره الواضح فى تطور الحوادث، وتحول الأندلس إلى بلد أو صقع إسلامى عربى الطابع فى أقل من قرن.



الفصل الثانى
عصر الولاة فى الأندلس
(٩٥-١٣٨هـ/ ٧١٣-٧٥٦م)

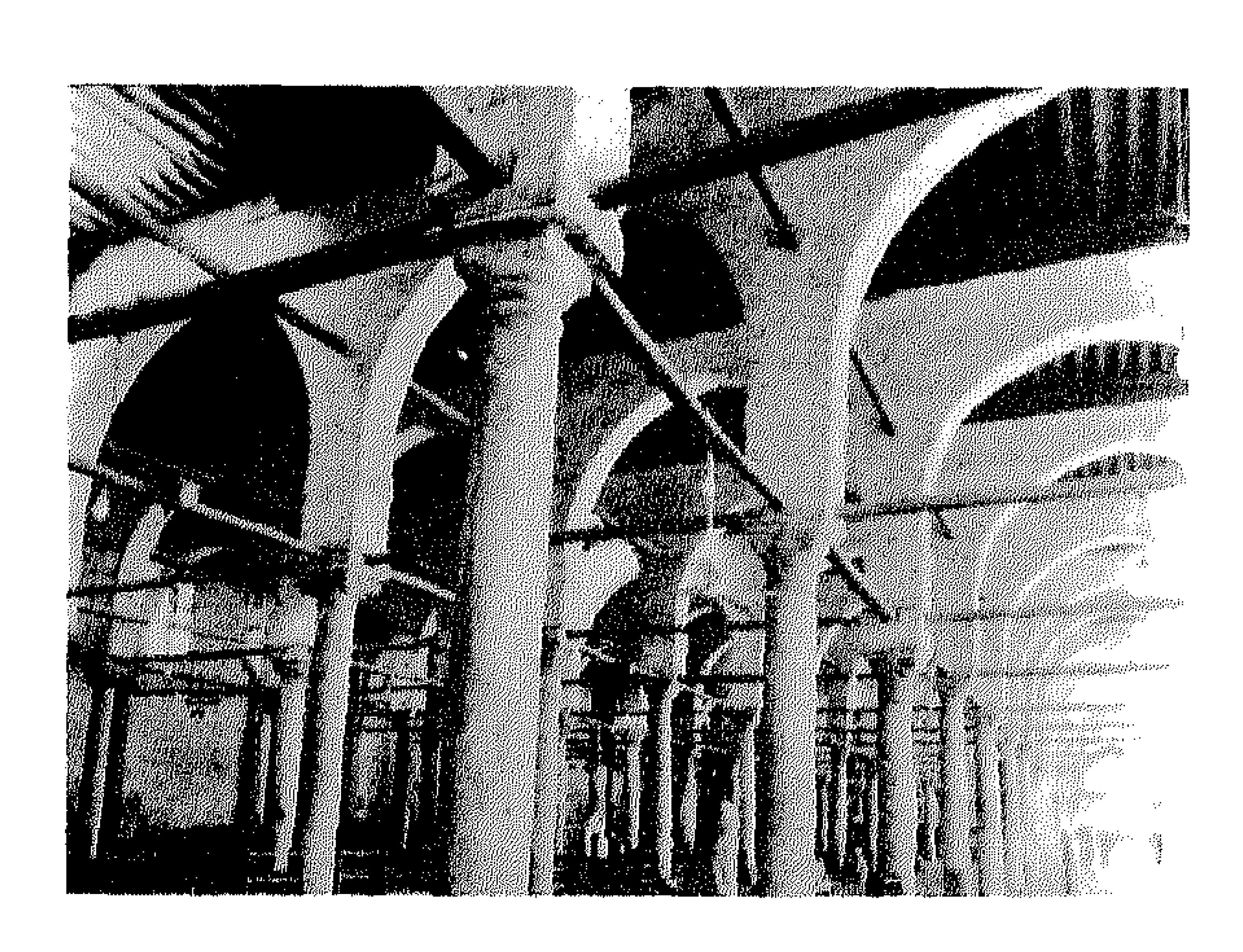

مسجد القيروان

تمهيد:

تختلف أحوال بلاد المغرب فى عصر الولاة عن أحوال الأندلس بعض الشىء، فلقد كانت ولاية المغرب تتطور تطورا بطيئا طيلة خمسين سنة حتى اكتمل الفتح.

فكانت أفريقية (تونس وما حولها) أول ولاية عربية فى البلاد، إذ أنشأ عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان، ثم أصبحت تونس، والجزائر ولاية عربية، منذ عهد «عبد الملك بن مروان». واستطاع موسى بن نصير ـ بعد تمام الفتح ـ أن يوسع أفق هذه الولاية، لتمتد من برقة فى الشرق إلى المحيط الأطلسى فى الغرب.

وقد أثرت هذه الحقيقة فى وضع البلاد الإدارى والسياسى، فقد كانت أول ولاية أنشئت فى البلاد (وأقصد ولاية إفريقية) تابعة لمصر رسميا. وكان الوالى الأموى فى الفسطاط يمتد سلطانه إلى القيروان.


مسجد عمرو بن العاص - الفسطاط

وقد استطاع «معاوية بن أبى سفيان» فى آخر أيامه أن يجعل للولاية كيانا إداريا مستقلا، لجعلها تابعة للخلافة مباشرة، وظلت كذلك حتى أتم موسى

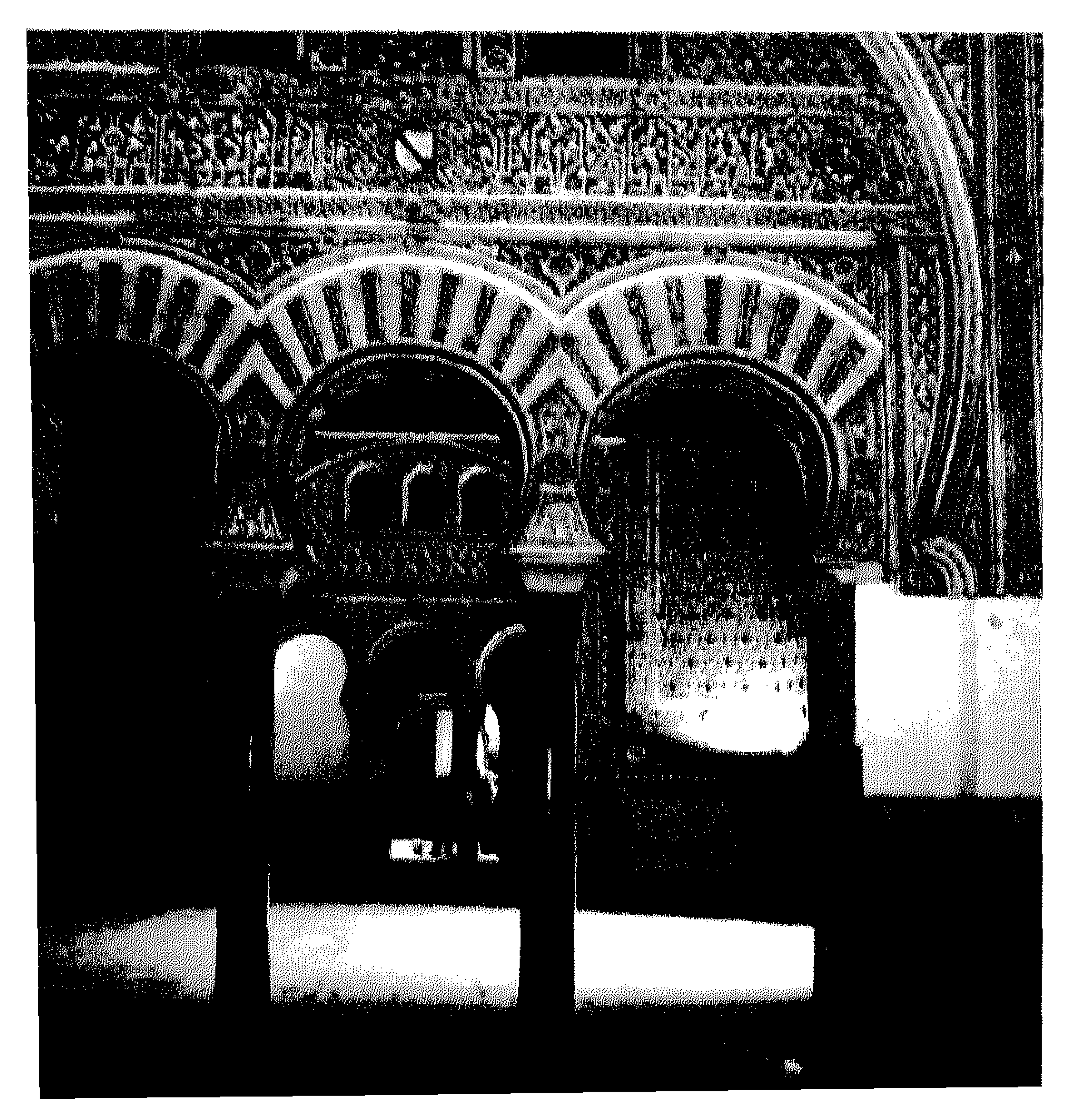
الفتح، وأصبح ـ وهو الوالى العربى فى القيروان ـ يسيطر على هذه الرقعة الفسيحة من أرض المغرب.

وقد أدى هذا كله إلى أن أصبحت بلادُ المغرب على صلة وثيقة جدا، طوال عصر الولاة بمصر (٢٢-٢٥٤هـ)، وكانت صلتها بها إدارية وثقافية واجتماعية. حيث إن القبائل العربية فى مصر كانت بعض بطونها تسير فى ركاب الفتح وتستقر إما فى القيروان أو فى غيرها من البلاد.

كذلك كانت الصلات العلمية وثيقة إلى أبعد الحدود، بين مدرسة الفسطاط ومدرسة القيروان، وكانت مدرسة القيروان باستمرار تتأثر بالتيارات العلمية القادمة من مصر، وقد تركت هذه الصلة الوثيقةُ أثَرها فى بلاد المغرب فى عصر الولاة، حيث أصبحت بلادُ المغرب على صلة وثيقة بالأندلس، فكانت هى القاعدة البرية، وكانت القبائل العربية والمغربية تخرج من البلاد فى موجات تتوالى الواحدة تلو الأخرى، تعبر مضيق جبل طارق، وتستقر على أرض الأندلس، لتضع أساس وحدة بشرية وثيقة بين المغرب والأندلس طوال عصر الولاة.

ومن الغريب أنه كانت هناك ثمة وحدة إدارية بين المغرب والأندلس فى عصر الولاة، حتى جاء عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ)، وكَوَّنَ الإمارة الأموية المستقلة هناك، فلقد كان لولاة القيروان سلطات على ولاية الأندلس، يديرون أمورها ويعالجون شئونها، وينفذون سياسة الخلافة فيها.

الزخارف الإسلامية فى الأندلس



ولكن على الرغم من الأهمية التى توافرت لولاية المغرب، وهذا الدور الهام، الذى قامت به فى تاريخ الأندلس (بل والغرب الإسلامى عامة)، فإن الوثائق الخاصة بهذه الولاية غامضة إلى أبعد الحدود، وليست لدينا إلا نصوص مبتورة قصيرة متناثرة



فيما كتبه بعض مؤرخى المغرب أو فى سير صُلَحاء إفريقية وعلماؤها وقضاتُها. ويلوح فى هذا القليل الذى بين أيدينا، «أن نفس المبادئ» التى طبقت فى العالم الإسلامى كله فى عصر الولاة، طبقت بالفعل فى بلاد المغرب، مع اختلافات يسيرة نابعة من ظروف البلاد».

أ - التآلف بين العرب والبربر:

ونعتقد أن السياسة الإسلامية، التى طبقها العرب فى بلاد المغرب، إبان عصر الولاة، كانت تقوم على أساس واضح، ربما لا نجد له نظيرا فى الولايات الأخرى، وكان أساس هذه السياسة هو توطيد صلات الأخوة والتعاون الوطيد بين العرب وبين البربر -أهل البلاد- إيمانا من جانب العرب بالنتائج التى تحققت بعد هذا التحالف التاريخى، الأمر الذى أنهى المقاومة البيزنطية، وتذللت العقبات أمام العرب، وخضعت دولة القوط فى الأندلس.

ولتحقيق هذه السياسة أطلق العرب أيدىَ البربر، الذين تعاونوا معهم فى أمور بلادهم، يحكمون بأنفسهم. فقد قُسّم المغرب إلى خططٍ للبربر، واختصت كل قبيلة بخطة تتصرف فيها، وتؤدى مالها وتكون مسئولة عنها. وهذا النظام كان يتفق مع طبيعة البلاد ونظام أهلها الاجتماعى، فلم تكن بالمغرب وقتذاك مزارع واسعة تتركها الحكومة فى يد أصحابها، لكى يزرعوها ويؤدوا الأموال عنها، إنما كانت هناك مناطق اختصت كل قبيلة بالنفوذ فيها.

ولقد مضى العرب فى سياسة التآلف مع البربر، إلى أبعد الحدود. فتمت المساواة بين العرب والبربر فى الغنيمة والفيء، بل تساوى الطرفان فى الحقوق والواجبات، وقد أرضت هذه السياسة غرائزَ ومشاعرَ هذا الشعب المحارب القوى الأنوف. واستهداءً بهذه السياسة اعتبر العرب أرض المغرب، أرضا مفتوحة صلحا، لا عنوة، فأقروا البربر على ما بيدهم من الأرض، وتركوا هذه الارض فى يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة. كما اعتبروا البربر أحرارا فى بلادهم.

وبفضل هذا التحالف الوثيق الصلة، تمكن بنو أمية من إدارة أمور المغرب بنجاح، حتى قُتِلَ «مروان بن محمد» وسقطت الدولة سنة ١٣٢هـ.

فلما حاول العباسيون تغيير هذا النظام أو تلك السياسة انبعثت الثورات فى المغرب دفاعا عن الحق المكتسب، واتخذت هذه الثورات مبادئ الخوارج متنفسا لها. وسيظل المغرب ثائرا على هذا النحو، حتى ظهور الإمارات المستقلة فى المغرب١٧٢هـ، وضعف سلطان ونفوذ العباسيين على البلاد.

ويبدو أن العرب لم يمنحوا كل أهل المغرب هذه الحقوق الواسعة وإنما منحوها لمن تعاون معهم، وتركوا الباب مفتوحا، أمام من يريد مغاونةَ الحكم الأموى، للظفر بنفس هذه الحقوق، مما أدى إلى دخول أغلب القبائل المغربية فى طاعة المسلمين.

الروم والأفارقة:

أما الروم والأفارقة، فإنهم وإن كانوا قد نَعِمُوا بحرية العقيدة، وفقا للمبادئ الإسلامية المرعية، وتركت كنيسة المغرب للتصارع مع التيار الإسلامى الدافق، إلا أنهم -الروم والأفارقة- لم يكونوا فى اعتبار العرب مساوين للبربر فى الحقوق والواجبات. بل اعتبروهم مَوالِيَ للعرب، واعتبروا أرضهم «مفتوحة عنوة»، فاستحلوها، واعتبروا أهلها ـ كما قلنا ـ موالى لهم، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى هذه المقاومة العنيفة، التى لقيها العرب، من عناصر الروم والأفارقة، التى كانت منتشرة فى المدن الساحلية وحاولت الثورة على الأمويين فتم إخضاعهم والقضاء عليهم.

ب - النظم الإدارية:

كانت شئون المغرب الإدارية منظمة طبقا للأسس التقليدية المعروفة. فدونت الدواوين وعُيِّنَ العمال على نواحى الإدارة.

وقد احتفظ العرب لأهل البلاد الأصليين، بوظائفهم التى كانوا قد تولوها من قبل، مع اختلاف يسير عما أَلِفْنَاهَ فى مصر أو الأندلس، فقد كان عامل المغرب أكثر العمال العرب حرية فى التصرف وإطلاقا فى اليد إذ أُعْطِيَ سلطات واسعة ليدخل ما يراه من النظم الكفيلة باستقرار الأمور. فكان النظام العربى بذلك فى المغرب ـ فى الحقيقة ـ نظاما يتطور وفقا للظروف.

جـ - النظم العسكرية والاقتصادية:

اتبعت نفس التنظيمات العسكرية التى اتبعها الأمويون فى العالم الإسلامى كله، فأُدْخِلَ البربر إلى صميم الجيش العربى الإسلامى، وفرضوا للمقاتلة منهم عطاءً من بيت المال، ولم تختلف السياسةُ الاقتصاديةُ فى المغرب عن مألوف السياسة العربية العامة من حيث: فرض الجزية، أو الخراج، أو ملكية الأرض، مع تطور بسيط، نابع من ظروف العرب ومن تقاليد التحالف بين العرب والبربر؛ ذلك أن العرب لم يعْطُوا البربر مجرد حق حيازة الأرض، بل أعطوهم أيضا حقَّ الملكية نظير ضريبة «العشور» المقررة.

د - ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير:

أصبح «عبد العزيز بن موسى بن نصير «واليا على الأندلس منذ مبارحة موسى البلد فى شهر (صفر سنة ٩٥هـ - أكتوبر/ نوفمبر ٧١٣م). ونحن لا نعرف هل كان سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموى) قد بعث إليه كتابا يثبِّتهْ فى ولايته، أم لا؟. وإن كنا نعلم ـ فى شىء من الثقة ـ أنه أقره فى ولايته إما سياسة منه (من سليمان) أو رِضا عنه، وكان الأندلس فى ذلك الحين تابعا

لولاية إفريقية (تونس وما حولها)، التى كانت فى يدى «مروان» و«عبد الله» ابنا موسى بن نصير، وأخوى «عبد العزيز» نفسه، وهما بلا شك آزراه على هذه الولاية.

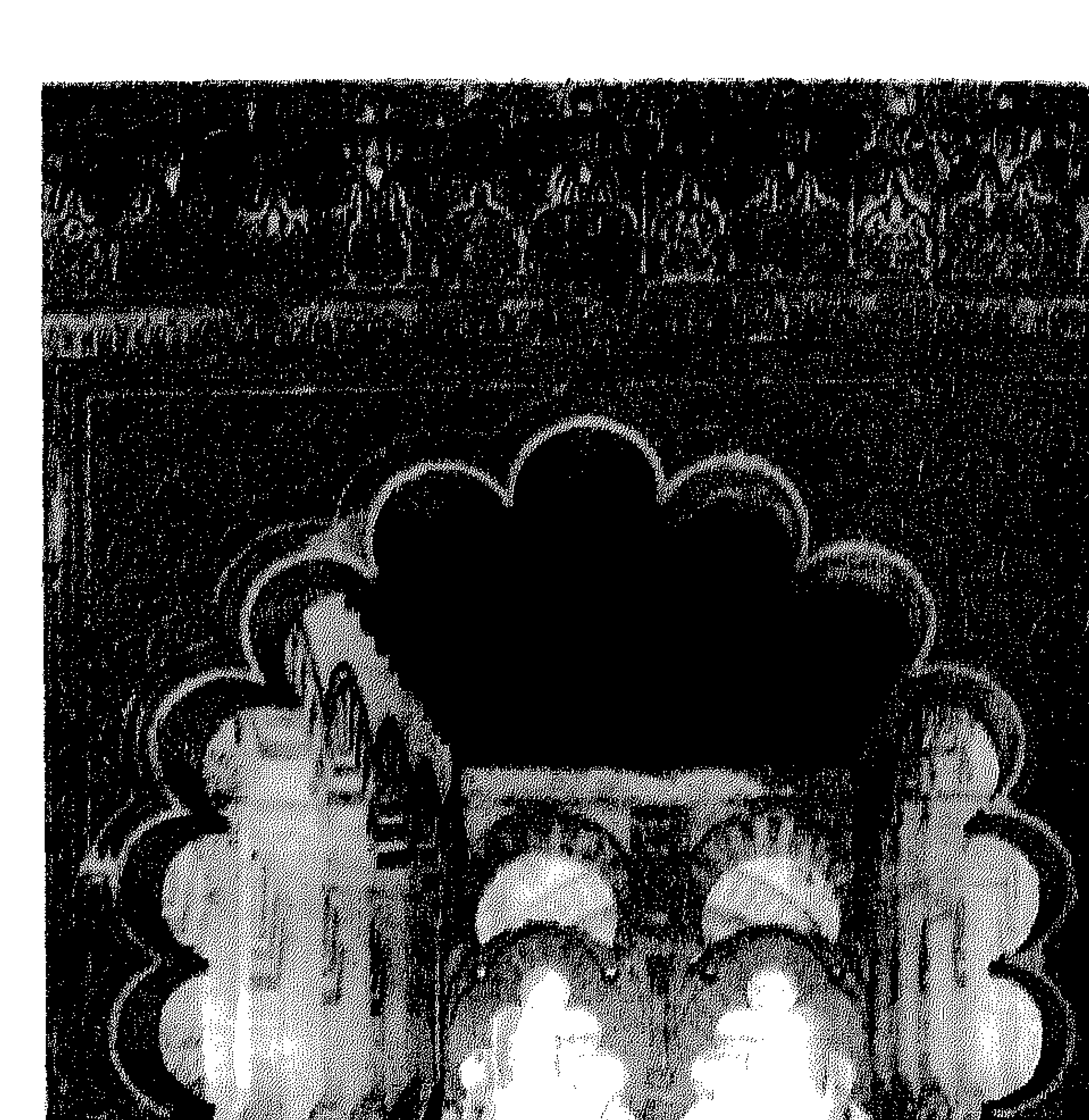
ولم يقم عبد العزيز بن موسى بغير ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية، وربما يرجع السبب إلى انشغاله طول الوقت بالتفكير فى مصير أبيه والخوف عليه وعلى أسرته، فمال إلى السكينة ترقبا وانتظارا؛ لأنه معروف بالنشاط والإقدام.

كذلك يبدو أن علاقة عبد العزيز بن موسى بجنده لم تكن مُرْضِيَة لطموح بعضهم نحو المناصب، ومنهم حبيب بن أبى عبيدة الفهرى (ابن أخت عقبة بن نافع الفهرى)، وزياد بن عذرة البلوى، وزياد بن نابغة التميمى، وهم جميعا من البارزين من جند موسى بن نصير وكبار رجاله. وكان حبيب بن أبى عبيدة الفهرى أكبرهم وأظهرهم، وكان موسى قد ألحقه بابنه وجعله «وزيرا له ومعينا» ويبدو أن خلاف هؤلاء القادة مع عبد العزيز بن موسى استمر لأشياء نقموها عليه «كما يذكر الرازى».

وكان من أهم الأشياء التى نقمها جندُ وقادةُ عبد العزيز عليه هى علاقته بزوجته النصرانية «أيجلونا أو أجيلونا» (أم عاصم) - زوجة أو ابنة رودريك. يقول صاحب فتح الأندلس (ص٢١):

«وكانت قد صالحت على نفسها فى وقت الفتح، وباءت بالجزية، فأقامت على دينها، فحظيت عنده، وغالبَتْه على نفسه»، فتزوجها وأقام معها فى ناحية من كنيسة «سانت روفينا» فى أشبيلية. . فكانت داره بذلك قريبة من اجتماع المسلمين ومكان صلاتهم. وكان باستطاعته - لو أنه كان يميل للترف- أن يسكن أحد قصور أشبيلية الحسان، لكنه كان جادا حريصا على أن يكون على مقربة من رجاله.

ومما لا شك فيه أن «أيلة (أيجلونا)» كانت على جانب وافر من الذكاء والقوة والجمال، إذ لم تلبث أن ملكت زمام زوجها، فتابعها فى كثير مما أرادت، فأقنعته - كما تقول بعض الروايات - بلبس التاج الملوكى، فتراه امرأة دخلت عليه فجأة، وهو يلبسه، وهو فى خلوة مع زوجته. وهذه المرأة التى لمحت التاج على رأس عبد العزيز بن موسى بن نصير ـ هى زوجة «زياد بن نابغة التميمى» وهى قوطية، ويقال أنها من بنات ملوكهم، فلما عاينت عبد العزيز بالتاج أرادت أن تصنع لزوجها تاجا مثله. . فرفض «النابغة التميمى» قائلا: ليس فى ديننا استحلال لبسه. فقالت: ودين المسيح إنه لعلى رأس ملكِكُمْ وإمامِكُمْ فأعْلَمَ بذلك زيادٌ «حبيبا بن أبى عبيدة»، ثم علمه الجند، الذين طفقوا يَتَقَصُّون الأمر، حتى شاهدوه عيانا، فقالوا: تنصَّر، ثم هجموا عليه فقتلوه».



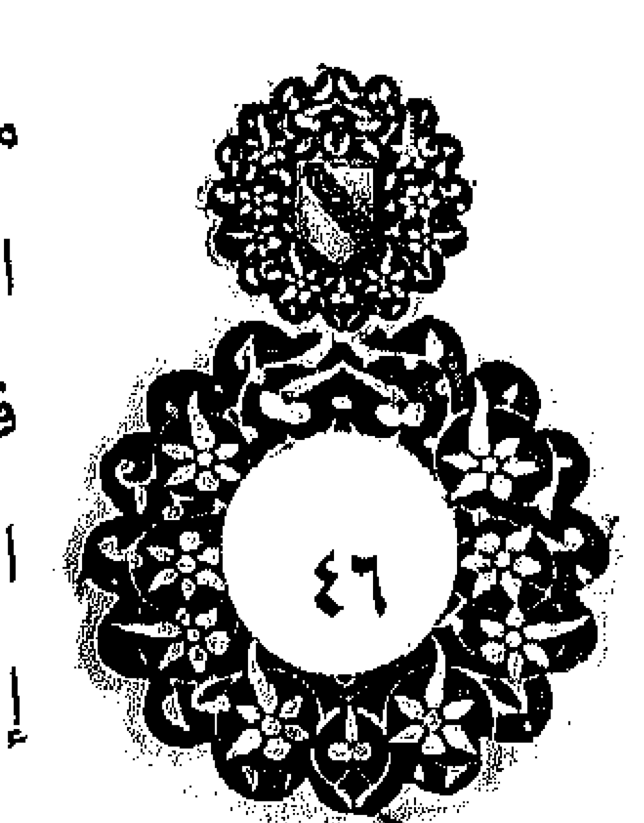

الرواق الملكى بمسجد قرطبة

والحق أن عبد العزيز بن موسى ابن نصير، ظُلِمَ بهذا الظن؛ لأنه لم يلبس التاج كشارة من شارات الملك، بل لَبِسَهُ في خلواته مع أهل بيته. ولذلك لا يمكننا أن نفهم كيف ولماذا ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر، بينما لم يثوروا على شاربِ خمرٍ أو مقترف حرمة أو معتد على حد من حدود الله؟ وكان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافا فى هذه الأمور. ثم لماذا تكون زوجة النابغة التميمى بالذات هى كاشفة هذا السر أو الأمر؟.

يبدو من سياق الرواية أنها لُفقَتْ لكى تستر الدوافع الحقيقية التى دفعتها إلى الإيعاز بذلك لجند عبد العزيز وحفزتهم على قتله، كذلك لا يمكن قبول القول بأن الخليفة سليمان بن عبد الملك، هو الذى أَوْعَزَ بقتله؛ لأن الخليفة لم يكن محتاجا لقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، للتخلص منه. وكان يمكن لسليمان بن عبد الملك أن يعزله عن عمله لو أراد؛ ولأن عبد العزيز لم يكن يخيف الخليفة بجنده؛ لأنه كان على خلاف معهم، كذلك لا يمكن قبول القول بحقد سليمان عليه، أكثر من حقده على أبيه. وسليمان لم يثْبُتْ بعد أن قتل أبا عبد العزيز - موسى بن نصير - فكيف يأمر بقتل ابنه عبدَ العزيز الذى هو دون أبيه موسى بكثير، فى المرتبة والمهابة.

على أن الأمر القريب إلى التصديق، هو ما رواه صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك حزن عندما علم بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير - رحمه الله -، وأنه أمر عامله على أفريقية وقتها - وكان عبيد الله بن يزيد القرشى - بالتحقيق فيما فعله كل من حبيب بن أبى عبيدة وزياده بن النابغة من قتل عبد العزيز، والتشدد فى ذلك، وأن يشخصهما إليه ومن شاركهما فى هذا الأمر.

لكن يبدو أن أسبابا أخرى - لم تفصح لنا عنها المراجع - دفعت إلى قتل عبد العزيز بن



موسى بن نصير. وعلى كل حال، لن يكون مصير «حبيب بن أبى عبيدة الفهرى»، أحسن من مصير عبد العزيز بن موسى. ومما يؤيد هذا قول صاحب فتح الأندلس: «ثم اجتمعوا على أيوب ابن حبيب اللخمى» الذى قُتِلَ عبد العزيز بمشورته، وهذه الرواية تبين بجلاء أن الأمر لم يتم فى قتل عبد العزيز إلا بعد أن اشْتَوَرَ فيه الجند والقادة وأنداد عبد العزيز ذاته (منافسوه).

والمحتمل أن يكون عبد العزيز قد سخط على بنى أمية لما أنزلوه بوالده وأخيه وآله، لكنه سُخْطٌ لم يصل إلى درجة الثورة وخلع الطاعة. فهو لو قد فعل هذا لأبعد - على الأقل- حبيب ابن أبى عبيدة عن معسكره، من باب الاحتياط والتحرز. والمراجع جميعها تثنى على «عبد العزيز» الذى هو عندهم من أحسن الولاة فى الأندلس، فالرازى يقول عنه: «ضبط سلطانها، وسد ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة، إلا أن مدته لم تطل»، أما عن قصته مع زوجته «أيلونا»، فيتبين منها أنه كان رجلا تقيا، لطيفا، حسن العشرة وأنه كان قادرا على تذوق الحياة وراغبا فيها.

هـ - ولاية أيوب بن حبيب اللخمى:

اجتمع أهل الأندلس ـ بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير - على «أيوب بن حبيب اللخمى» - ابن أخت موسى بن نصير. . الذى قتل عبدالعزيز بمشورته. وهذا فى حد ذاته دليل براءة للخليفة «سليمان بن عبدالملك»، من دم عبد العزيز؛ ذلك أن الجند كانوا ناقمين عليه، فقتلوه، ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب اللخمى. كما يبدو أنهم كانوا يعتقدون أن سليمان يَسُرُّهُ أن يسمع بمقتل «عبد العزيز» ويِقرُّهُمْ عليه. لكن ما حدث هو العكس، إذ أرسل يطلب عقابهم ويعزل واليهم هذا، ويقيم غيره. فعزِل أيوب بعد ستة أشهر من ولاية لم يفعل فيها شيئا، سوى أنه نقل العاصمة من أشبيلية إلى «قرطبة»، بعد أن ظلت، أشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامى أربع سنوات إلا قليلا.

وكانت النية قد اتجهت إلى قرطبة أواخر أيام عبد العزيز. وكانت جماعات من العرب قد استقرت فى إقليمها، وظلت مقيمة فيه بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة. وتكونت من هؤلاء العرب جاليةٌ عربية قوية، خالطت أهل البلاد، وقامت لهم مع الزمن عصبةٌ خطرة كان لها، فيما بعد، مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ حافل بالحروب والمنازعات.

و - ولاية الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفى:

عَيَّنَ والى إفريقية على الأندلس واليا جديدا غير أيوب اللخمى، هو «الحر بن عبد الرحمن الثقفى»، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٩٧هـ/ ٧١٦م.

وقد جاء هذا التعيين عقابا من الخليفة الأموى «سليمان» لأيوب اللخمى، على اشتراكه مع

الجند فى اغتيال عبد العزيز بن موسى، فذهب «الحر الثقفى»، على رأس قوة إلى عمله بالأندلس، واستمر عليه عاملا لمد سنتين وثمانية أشهر، وسكن قصر قرطبة واختطه مقاما للولاة منذ ذلك الحين.

ز - ولاية السمح بن مالك الخولانى:

ثم مات الخليفة «سليمان بن عبد الملك» فى العاشر من شهر صفر سنة (٩٩هـ - ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م)، وخلفه التقى «الورع» «عمر بن عبد العزيز» ـ الخليفة الراشدى الخامس ـ، ليبدأ الأندلس فى خلافته عهدا جديدا، مثل باقى أقاليم الدولة الإسلامية. واختار عمر بن عبد العزيز، واليا جديدا للأندلس هو «السمح بن مالك الخولانى»، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة (١٠٠هـ - أبريل/ مايو ٧١٩م).

والمراجع تحدثنا عن نية «عمر بن عبد العزيز» إخلاء الأندلس من العرب؛ لأنه خشى تغلب العدو عليهم، كما يقول «ابن القوطية»، وذلك لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى عدم إلمام عمرَ بن عبد العزيز، بأحوال وثروات هذا الصقع الإسلامى النائى الكبير الغنى، بدليل أنه قال للسمح بن مالك الخولانى بأن يكتب إليه (إلى عمر بن عبد العزيز) بصفة الأندلس وأنهارها وبحورها. ويحتمل أنه فوَّضه فى إعادة المسلمين منها، إذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها، فكتب إليه السمح يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم، وشرف معاقلهم. فلما استوثق عمر بن عبد العزيز من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه، أَوْلاَهُ من عنايته ما هو أهلٌ له.

ح - ضبط المال وتنظيم البلاد:

اهتم عمر بن عبد العزيز، أول ما اهتم، بضبط وتنظيم أموال هذا الإقليم، وهو مالم يهتم به أحد من سابقيه من الخلفاء، فانتدب مولى يثق فيه يسمى «جابر» وبعثه إلى الأندلس فى هذه المهمة. وتذكر النصوص أن جابرا هذا اهتم بالتمييز بين «أرض الصلح وأرض العنوة»، واستخرج خمُسَ العنوة ليضمه إلى أرض الدولة، فلم يخرج فى الخُمْسِ إلا ربض من أرباض قرطبة جعله «مقبرة للمسلمين، وأقر القرى بيد غُنَّامها» (أى فاتحيها). وهذه عبارة لا تفسر إلا بأن جابرا هذا اعتبر قرطبة هى الناحية الوحيدة التى فتحت عُنْوة (بالقوة)، فأخذ خمسها للدولة، أما بقية الأندلس فاعتبره فتح صلحا.

ولما كنا نعلم أن معظم الأندلس قد فتح عنوة (الجنوب وأقاليم قرطبة وأشبيلية وماردة على الاقل)، فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ربض من أرباض قرطبة؟ ثم ما معنى قولهم: «أقر



القنطرة العربية والقصر العربى - قرطبة

القُرى بيد غُنَّامها؟ وعلى أى أساس تركها فى أيديهم؟». إن لفظ غنامها هنا يسمح بأن نفترض أن الحكومة المركزية، اعتبرت ما فُتِحَ من الأندلس غنيمة لمن فتحوه، فتركت كلَّ ناحية فى يد فاتحيها (غنامها) واستقروا فيها. إننا نفترض ذلك بمجرد افتراض، ولا يمكن الجزم أو القول بذلك على سبيل التأكيد، لغموض روايات المراجع في هذا الشأن.

وإذا كان عمر بن عبد العزيز، قد تخَيَّر السمح بن مالك الخولانى لفضله، وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يُخَمِّس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها وبحورها. فكيف لم يدون للبلاد ديوانا؟ على عكس ما حدث فى المغرب؛ ذلك أننا رأينا حسان بن النعمان الغسانى، يسارع بذلك عقب انتصاراته النهائية على الكاهنة؟ وكيف تمضى أربعُ سنوات على إتمام الفتح دون أن يُنْشَأ للأندلس ديوان ثابت يحصى وينظم كل شىء؟.

الحق، إن الأندلس ـ دون باقى أقطار العالم الإسلامى- ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعا، فنحن لا نعرف هل أنشئ له ديوان أم لا بالتأكيد؟ وعلى أى أساس وزعت الأرض بين الفاتحين والحكومة المركزية؟ كما لا نملك معرفة مقادير الجزية والخراج التى كانت تجبى ولو لسنة واحدة.

فالأندلس ظل تابعا للخلافة الإسلامية نيفا وأربعين سنة، دون أن يذكر أحد من المؤرخين - ولو لمرة واحدة - مقدار الجزية التى جبيت منه، أو الخراج الذى أرسل منه فى إحدى السنوات، ولم يسجل المؤرخون أو الجغرافيون أو كُتَّابُ الرحلات (الرحالة)، كما لم تذكر المراجع أن الأندلس أرسل إلى دار الخلافة خراجا ما أو جانبا من الجباية، وهذا وضع غريب فى ذاته. والسبب فى عدم ذكر هذه الموارد هو أن وضع الأندلس - من أول الأمر - كان غريبا لا يشبهه بلد إسلامى آخر.

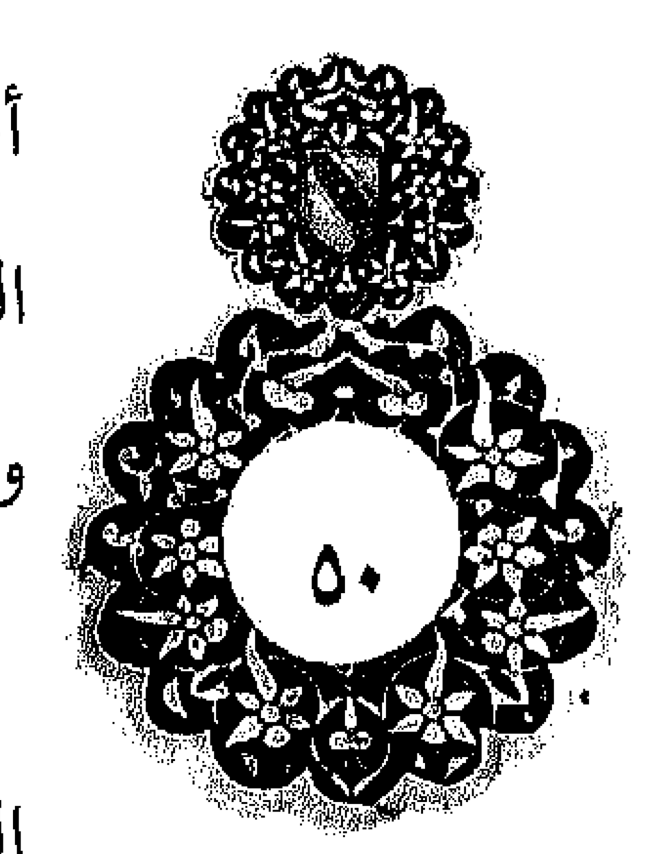
وإذا كان السمح بن مالك الخولانى، قد انتوى تنظيم أمور هذا الصقع وإحصاء أمواله، إلا أن الظروف لم تمهله، إذ استشهد فى معركة «طركونة» يوم (٩ ذى الحجة ١٠٢هـ)، دون أن يحقق ما انتوى فعله.

إذن، فالبطحاء المعروفة بالربض (ربض قرطبة)- التى خرجت فى الخمس- لا تعنى إلا خُمْسَ إقليم قرطبة؛ لأنه لا يعقل أن تكون هى خمس الأندلس. والسمح كان ينوى استقصاء الأندلس كلهّ لو لم تدركه منيته، وهو إذا كان قد ترك القرى فى يد غُنَّامها (أربابها أو فاتحيها)، فليس ذلك دائما وإنما إلى حين، أى إلى أن تضبط على أساس ثابت، فلا يعقل أن يكون هكذا فى أيديهم طعمة لا يكادون يُحَاسَبون عليها.

على كل حال، لم يكد السمح يمضى فى تنظيم شئون البلاد حتى تجمع لديه مال كثير، وكانت قنطرة قرطبة الرومانية - المقامة على الوادى الكبير للاتصال بنواحى جنوبى الأندلس - قد تهدمت، وصار عبورُ الناس بالسفن، وكان العرب فى حاجةٍ إلى قنطرة متينة، يعبرون عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة؛ ولذلك كتب السمح إلى عمر بن عبد العزيز «أمير المؤمنين» يستأذنه فى إقامة القنطرة. فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر، فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة. وقد اهتم المسلمون بهذه القنطرة كثيرا بعد ذلك؛ لأنها



شارلمان - ملك الفرنجة



أصبحت ذات أهمية قصوى فى تاريخ البلاد السياسى والفكرى. إذ وصلت العاصمةَ (قرطبة) بجنوب البلاد وبلاد الشرق جميعا، وكانت منتزه أهل قرطبة، ومدار خيال الشعراء الأندلسيين جميعا.

ثم خرج السمح فى ربيع سنة (١٠٢هـ - ٧٢١م) فى صائفة فيما وراء البرانس فى طرسونة، واستشهد فى هذه الصائفة كما ألمحنا قَبْلا.

وخلال السنوات القليلة التى ذكرناها، كانت علاقات العرب بالبربر فى إفريقية والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثره الحاسم فى مجريات الأمور، فى القطرين، خلال هذه الفترة وما تلاها.

فلقد تراجعت فلول قوات السمح بن مالك الخولانى - بعد استشهاده - بقيادة أحد قواده وهو «عبد الرحمن الغافقى» إلى «أربونة»، التى أصبحت قاعدة لعمليات الفتح الإسلامى فى بلاد غالة فيما بعد، وبهذا لم يقدر للسمح أن ينجح إلا فى فتح منطقة «سبتمانية».

ط - ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى:

آلت ولاية الأندلس - بعد استشهاد السمح - إلى «عنبسة بن سحيم الكلبى» (١٠٣-١٠٧هـ / ٧٢١-٧٢٥م)، الذى لم يكن أقل حماسة ولا شجاعة ولا قدرة من السمح، فواصل الفتح، لكن خطة عنبسةُ لم تكن مماثلة لخطة سلفه الراحل الكريم، وإنما التزم السير بحذاء الساحل دون التوغل فى داخل البلاد. وواصل عنبسةُ زحفَه شمالا حتى «ليون» فأخذها، ثم فتح «أوتان» فى أعالى نهر الرون.

وإذا كان السمح لم يُحسِنْ صنعا، حين أوغل بجيوشه داخل البلاد، دون أن يطهر كل الجيوب، التى تركها، وعَرَّضَ نفسه وقواته لانقضاضة «يودو» دوق أكيتانيا، فإن عنبسة ارتكب خطأ جسيما كذلك، مشابها لخطأ سلفه؛ ذلك أنه لم يكن حَذِرا فى اندفاعه، فلم يُؤَمِّنْ خطوطَ عودة قواته. مما أتاح الفرصة للانقضاض عليه وقتله وقطع خطوط ارتداده، وانفراط عقد قواته وعودة فلولها إلى أربونة مرة أخرى.

على أية حال، لقد أتم المسلمون فتح الأندلس، واستقرت أقدامُهم فى أرضها. فوزعوا مناطق سكناها فيما بينهم، وشهدت الأندلس -عقب الفتح الإسلامى- تنوعا فى سكانها- جنسا وعقيدة وثقافة - إذ أصبحت تضم العرب الذين كانوا فى جيوش الفتح وعرفوا باسم (البلديون)، والعرب الوافدون (الداخليون)، وجماعة من الإسبان (المسالمة) الذين دخلوا فى الإسلام - والعجم

(المستعربين)، أى الذين احتفظوا بدينهم تحت ظل الإسلام- ثم طائفة المَولَّدين- وهم نتاج تزاوج واندماج بشرى بين رجال العرب ونساء الأندلس، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق بن زياد، أو الذين هاجروا من بلاد المغرب، إما بحثا وراء مغنم أو سعيا للاستقرار، ثم طائفة اليهود.

ى - عبد الرحمن الغافقى والاصطدام بالدولة الميروفنجية:

آل أمر الأندلس سنة ١١١هـ إلى «عبد الرحمن الغافقى» (١١١ - ١١٤هـ/ ٧٢٩ -٧٣٢م)، وهو أحد قواد الجيش أيام السمح (كما ذكرنا). وكانت ظروف الأندلس سيئة، وخاصة أن معركة «طولوشة»، تركت أثرا شديد الوقع فى نفس عبد الرحمن الغافقى؛ لذلك رأى الاستفادة من الأخطاء السابقة، فبدأ يعد نفسه إعدادا كبيرا لغزو فرنسا، للثأر لهزيمة المسلمين فى «طولوشة» (تولوز).

وبمجرد أن أتم الغافقىُّ إعدادَ الجيش للمهمة التى قرر القيامَ بها، أعلن الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله فى الأندلس وأفريقية، وقد تجمع لديه جيش كبير من المتطوعة، وعبر بهذا الجيش جبال البرانس إلى أربون، ثم مجرى الجارون، حتى وصل إلى بلدة «برديل» (بوردو) عند مصب النهر. وبعد ذلك اندفع شمالا وهزم دوق أكيتانيا الذى استنجد بدولة الفرنجة. فرأى أمين القصر (شارل مارتل) ـ المطرقة ـ وكان هو صاحب الكلمة العليا فى الدولة الميروفنجية وقتذاك، ضرورة نجدته، لخطورة استيلاء المسلمين على دوقية أكيتانيا بالنسبة للدولة الفرنجية (الميروفنجية).

وقرر شارل مارتل (المطرقة) مجابهة المسلمين، فكانت معركة «تور» الشهيرة ـ بين بلدتى تور وبواتييه ـ على بعد ٧ (سبعة كم) من «باريس» ـ جنوبى نهر السين ـ حيث التقى الجمعان ـ الإسلامى والميروفنجي ـ، وكان القائد المسلم هو عبد الرحمن الغافقى والقائد الإفرنجى هو «مارتل»، واستمر التلاحم ثلاثة أيام (أو سبعة حسب رأى آخر). وكانت معركة قاسية على الطرفين. والتف «يودو» حول خطوط القوات الإسلامية من الخلف، ليهددهم فى غنائمهم، فيشغلهم عن متابعة قتال عدوهم من أمامهم، ونجحت فكرة «يودو» (دوق أكيتانيا) فتمكن الفرنجةُ من المسلمين، الذين عادت فلول جيشهم تنشد النجاة ولا تلوى على شيء، سوى المحافظة على النفس.

ولم يطارد «شارل مارتل» فلول القوات الإسلامية، أو يتعقبها وهى تفر ناشدة النجاة بالمهج فقط، لشكه أن يكون انسحاب تلك القوات من المعركة خدعة تستدرجه بها إلى كمين أو فخ نصب لاصطياده وقواته. واكتفى «شارل مارتل» (المطرقة) بما أحرزه على المسلمين من نصر فى تلك المعركة التى سميت باسم «بلاط الشهداء» ـ سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م ـ لكثرة من استشهد فيها من قوات الغافقى الإسلامية.

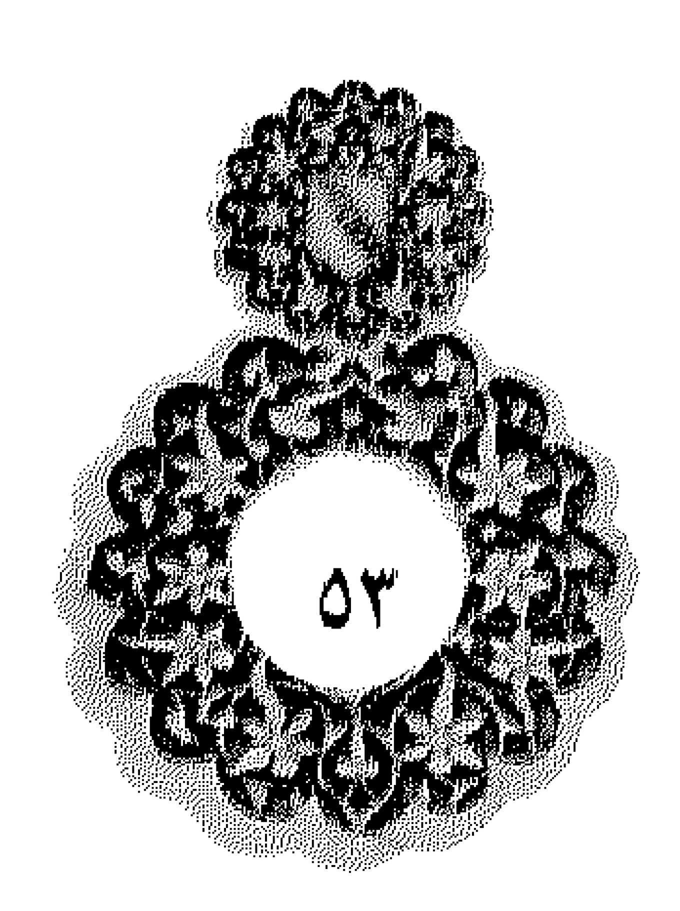
حقا، لقد كانت معركة «بلاط الشهداء» (توربواتييه) ـ باتفاق المؤرخين ـ من المعارك الفاصلة فى التاريخ العام، حيث إن المسلمين لم يعاودوا الهجوم مرة أخرى بعدها، لانشغالهم بالدفاع فقط عن حدود دولتهم فى الشام، والجزيرة (أعالى الفرات) ضد الروم، وهزيمتهم أمامهم فى آسيا الصغرى ـ أيام هشام بن عبد الملك ـ، هذا فضلا عما أثارته الدعوةُ العباسية فى جوف الدولة الإسلامية من قلاقل وإحن. مما دفع بالخلافة إلى أن توكل أمر جبهة الأندلس إلى ولاتها بإمكانياتهم وقدراتهم.

ويبدو أن «مارتل» أدرك بعضا من حقائق الوضع في جوف الدولة الإسلامية وقتذاك، كما خشى من خطر المسلمين فى إسبانيا؛ لذلك رأى أن يستغل نصره فى «تورووبواتييه» لتحطيم الروح المعنوية للمسلمين. فيعاود الهجوم مرة أخرى، ويطارد العرب إلى حدود سبتمانية، وينزع منهم إقليم «بروفانس» ولم تبق سبتمانية فى يد العرب، بل انتزعها منهم «شارلمان» وأنشأ ثغرا فى جبال البرنيز على شاطئ البحر المتوسط.

وبهذا لم يعد للمسلمين أملاك حتى ما وراء البرانس، وقد حاول المسلمون الإغارة من جنوبى فرنسا، ودخلوا سويسرا، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، ولم تتعد كونها إغارات خاطفة سريعة، بلالم تسفر عن فتح مستقر منظم، بل كانت أقرب ما تكون إلى القرصنة المسلحة، كما يذكر الأستاذ عبد الحميد العبادى فى كتابه «المجمل فى تاريخ الأندلس».

لكن الحقيقة التى لا بد من ذكرها ـ اعترافا بما وقع ـ هى أن المسلمين لم يستفيدوا من نصرهم لدولتهم وإسلامهم، وإنما تركوا أنفسهم نهبا للخلافات ونار العصبيات، التى تركوها تتأجج بينهم وتعود بهم إلى جاهلية ما قبل الإسلام، ولم يفطن المسلمون إلى أن ذلك يعتبر وبالا عليهم وعلى دولتهم وكيانهم فى هذه الأصقاع النائية عن مركز الخلافة الإسلامية.

فقد اشتغل العرب والبربر بالسياسة، وانقسموا شيعا وأحزابا، وقامت بينهم المنازعات والصراعات والخلافات، فيذكر المقرى أن «شارل مارتل» (قارلة) قال لقومه ـ وقد شكُوا له من أمر المسلمين ووقوفهم على أبواب البلاد ـ: «انتظروا لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم، فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة، وحصانة من أن يُهزَمُوا، حتى تهدأ أمورُهم ويأخذوا فى التنافس فى الرياسة، والملك، والمال، وعند ذلك تتفرق كلمتُهم، ويضعف أمرهم، فتتمكنون منهم بأيسر مجهود»، ثم يعقب المقرى فيقول: «فكان والله ذلك» (نفح الطيب).



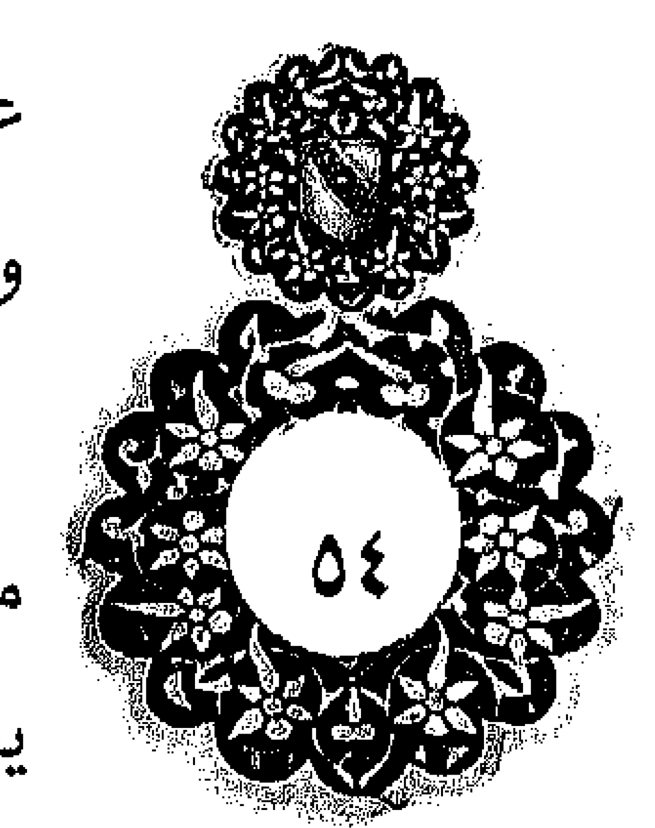
الفصل الثالث
العلاقة بين العرب والبربر فى الأندلس
(بين سنتى ١٠٢ - ١٣٦هـ/ ٧٢١ - ٧٥٣م)

أ - العرب وخلافات العصبية فى المغرب:

أتم المسلمون فتح المغرب حوالى سنة (٨٧ هـ) أو (٨٢ هـ) حسب رواية أخرى، بعد انتصار حسان بن النعمان على الكاهنة وأنصارها، وبدأوا يضعون لهذا القطر الفسيح (المغرب) نظامه الإسلامى الجديد، بعد قرابة سبعة وستين عاما من الحرب والكفاح، مع الروم تارة، ومع البربر تارة أخرى، ومما لا جدال فيه أن حسان كان يمكنه توجيه السياسة الإسلامية فى المغرب توجيها حسنا، فقد وضع من القواعد الإدارية والنظم ما كان كفيلا ـ لو دام ـ بأن يهيئ للمغرب، الاستقرار المنشود بعد عصور طويلة الاضطراب والحروب، لكن الظروف لم تمهل حسانا إلا قليلا؛ ذلك أن عبد العزيز بن مروان ـ عامل مصر لأخيه عبد الملك بن مروان ـ كان يطمع فى المغرب لنفسه، وكان لا يستريح إلى حسان كثيرا، ولم يزل به حتى عزله فى أواخر سنة ٨٥هـ، واستبدل به مولاه «موسى بن نصير».

ولا شك أن موسى بن نصير كان رجلا قديرا ونشيطا، ومحاربا ماهرا، قاد المسلمين إلى الانتصار فى كل من المغرب والأندلس، لكنه لم يكن دقيقا فى تنظيمه، ولا خبيرا بسياسة الشعوب، إذ مضى يحارب البربر ويستثيرهم ضده، بدلا من تأليف قلوبهم، وكسب مودتهم للدولة الجديدة والفاتحين الجدد والدين الجديد، فارتاعوا منه وشكوا فى مرامى الحكم الإسلامى. ويقال: إن موسى بن نصير بذل همة كبيرة فى جمع الغنائم والسبى، وأسرف فى ذلك، حتى فزع منه البربر، وتهاربوا من مساكنهم وبلدانهم أمامه، وبذلوا له الطاعة عن رهبة، بينما أمضى هو وبنوه (عبد الله وعبد العزيز ومروان)، وكبار رجاله نحو عشر سنوات، فى جمع الغنائم والسبى حتى كان ما غنموه يضاهى أو يفوق ما غنمه المسلمون من فتح فارس وغيرها من الأقاليم، التى فتحت فى القرن الأول الهجرى.

وفى أواخر عام ٩٥هـ عاد موسى للشرق وأقام ابنه «عبد الله» أميرا على المغرب، فمضى على نهجه، حتى ضج الناس منه وتهيأت نفوسهم للثورة على هذا الوالى المسلم العسوف بهم، فعزله سليمان بن عبد الملك، وولى مكانه «محمد بن يزيد القرشى»، وحذره من مغبة سياسة العسف التى سار عليها آل موسى بن نصير ورجالهم، وقال له: «يا محمد اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيما وليتك بالحق والعدل، فاللهم اشهد». وهذه الوصية تدل على أن سليمان بن



عبد الملك، كان موقنا بأن آل نصير ساروا سيرة غير محمودة فى بلاد المغرب، وأنه كان يريد أن يوجه حكم البلاد توجيها جديدا.

لكن محمد بن يزيد القرشى لم يتمكن من إصلاح الأمور تماما، بسبب ما تركه حكم آل نصير فى نفوس البربر من نفور للدولة الأموية، مما جعلهم لا يطمئنون إلى أحد، هذا فضلا عن قصر فترة ولاية «محمد بن يزيد»، إذ عزل عن عمله بعد عامين فقط من توليته (٩٧ - ٩٨هـ)، مما لم يمكنه من أن يترك أثرا يذكر فى البلاد.

كذلك ظل الأثر غير المرضى - الذى ترسب فى نفوس البربر، من حكم آل نصير - حائلا دون نجاح عمال بنى أمية فى محاولاتهم الإصلاحية، وكان هذا الفشل لعدة عوامل، منها: اعتياد الخلفاء على الهدايا الكثيرة من عمال إفريقية وبلاد المغرب، واضطراب أحوال المشرق على بنى أمية بعد خلافة «عمر بن عبد العزيز»، وانفلات أمر الكثير من الولايات من يدهم، فضلا عن الحروب بين بنى أمية وكل من الزيدية والخوارج، واشتراك الولايات فيها لا سيما المغرب والأندلس، كما أن البربر شعروا بمدى قوتهم بعد قيامهم بعبء فتح الأندلس مما رفع من روحهم المعنوية.

فهذه الأسباب مجتمعة شجعت البربر على التمرد والوثوب على العرب، دون أن يفطن هؤلاء العرب إلى هذا التطور النفسى السيئ، والخطر الذى كان يجرى فى إفريقية مع السنين.

وهكذا تهيأ الجو فى بلاد المغرب، لاندلاع الثورات والفتن التى لم يتمكن العرب من وقفها، رغم جهودهم فى هذا السبيل، فامتدت هذه الثورات من طرابلس (الغرب) إلى البرانس، وآل الأمر إلى هدنة بين العرب والبربر فى نهاية العصر الأموى، ونحن نقول هدنة وليس هدوءا، إذ ظلت العداوة قائمة لم يخمد أوارها بين الحيين (العرب والبربر)، حتى خرجت المغرب عن نطاق السلطة المركزية للخلافة فى عصر الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦هـ/ ٨٩٥ - ٩٠٩م).

لهذا تعد ثورات البربر فى بلاد المغرب، حادثة من ثلاث أو أربع حوادث هامة وقعت فى المغرب العربى، منذ الفتح الإسلامى حتى سنة (٥٢٤هـ - ١١٣٠م)، حين تقوم دولة الموحدين البربرية الخالصة، ليبدأ المغرب بقيامها عصر «المغرب البربرى الإسلامى» الذى لم يعد للعنصر العربى خلالها أى سلطان سياسى فى المغرب. وهذه الحوادث الثلاثة هى: قيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ، وقيام الدولة الزيرية (٣٦٢ - ٣٧٤هـ)، ثم الغزوة الهلالية حوالى عام (٤٤٥هـ - ١٠٥٣م).

ب - الخليفة عمر بن عبد العزيز ومحاولة الإصلاح:

بعد أن ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، عقب وفاة سليمان بن عبد الملك سنة (٩٩هـ - أكتوبر ٧١٧م)، بدأ المغرب - كباقى الولايات الإسلامية - يدخل فترة جديدة؛ وذلك بسبب

إخلاص الخليفة الجديد (عمر بن عبد العزيز)، وحرصه على مصالح الرعية وشئونهم، وتدقيقه الشديد فى اختيار العمال القادرين على النهوض بالولايات.

لكن انصراف عمر بجهده نحو المشرق، جعله ينشغل عن أمور بلاد المغرب والأندلس، عاما وثمانية أشهر، فلم تتح له الفرصة للنظر فى شئونهما إلا فى رمضان سنة (١٠٠ هـ/ ٧١٨ - ٧١٩م). فأقام «إسماعيل بن عبيد الله» على إفريقية، و«السمح بن مالك الخولانى» على الأندلس، وهما من أفاضل وخيرة عرب إفريقية.

وإذا كانت المراجع تذهب إلى القول، بأن «عمر بن عبد العزيز» فكر فى إقفال المسلمين من الأندلس خوفا عليهم، فلم يكن هذا التفكير من عمر ارتجاليا أو جزافا. وإنما كان إحساسه بالخوف على المسلمين فى هذه الجهات القاصية لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين، كما يذكر صاحب كتاب فتح الأندلس.

فكانت شدة حرص عمر بن عبد العزيز، وعدم معرفته بحقيقة بلاد الأندلس - قبل قيام الثورات والاضطرابات، حين كان برج السعد يواكب المسلمين أينما حلوا وذهبوا - هى الدافع إلى أن يطلب ما طلب، بدليل كتابته إلى السمح بن مالك أن يخبره عن الأندلس صفتها وبحرها، وأنه ربما أعطاه تفويضا خاصا فى إقفال المسلمين منها إذا رآها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها، فكتب إليه السمح يخبره بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم.

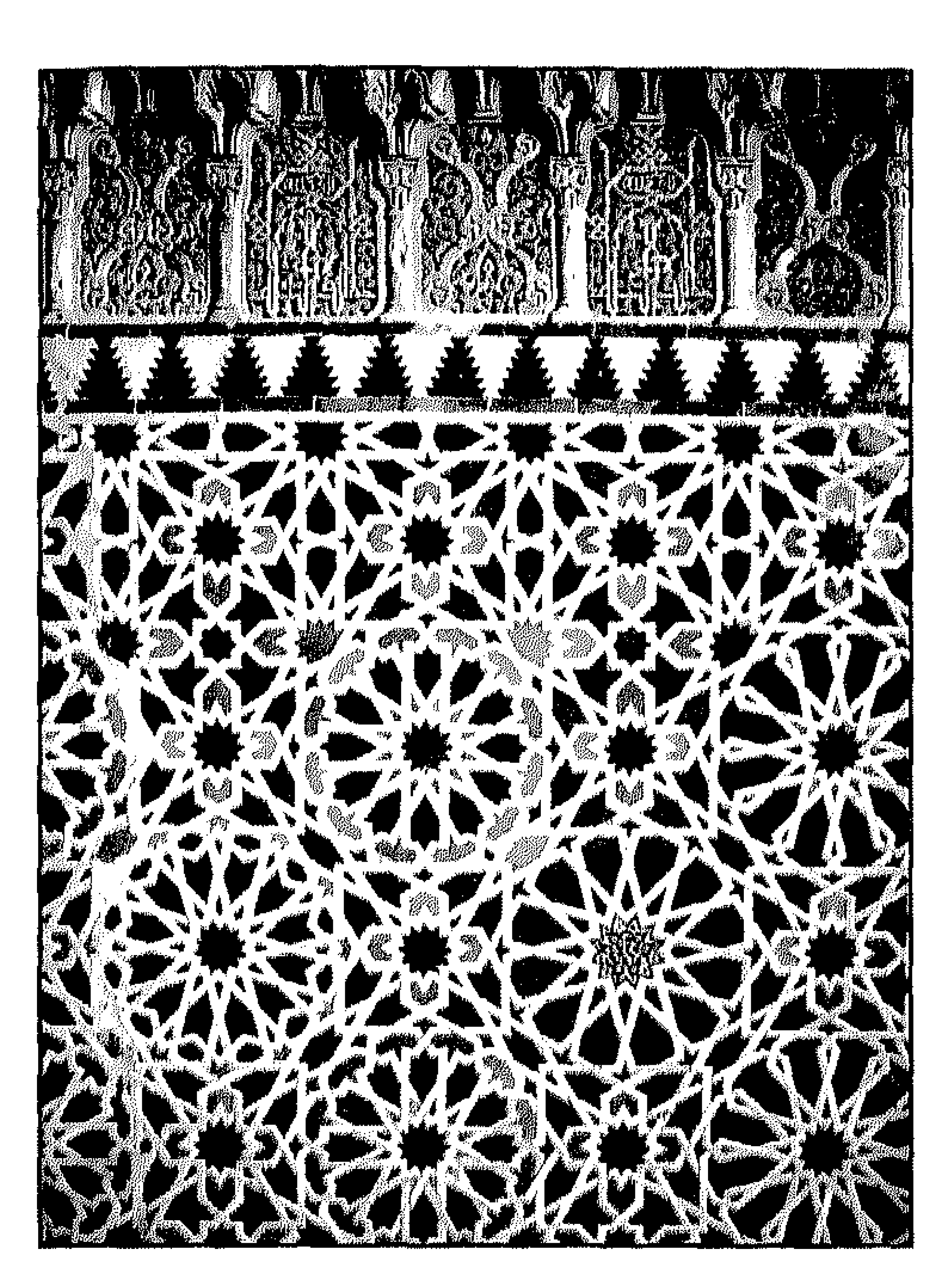
فلما علم عمر بذلك أولاها عنايته بما هى أهله من ضبط لأموالها وخراجها، لكن الظروف لم تمهله لقصر فترة خلافته، وقصر مدة والى الأندلس فى عهده وهو «السمح بن مالك الخولانى»، الذى استشهد فى طرسونة يوم عرفة سنة (١٠٢هـ - ٧٢١م)، فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإدارى الذى بدأه.

وبوفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز، عاد الاضطراب إلى أحوال غرب الدولة الإسلامية سيرته التى كان عليها أيام سليمان بن عبد الملك، ومن سبقه، كما عاد استبداد حكام أفريقية والأندلس، فيولون عليه من يريدون، ويصرفون أموره كما يشاءون؛ ولذلك رأى الأندلس فيما بين سنتى (١٠٢ - ١١٢هـ/ ٧٢٠ - ٧٣١م) ستة حكام لم يكن لأحد منهم اهتمام إلا بالحروب فيما وراء البرانس وانصرافا تاما للمنازعات العصبية العنيفة.

جـ - خلافات العصبية:

آل ولاية أفريقية خلال هذه الفترة (١٠٢ - ١٠٩هـ) إلى رجلين من كبار رجال بنى أمية هما «يزيد بن أبى مسلم» - مولى الحجاج وكاتبه - (١٠٢ - ١٠٣هـ)، و«بشر بن صفوان الكلبى»

(١٠٣ - ١٠٩هـ/ ٧٢١ - ٧٢٦م). وكان على دست الخلافة اثنان من أشد المتعصبين قبليا هما «الخليفة يزيد بن عبد الملك» (١٠٠ - ١٠٥هـ/ ٧٢٠ - ٧٢٤م) و«هشام بن عبد الملك» (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٣م)، اللذين ظهرت فى عهدهما بوادر الانقسام فى البيت الأموى؛ ذلك الانقسام الذى انتهى بإضعاف البيت الأموى كله وذهاب ريحه بعد ذلك، فيزيد بن عبد الملك كانت ميوله مضرية، مما أغضب يزيد بن المهلب فحاربه وقتله، ويتعقب يزيد بن عبد الملك اليمنية بالأذى حتى مالوا إلى أعدائه وحقدوا عليه وأقام على إفريقية «يزيد بن أبى مسلم»، وهو من كبار القيسية، فلما قتل أقام مكانه «بشر بن صفوان»، وقوى جانب القيسية فى البلاد.



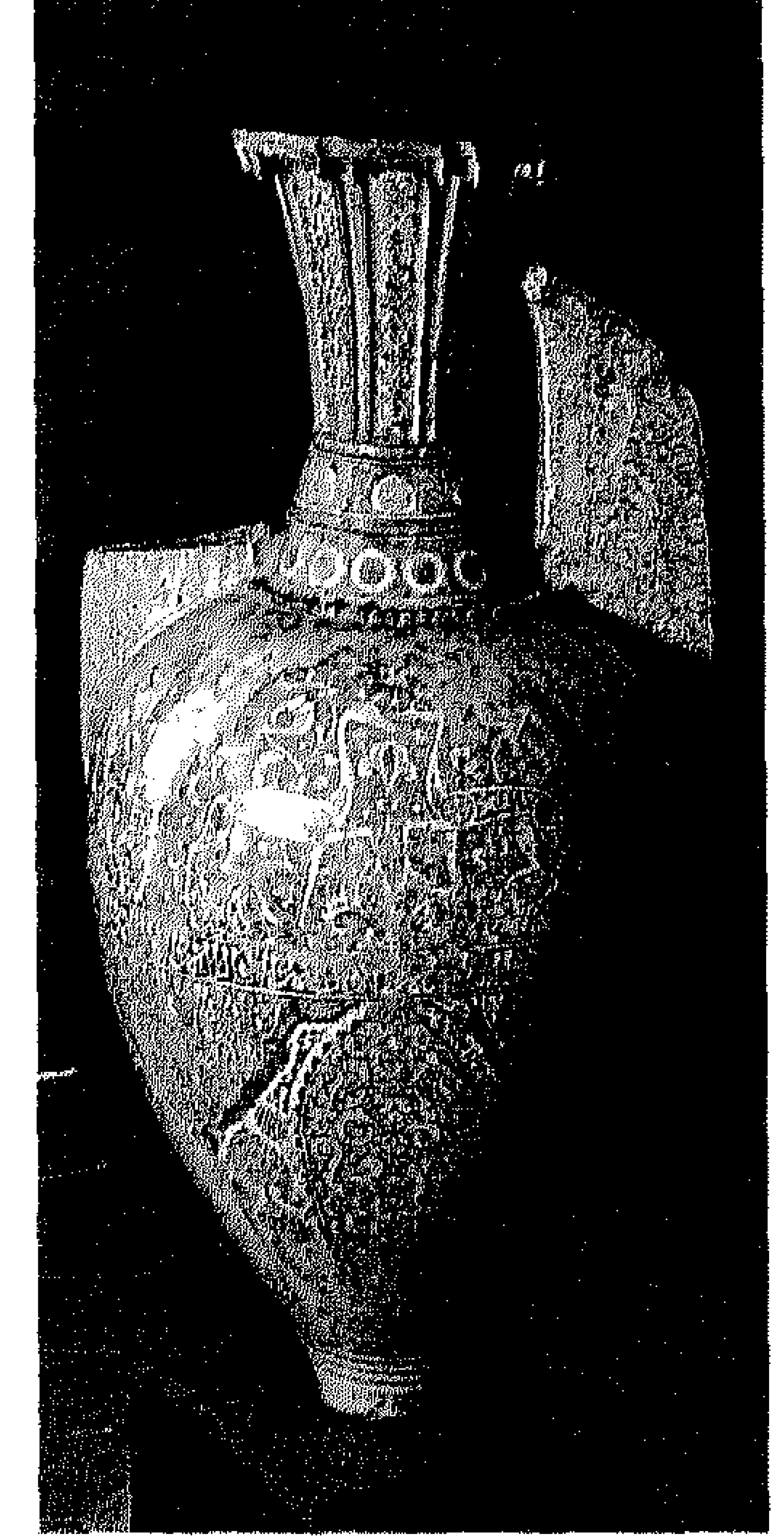
زخارف أندلسية إسلامية - غرناطة

أما الخليفة «هشام بن عبد الملك» (١٠٥ - ١٢٥هـ)، فأراد أن يخفف من غُلُواء سياسة سلفه «يزيد بن عبد الملك» على اليمنية وأقام جماعة من الكلبيين اليمنيين، أمثال «خالد بن عبد الله القسرى» وأخيه «أسد» على الولايات، فأخذوا يضطهدون المضرية. فلما مات بشر بن صفوان سنة (١٠٩هـ - ٧٢٦م) كانت ميول الخليفة «هشام» قد انحرفت بعض الشىء عن اليمنية الكلبيين، ومال ضدها فأخذ يولى بعض القيسية المناصب، فولى منهم «يوسف بن عمر الثقفى» العراق، و«نصر بن سيار» خراسان، و«عبيدة بن عبد الرحمن السلمى» أفريقية، وهم جميعا من غلاة القيسية فاضطهدوا اليمنية الكلبية. فيذكر النويرى أن «عبيدة بن عبد الرحمن السلمى» أخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم، وتحمل (تحامل) عليهم، وكان فيهم «أبو الخطاب بن صفوان الكلبى».

هكذا عصفت العصبية بالدولة الإسلامية (الأموية) فى قلبها وفى ولاياتها. فقامت الحروب بين العرب فى الولايات، وتخضبت أراضى الدولة الإسلامية بدماء العرب، يسفكون دماءهم بأيديهم، وشغلتهم هذه الخلافات فى كل ناحية، عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور، ولم يشق بلد بهذه الخصومات العصبية مثلما شقى بها المغرب والأندلس، وليس ذلك لأنها - أى العصبية - كانت فيهما أقوى وأقسى؛ ولكن لأن كلا من المغرب والأندلس كانا - إلىّ ذلك الحين -

بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة. وكان لابد لمن يقوم فيهما من المسلمين العرب، أن يكونوا كتلة واحدة يقظة، وإلا نهض العدو لهم، وهو لم يقض عليه تماما بعد، ومتحفز للانقضاض عليهم عند أول سانحة، وهذا ما حدث فعلا.

فلقد شغل العرب بثاراتهم القبلية عن بقايا القوط - (القوط والبربر) فى الأندلس، وعن إتمام إخضاع البربر فى إفريقية، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا فى أشد الحاجة إليها. واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم ويمكنوا أقدامهم فى نواحيها القاصية، ثم أخذوا يتقدمون على مهل منتهزين الفرصة فى هؤلاء العرب، الذين شغلتهم «قيس» و«كلب» عن القوط والنصرانية والوثنية معا.

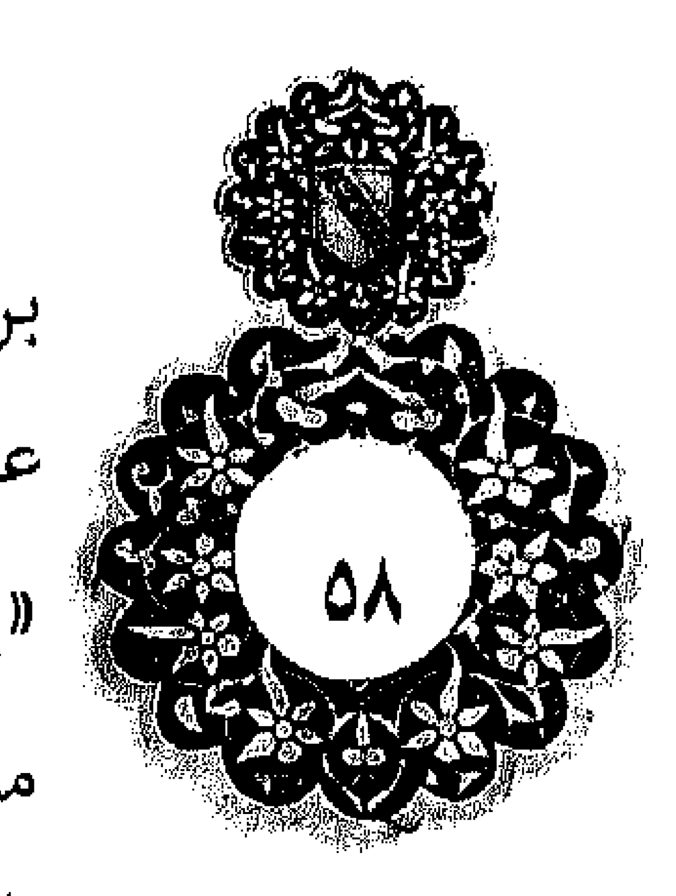


فازة من الآثار الإسلامية بالأندلس - غرناطة

هكذا يتضح أن هذه النزاعات العصبية وحدها كانت هى السبب فى نهضة فلول القوط، وتقدمهم لمنازعة المسلمين، تلك المنازعة الطويلة، التى انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة، كما كانت العصبية هى السبب فى ثورة بربر المغرب جميعه على العرب، لأنها أتت فى وقت حرج، كان المسلمون أحوج ما يكونون فيه بأن يبذلوا قصارى جهدهم فى إتمام فتح البلدين فعاقتهم عن ذلك، واضطرب الأمر عليهم فيهما جميعا.

د - سياسة قبيلة كلب اليمنية فى المغرب والأندلس ومسئولية الخلافة عن عمالها بالمغرب:

اعتبرت ولاية بشر بن صفوان، ومن قبله يزيد بن أبى مسلم، ولاية يمنية صرفة، وقد عُرف الكلبيون واليمنيون بإسرافهم فى العصبية على الموالى فى كل ناحية، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى سياسة «الحجاج» وعسفه موالى فارس، وكان يزيد بن مسلم تلميذه وكاتبه. ولقد حسب يزيد أنه يستطيع أن يسير فى البربر بسيرة الحجاج فى أهل العراق وفارس، فأخذ يعسف البربر، ويشتد فى جمع أموالهم وسبى نسائهم، كما كان شديد العناية بألطاف الخلفاء، وكسب قلوبهم بالهدايا، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليبعث بهن للخليفة. وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسلى الصافى ويرسلها إلى دمشق. فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها واحدا سليما؛ لذلك تغيرت نفوس البربر وبدأت قلوبهم تتغير، وحدَّثوا أنفسهم بالثورة عليه؛ لأن البربر كالعرب بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلا.



ومما لا جدال فيه، أن خلفاء بنى أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة «يزيد بن أبى مسلم» و«بشر بن صفوان» فى إفريقية، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئا عن الوسائل التى كانا يلجآن إليها فى عسف البربر والاستبداد بهم، بدليل أن «يزيد بن عبد الملك» لم يغضب حين علم بقتل البربر لواليه «يزيد بن أبى مسلم» وقال صراحة أنه لم يرض عن عمله، ثم أقر «محمد بن أوس الأنصارى» الذى أقامه أهل أفريقية على أنفسهم.

ورواية ابن عذارى تبين بوضوح أن الخلفاء لم يطلبوا من عمالهم الإكثار من الهدايا والألطاف، فيضطرون مثلا لهذا الإسراف فى عسف الناس والاشتطاط معهم، فالعمال هم وحدهم يحملون المسئولية كاملة، عما فعلوه وارتكبوه من عسف وظلم.

يقول ابن عذارى: «وكان الخلفاء بالشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل أفريقية فيبعثون لهم البربريات المسبيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب، منّاهم بالكثير وتكلف لهم - أو كلفوه - أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة».

وهذه الرواية تدل أو توضح أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط، وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف فى عسف الناس طلبا للمزيد من رضاء الخلفاء، ولم يكن الكلبيون على جانب من الكياسة، فأسرفوا فى الأمر كثيرا، فثار البربر عليهم.

هـ - تورنفوس البتر - زناتة:

أصبح العرب عقب الفتح فى المغرب، فى وضع غريب فريد فى ذاته، فبربر المغرب ينقسمون إلى بتر وبرانس أو إلى بدو وحضر. فأما البتر فسارعوا بالانضمام إلى العرب منذ البداية، واشتركوا معهم فى فتح البلاد، ولولا مساعدة قبائل بترية، (مثل لواتة ونفوسة وهوارة وبرغواطة) لما استطاع العرب الوصول إلى هذه النتيجة الباهرة، التى وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل، فلما انتصر العرب، واستقروا فى البلاد، توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة، ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يئسوا من كل عون من ناحية الروم.

ولكن العرب لم يفطنوا إلى ذلك ومضوا فى معاملة البربر معاملة واحدة، فاشتدوا عليهم جميعا - أصدقاء وغير أصدقاء - فتغيرت نفوس البربر «البتروزناتة» منهم بصفة خاصة - التى حملت معظم عبء فتح الأندلس، وراح منهم فى هذا الفتح بربرا زناتيين مثل «طريف بن أبى زرعة» و«طارق بن زياد»، وهكذا لم يحسن العرب جزاء هؤلاء، كما لم ينظر العرب فى الأندلس إلى البربر نظرة الند للند، فأنكر البربر ذلك وتغيرت نفوسهم.

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم. فقد كان البربر فى الأندلس أضعاف العرب عددا. وكان العرب يشعرون أنهم أقلية، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان، فزاد ذلك فى سخط هؤلاء، وكان البتر هم حرس الولاة المقربون إليهم، وكان الولاة ـ قبل «يزيد بن أبى مسلم» ـ يميزونهم من البرانس ويتخذون منهم بطانتهم. فلما جاء «يزيد بن أبى مسلم» أغفل هذه الناحية، وأساء معاملة البتر، وأراد امتهانهم وإذلالهم فنفرت نفوسهم منه. وفقد العرب، منذ ذلك الحين، ولاء هذا الفريق والحليف القوى، من بربر إفريقية، وهو ما سيؤثر فى الأحداث التى تقع بعد ذلك.

وكان فى أفريقية إلى جانب البربر والروم، نفر كبير من الأفارقة، أى من الأجانب المستوطنين الذين طال مُكثهم فى البلاد حتى أصبحوا أفريقيين. وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع الساحل، وتربطهم علاقات حسنة مع الروم، ومتأثرين بحضارتهم، وكان فيهم كثير من النصارى، فلما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم، وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد، بل أقدم نفر منهم على الإسلام. وكان هؤلاء الأفارقة يألون ألا يعتبرهم العرب «روما»، وألا يعسفوهم (يظلموهم). ولكن العرب وضعوهم ـ أى الأفارقة، والروم ـ فى منزلة واحدة. فاعتبروا الأفارقة موالى، وغنموا أراضيهم وأموالهم، فانقلبوا أعداء للعرب الفاتحين، واتصلوا بزناتة، واتفق الحيان ـ الأفارقة والبربر البتر (زناتة) ـ على الثورة. وكان زعيما «بربر طنجة» فى هذه الثورة «ميسرة المطغرى، و«عبد الأعلى بن جريج الأفريقى». وكان مع كل منهم قومه، ولعل ذلك يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب.

و - الخوارج فى المغرب:

تسبب اشتداد بنو أمية مع مناوئيهم العلويين والخوارج، فى اندفاع هؤلاء وأولئك إلى الفرار نحو الجهات النائية عن مركز الخلافة، مثل المغرب والأندلس. فكان من اليسير على هؤلاء كسب البربر إلى جانبهم، ووجدت مذاهب الخارجية ـ الصفرية ـ والإباضية خاصة ـ قبولا طيبا من البربر.

وهكذا تهيأت البلاد المغربية كلها، لظروف الثورة العامة الكبرى، على الأمويين خاصة والعرب عامة.

ويجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من انتقل إلى أفريقية من هؤلاء الدعاة، كانوا من «الصفرية» و«الإباضية» ـ ونحن لا نعلم بالضبط لماذا كان دعاة الثورة فى المغرب من هذين الفريقين من الخوارج؟ كما نعلم السبب فى إقبال أهل المغرب عليهما، وخاصة أن مبادئ الفريقين ليست مما

يجذب إليه البربر. فكلا الفريقين أكثر الخوارج ميلا إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين، بل إن الإباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين، ولا تستحل الغنائم فيما عدا السلاح والخيل، أما «الصفرية»، فتكاد تكون أكثر مذاهب الخوارج اعتدالا. والبربر ـ على ما نعلم ـ لا يميلون إلى الاعتدال فى العقائد. وسنرى من أحداث ثورتهم، أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطا، وربما كان الأنسب أن نشك فى نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والإباضية خاصة؛ لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية، ولسنا نجد ـ على كل حال ـ فى أخبار هذه الثورة الكبيرة، دليلا واضحا على «صفرية» القائمين بالحركة، أو «إباضيتهم»، والأسلم أن نسميهم «خوارج» فقط، خوارج سياسيين لا خوارج دينيين.

ورواية صاحب «الأخبار المجموعة» يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة، كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم، وذلك حيث يقول: «وقد يقوم من طعن فى الأئمة أنهم... إنما خرجوا ضيقا من سير عمالهم، وأن الخليفة ووالده، كانوا يكتبون إلى عمال طنجة، فى جلود الخرفان العسلية، فتذبح مائة شاة، فربما لم تود فيها إلا جلد واحد، وهو قول البعض للأئمة، فإن كانوا صدقوا، فإن التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف، وحلق الرءوس اقتداءً بالأزارقة، وأهل النهروان، أصحاب «عبد الملك بن وهب» و«زيد بن حصن».

والظاهر من هذا النص، أن صاحب الأخبار المجموعة، يحاول الدفاع عن خلفاء بنى أمية؛ لأنهم أجداد أموية الأندلس، ولا شك أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون الخلفاء الأمويين بالظلم، ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة.

على أى حال، فلقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهادا عظيما فى إثارة البربر، ودفعهم إلى الوثوب بالعرب. ومن دلائل ذلك قول المالكى (رياض النفوس) وكانوا ـ أى أهل إفريقية ـ يقولون: لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، فقالوا ـ أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الثورة والفتنة ـ لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقالوا: حتى نخبرهم.

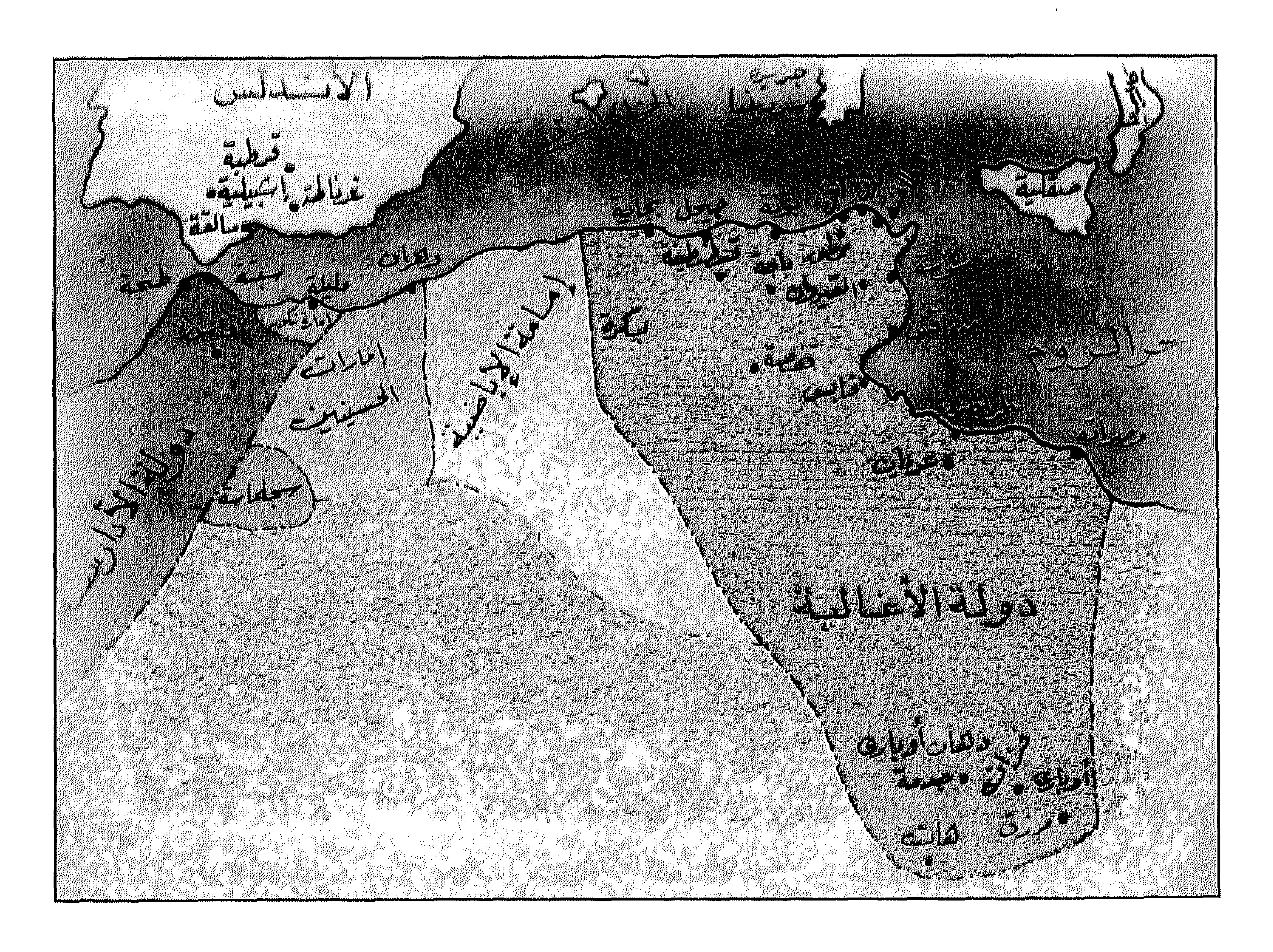
فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا، فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم، فدخلوا على الأبرشى فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا (أى أعطاهم حقهم من الغنم ولم يعط البربر كذلك)، ويقول: هذا أخلص لجهادكم...، فقال: لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة، ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه، وقالوا: إن سال عنا أمير المؤمنين فأخبروه ثم رجعوا إلى إفريقية. وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر، فعرف أسماءهم فإذا

هم الذين صنعوا ذلك.

وهذا يدل على أن أهل إفريقية، أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعون البربر إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذى ينزل بهم، إنما مصدره الخلفاء أنفسهم، فأراد ميسرة - زعيم البربر - أن يتأكد من الأمر، قبل أن يقدم على شيء، فمضى فى وفد من أهل بلده إلى دمشق، ليبسط ظلامته، أمام الخليفة هشام، فلم يستطيعوا مقابلته، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة.

ز - خلافات العصبية العربية فى الأندلس:

كان الأندلس - فى ذلك الحين - تابعا لأفريقية، فلا غرابة أن تظهر فيه أصداء هاتيك الأحداث التى تقع فى بلاد المغرب. ولا غرابة أيضا فى أن يكون لها جميعا أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التى ذكرناها.

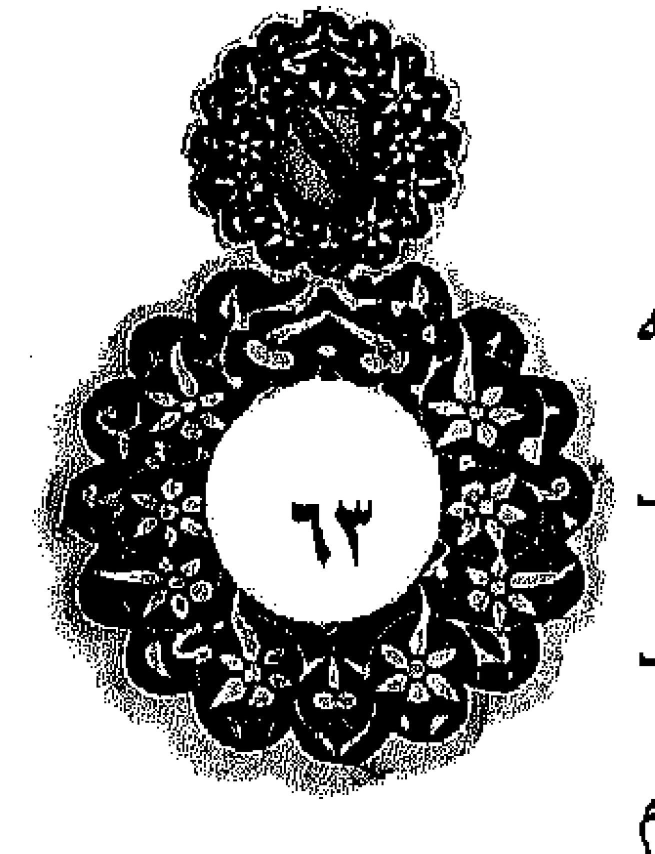


خريطة المغرب العربى سنة (١٤٠ - ٢٩٦هـ/ ٧٥٧ - ٩٠٩م)

فقد أقام يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان ـ الكلبيان اليمنيان ـ عمالا يمنيين كلبيين، هم «عنبسة بن سحيم الكلبى» (صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧هـ) و«عذرة بن عبد الله الفهرى» (شعبان ١٠٧ - شوال ١٠٧هـ)، ويحيى بن سلامة العاملى» (إلى ربيع الأول سنة ١١٠هـ). وقد حكموا جميعا سبع سنوات تعصبا فيها لليمنية الكلبية، وأوغروا صدر القيسية. وكانت قيسية الأندلس موغرة الصدر بطبعها، لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها؛ لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمروانيين فى المشرق، بل كان منهم من حضر «مرج راهط»، ورأى بعينه مصارع بنى قومه (القيسية)، وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين، وكانوا يتحينون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمانية الكلبيين. ولذلك امتلأت قلوب القيسية قسوة وكمدا وغيظا، وغدوا ينتظرون الفرصة المواتية، وكان الكلبيون ـ كغيرهم من اليمنية ـ ذوى شره للمال وعسف فى جمعه. وقد اشتد «سحيم الكلبى» شدة خاصة، فألزم النصارى فى الأندلس بدفع جزية مضاعفة، فغير ذلك قلوب ونفوس أهل البلاد الأندلسية، وبدأ القلق يعم جنباتها من كل وجه.

وفى ولاية «عبيدة بن عبد الرحمن السلمى» لإفريقية (وهو قيسى) انقلبت الآية، وتوالت على الأندلس سنوات قيسية، لقى الكلبيون اليمنيون خلالها بلاءً شديدا. وقام بالأمر خلالها «حذيفة بن الأحوص» وهو قيسى، و«عثمان بن أبى نسعة الخثعمى»، و«الهيثم بن عبيد الله الكنانى»، و«محمد بن عبد الله الأشجعى»، واستمر حتى ١١١ هـ. وقد اشتد الوالى قبل الأخير ـ الهيثم بن عبيد الله الكنانى ـ مع اليمنيين، لدرجة أثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية. وقد بلغ من شدته أن أنكر الخليفة هشام بن عبد الملك عليه ذلك ـ رغم قيسية الخليفة ـ وعزله وعاقبه عقابا صارما.

ومنذ عهد ولاية الهيثم هذا، تبدأ فى الأندلس خصومة القيسية واليمنية الصريحة الخطرة، التى سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام فى الأندلس خاصة والمغرب عامة. وفى هذا الوقت انشغل المسلمون بالحرب فيما وراء البرانس، إذ استمرت جهودهم بعد مقتل «السمح بن مالك الخولانى»، ووصلت جيوشهم إلى قريب من «أفينيون»، وكانت «أربونة» عاصمة الهيثم بن عبيد الله الكنانى يقيم فيها معظم وقته. ولم يقع فى عهود هؤلاء الحكام إلا ثورة «بلاية» بلاى، زعيم القوط فى نواحى «أشتريس»، وهى ثورة خطيرة، تُعيّن بدء المقاومة الإسبانية، وكان ذلك فى ولاية عنبسة بن سحيم ـ وهو كلبى يمنى.



ح - عبد الرحمن الغافقى:

وفى صفر سنة (١١٢ هـ - ٧٣٠م) ثم تعيين «عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى» على الأندلس، وكان «عبد الرحن الغافقى» هذا من كبار رجال جند الأندلس، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغزو ما وراء البرانس. وكان قد أقامه الجند قبل ذلك على الأندلس، مدة لم تزد على شهرين، قبل قدوم «عنبسة بن سحيم الكلبى».

ولولاية «عبد الرحمن الغافقى» على الأندلس، سمة خاصة، لا نلمسها عند أحد ممن سبقه، فقد كان حكمه أندلسيا، كل همه إقرار الأمر والأمن فى البلاد، وموالاة الفتح فيما وراءها.

والحقيقة، أن عبد الرحمن الغافقى، يعد من الشخصيات المحمودة فى التاريخ العام والإسلامى معا، ويذهب البعض إلى أنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين، وأفضلهم، وأخلصهم بالنسبة للأندلس. وهم لا شك غير مبالغين فيما ذهبوا إليه. فعبد الرحمن الغافقى، من طراز القادة والحكام العظماء الأكفاء. وهو من «غافق» - إحدى بطون كهلان اليمنية - ويبدو أنه كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس؛ لأن ولاية الغافقى لقيت رضا كل المسلمين بالأندلس (عربا وبربرا).

لكن التوفيق جانب هذا القائد العظيم الفذ، فى غزوته الكبرى التى أراد بها فتح «غالة» - فرنسا الحالية -، رغم ما حشد لهذه الغزوة من عتاد وجهد. حيث استشهد هو ونفر من رجاله عظيم، عند «بواتييه» فى رمضان (١١٤هـ - ٧٢٢م). وفى نفس الوقت لا يمكننا قبول رواية «ابن حيان» الواردة فى نفح الطيب للمقرى، الذى بالغ فيها، حين زعم أن أحدا من جيش الغافقى، لم ينج من هذه الموقعة؛ لأنه ليس من المعقول أن يقتل من المسلمين سبعون ألفا، ثم لا تختل أحوال الأندلس كلها عقب ذلك وينصرم على المسلمين عقدها. وحقيقة الأمر أن عددا عظيما من المسلمين عاد إلى الأندلس قبل الموقعة مستوحشا من طول الشقة، فلما فاجأ العدو جنود المسلمين بقيادة الغافقى، ألفاه فى قلة من الجند، فاستشهد الغافقى وبعض من كان باقيا معه من الجند.

ولقد كان لهذه الهزيمة التى وقعت بجند عبد الرحمن الغافقى فى بواتييه، وقع شديد فى نفس الخليفة «هشام بن عبد الملك». فقد وردت إليه أنباؤها بعد فشل أخيه «مسلمة بن عبد الملك» فى اقتحام أسوار عاصمة الروم «القسطنطينية»، بأربع عشرة سنة، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معاقل المسيحية الكبرى شرقا وغربا، فساءه ذلك. وأخذ يفكر تفكيرا جادا فى علاج هذا الموقف، وتقوية جبهة الإسلام فى القسم الغربى من الدولة الإسلامية (المغرب والأندلس). ويحتمل أن يكون قد خشى على مسلمى الأندلس، بعد أن استشعر قوة النصارى بعد «معركة توروبواتييه».

ط - متاعب الحكم الإسلامى فى المغرب والأندلس:

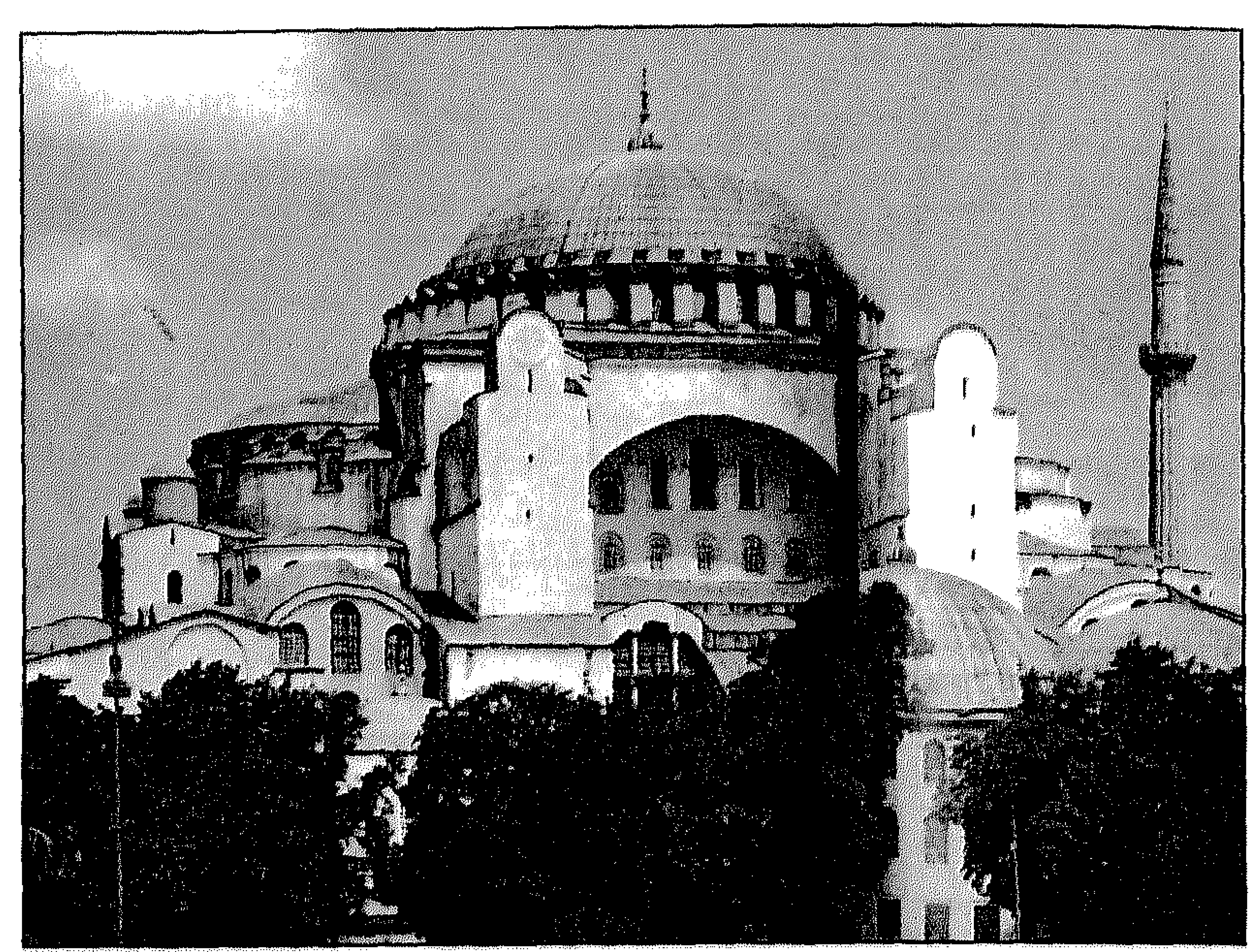
تولى «عبيد الله بن الحبحاب» سنة (١١٦هـ - ٧٣٤م) ولاية المغرب، فى وقت كان يعانى فيها. إذ ذاك من أزمة سياسية واجتماعية حادة. بسبب رواسب أعمال «موسى بن نصير» وابنه «عبد الله» المتعسفة مع البربر. وأصبح «ابن الحبحاب» واليا على إفريقية والأندلس معا، أى أنه يحكم غرب الدولة الإسلامية كله، من حدود مصر الغربية إلى البرانس. ولا شك فى أن إسناد هذه المساحة الشاسعة (نصف الدولة) إلى عامل واحد، يعتبر خطأ فادحا فى حد ذاته. هذا فضلا عن عدم كياسة «ابن الحبحاب»، حتى يمكنه إدارة هذا الصقع الممتد.

وكان كل ما عمله هو تقسيم هذه البلاد بين بنيه وأنصاره، فجعل ابنه «إسماعيل» على «إقليم السوس»، و«عبد الرحمن» على مغازى السودان، وعلى «طنجة» «عمر بن عبد الله المرادى»، وعلى الأندلس «عقبة بن الحجاج السلولى»، بينما احتفظ هو بإفريقية ليكون قريبا من المشرق.

وابن الحبحاب هذا قيسى متعصب للقيسية وللعروبة، وقد انعكس ذلك على تصرفاته، وعلى إدارة الحكم. وهذا المسلك المتعسف مع البربر ومع كل غير عربى بصفة عامة من جانب ابن الحبحاب وأنصاره، كان له أثره الكبير فى شحن نفوس البربر بالثورة، التى لم يدرك ابن الحبحاب شرها فى بدايته لعدم كياسته، مقدرا ـ تقديرا خاطئا ـ أنهم لن يستطيعوا فعل شىء.

ويبدو أن نجاح ابن الحبحاب فى إخماد ثورة أهل مصر قبل ذلك هون عليه أو فى نظره، شأن غيرهم من الشعوب غير العربية التى كانت تحت حكمه. كما تورط ـ أكثر من هذا ـ بقراره اعتبارهم فيئا للمسلمين سواء من أسلم منهم أو من ظل على دينه. فهو بذلك يكون قد وضعهم فى موضع العبيد المملوكى الرقاب. إذ أمر عماله بحصر خُمس البربر واعتبارهم رقيقا. وهذا هو عين العسف والعنت. فهؤلاء البربر قوم أسلموا، ومنهم من شارك الجيوش الإسلامية، فى الفتوح الإسلامية وأُدرج اسمه فى ديوان الجهاد. فكيف يُعتبر بعد ذلك رقيقا...؟. ومما زاد الأمر سوءا تعصبه اللانهائى لقيسيته. فوضع غير القيسية موضع الدنية، يستوى فى ذلك العرب والبربر ماداموا غير قيسيين. وكان هذا التصرف وأمثاله مما هيأ أرضا خصبة لدعاة الثورة والخروج على ممثل الدعوة الإسلامية، وليس على مبادئ الإسلام ذاتها. ولم يلبث هؤلاء القوم ـ الدعاة ـ أن قلبوا المغرب كله رأسا على عقب، وانضمت لهم كبريات القبائل المغربية البربرية، وأهمها زناتة وصنهاجة.

ولقد كانت «ثورة ميسرة» سنة (١٢٢هـ - ٧٣٩م) من أهم الثورات الخارجية. فاستولى على طنجة وقتل عاملها «عمر بن عبد الله المرادى»، وانضم إلى صفوف ميسرة «عبد الأعلى بن جريج الأفريقى» وأتباعه الأفارقة وموالى بنى نصير، فأقامه ميسرة على طنجة. وسار هو ـ أى ميسرة ـ



كنيسة آيا صوفيا فى عاصمة الروم (القسطنطينية) التى تحولت إلى مسجد آيا صوفيا بعد الفتح

إلى «السوس»، واستولى عليها وقتل واليها «إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب». وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد بنى أمية، وتحرج موقف ومركز ابن الحبحاب، كما ساء مركز المسلمين أيضا فى الأندلس. وقد ادعى ميسرة الخلافة وتسمى بها وبويع عليا. وأذهب النصر بصوابه ولبه، فأساء السيرة فى جماعته فقتلوه، وتولى بدله «خالد بن حميد الزناتى»، وكانخيرا وأقدر من ميسرة، وكان ذلك فى (١٢٢هـ/ ٧٣٩ - ٧٤٠م).

ولما تحرج مركز ابن الحبحاب فى إفريقية، بعث يستنجد بـ«عقبة بن الحجاج السلولى» عامل الأندلس، فأسرع عقبة لنجدته لكنه لم يستطع، فعاد أدراجه. وجيَّش ابن الحبحاب جيشا كثيفا ووجهه إلى قتال الخارجى «خالد بن حميد الزناتى»، واقتتل الفريقان، ودارت الدائرة على جيش ابن الحبحاب، الذى كان يقوده «خالد بن أبى حبيب» وقُتل خالد هذا نفسه، وكذلك من كان معه بحيث لم يبق منهم أحد. وقد اتهم «ابن الحبحاب» بعض عرب إفريقية، بالتسبب فى هذه الهزيمة. وكانت منهم جماعة تقيم فى تلمسان برئاسة «موسى بن أبى خالد»، الذى قبض عليه «ابن الحبحاب»، وقطع يده ورجله، ثأرا لمقتل ابنه «إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب».

وقد تسبب هذا التصرف من ابن الحبحاب فى ثورة قامت عليه من الأفارقة جميعا، حتى اضطر الخليفة «هشام بن عبد الملك» إلى الإسراع بعزل عامله «ابن الحبحاب» وتعيين غيره فى شهر



«جمادى الأولى سنة (١٢٣هـ - ٧٤١م)، وكان هذا العامل الجديد هو «كلثوم بن عياض القشيرى» - وهو قيسى متعصب -. وقد عول كلثوم هذا على محاربة الأفارقة حتى النهاية، سواء كانوا عربا أو بربرا. كان جيش كلثوم نحو ٤٠ ألفا، أو (٢٧ ألفا حسب رواية أخرى) من الشاميين.

والحق أن العلاقات بين هؤلاء العرب الأفارقة وبين البربر من أهل البلاد لم تكن على ما يرام، فالعرب لم يكونوا مطمئنين للبربر بعد هذه الحرب الطويلة بين الجانبين أيام الفتح. كما أن العرب الأفارقة عدوا أنفسهم سادة البلاد وأهلها، وعماد الحكام وولاتهم على النواحى؛ ولذلك كرههم البربر وحملوهم تبعات مظالم هؤلاء الحكام، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى من اليمنية منذ أيام موسى بن نصير وبنيه، وجدنا غالبيتهم من القيسية.

وكان الفريقان متعاديين؛ لهذا كان طبيعيا أن تكون ثورة البربر فى إقليم طنجة، إيذانا بثورة عارمة جديدة من البربر جميعا على من بين أظهرهم من العرب، سواء كانوا من رجال الدولة وجندها، أو عربا مستعربين مسالمين.

وبدلا من أن يرحب عرب شمال إفريقية، بمقدم هذا الجيش الذى وفد لمساعدتهم، فإنهم أوجسوا منه خيفة؛ ذلك أن عرب شمال إفريقية كانوا من الحجاز، وبالذات من يثرب (مدينة الرسول الكريم)، بينما كان الجيش مكونا من عرب الشام. وبين هؤلاء وأولئك ثارات قديمة، ترجع إلى أيام «وقعة الحرة»، التى ضرب المدينة فيها «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان» وذلك سنة ٦٣هـ. كما أن عرب شمال إفريقية رأوا أن امتلاك المغرب حق لهم وقد قاموا بفتحه، وخشوا أن يشاركهم هذا الحق عرب الشام.

لكن ما هو أخطر من هذا وذاك، كان هو تهديد البربر للعرب عموما، مما دفع بعرب الشام وعرب أفريقية إلى التسامح والتصالح - ولو على دغل - لكى يتسنى لهم مجابهة الخطر البربرى. والتقى الفريقان العربى والبربرى، سنة ١٢٤هـ فى «وادى سبو».

لكن البربر هزمتهم هزيمة نكراء، ولم ينج كلثوم بن عياض القشيرى إلا جريحا وبصعوبة بالغة، بينما فرت فلول جيشه إلى مدينة «سبتة»، حيث تحصنوا بها وحاصرهم فيها البربر، فاستنجدوا بعرب الأندلس، فلم يجيبوهم فى بادئ الأمر، ثم لبوا نداءهم وسمحوا لكلثوم وجيشه بالعبور إلى الأندلس، ليؤازروهم ضد البربر بالأندلس، الذين كانوا يحقدون على العرب غطرستهم وتعاليهم، واستئثارهم بخيرات البلاد، فعبر العرب الشاميون المجاز «مضيق جبل طارق» ليحاربوا مع عرب الأندلس، تحت قيادة واليها العربى «عبد الملك بن قطن الفهرى» ضد البربر، على أن يعودوا فور انتصارهم من حيث أتوا، ووافق كلثوم وعبر بجنده إلى الأندلس، وأخذ منهم

عبد الملك رهائن ليضمن تنفيذ شروطه، وسار الفريقان معا فقضوا على البربر فى الأندلس.

ى - عن الخلاف بين العرب:

لم يُوف العرب الشاميون بالشرط الذى قطعه عليهم «عبد الملك بن قطن الفهرى»، بالعودة إلى إفريقية؛ لانبهارهم بخيرات الأندلس. ولم يكتفوا برفض العودة إلى إفريقية، وإنما وثبوا على «عبد الملك بن قطن الفهرى»، فعزلوه، وولوا مكانه زعيمهم «بلج بن بشر القشيرى» على إمارة الأندلس، وفضلا عن ذلك قتلوا «عبد الملك بن قطن الفهرى» إذ سلمه إليهم بلج بن بشر القشيرى - مضطرا - فقاموا بقتله.

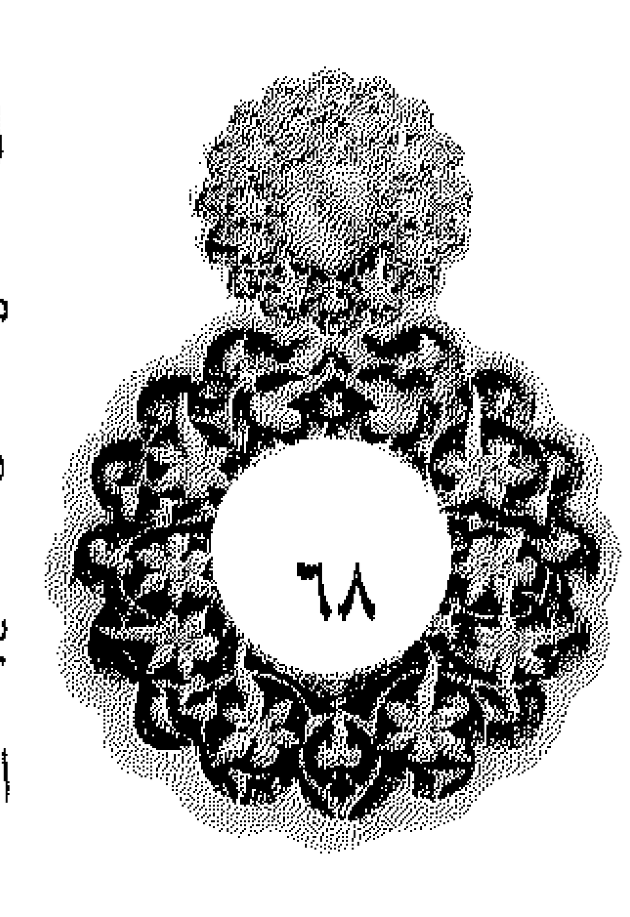
ولقد ثار البلديون من عرب الأندلس، لمقتل «ابن قطن» ونشبت الحرب بين الفريقين، فلما سمعت الخلافة الأموية، باضطراب الحال بالأندلس وسوئها، عينت عليها واليا قويا وشاعرا عظيما هو «أبو الخطار بن ضرار الكلبى»، وهو من قبيلة كلب اليمنية، التى نصرت بنى أمية فى معركة «مرج راهط»، ضد الزبير بن العوام، ثم انقلبت الآية حين آل الحكم الأموى إلى بنى مروان، الذين قربوا إليهم مضر، وولوهم مناصب الدولة دون الكلبيين؛ لذلك جاء تعيين «أبى الخطار» ترضية لنفوس الكلبيين فى شخصه.

وكانت بداية حكم أبى الخطار للأندلس طيبة، فقسَّمها: كورا، جعل بكل منها مجموعة من العرب، فأنزل عرب الشام كُور البيرة وأشبيلية وجيان؛ لذا سميت كورة البيرة «كورة دمشق»، ونزل بها جند دمشق، وسميت كورة أشبيلية باسم «حمص» نسبة إلى ما نزلها من جند حمص، وسميت كورة جيان باسم «جند قنسرين» نسبة لجند قنسرين الذين نزلوها.

وكان أبو الخطار يهدف من وراء سياسة كهذه إلى تسكين النفوس، والقضاء على مظاهر الفرقة والاضطراب والبغضاء.

لكن النتيجة التى أرادها «أبو الخطار» لم تتحقق، بسبب تحول أمر الخلاف بين المضرية واليمنية - وهو خلاف إقليمى - إلى أن أصبح خلافا جنسيا قبليا، جرَّ على الوجود الإسلامى عامة وفى الأندلس خاصة، الكثير من النكبات والويلات.

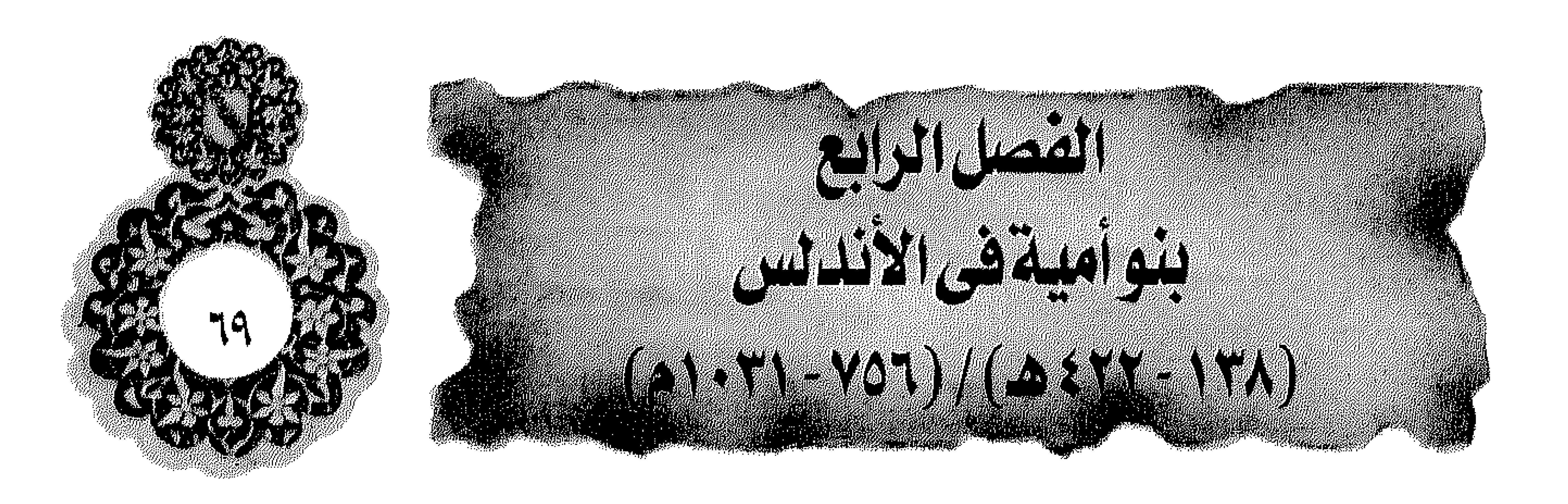
ولقد وقعت الحرب بين اليمنية بقيادة «أبى الخطار» والمضرية بقيادة «الصميل بن هشام بن ذى الجوشن»، ودرت المعركة بين الطرفين فى قرية غربى قرطبة تسمى «شقندة»، انتهت بنصر مؤزر



لليمانية وتراجع للمضرية بقيادة الصميل بن هشام إلى مدينة «سرقسطة» ـ وهى من ثغور الأندلس الحصينة ـ وحاصره أبو الخطار وجنده فى سرقسطة، فخرجت قوة مضرية لنجدته ـ أى نجدة الصميل وجنده ـ وفك حصرهم. وكان بهذه القوة نحو ٣٠٠ (أو ٣٠ ـ حسب رأى آخر) مولى أمويا، كانت غايتهم التفاوض مع الطرفين المضرية واليمنية ـ على إيواء «عبد الرحمن الداخل بن معاوية الثانى» فمن قبل إيواءه نصروه على خصمه.

وكان عبد الرحمن الداخل هذا، قد تمكن من الفرار من مقصلة بنى العباس التى نصبوها لبنى أمية، فلما رأى ما فى الأندلس من خلاف، شعر بأن الفرصة سانحة هناك ـ فى الأندلس ـ لإقامة ملك أموى فيها.

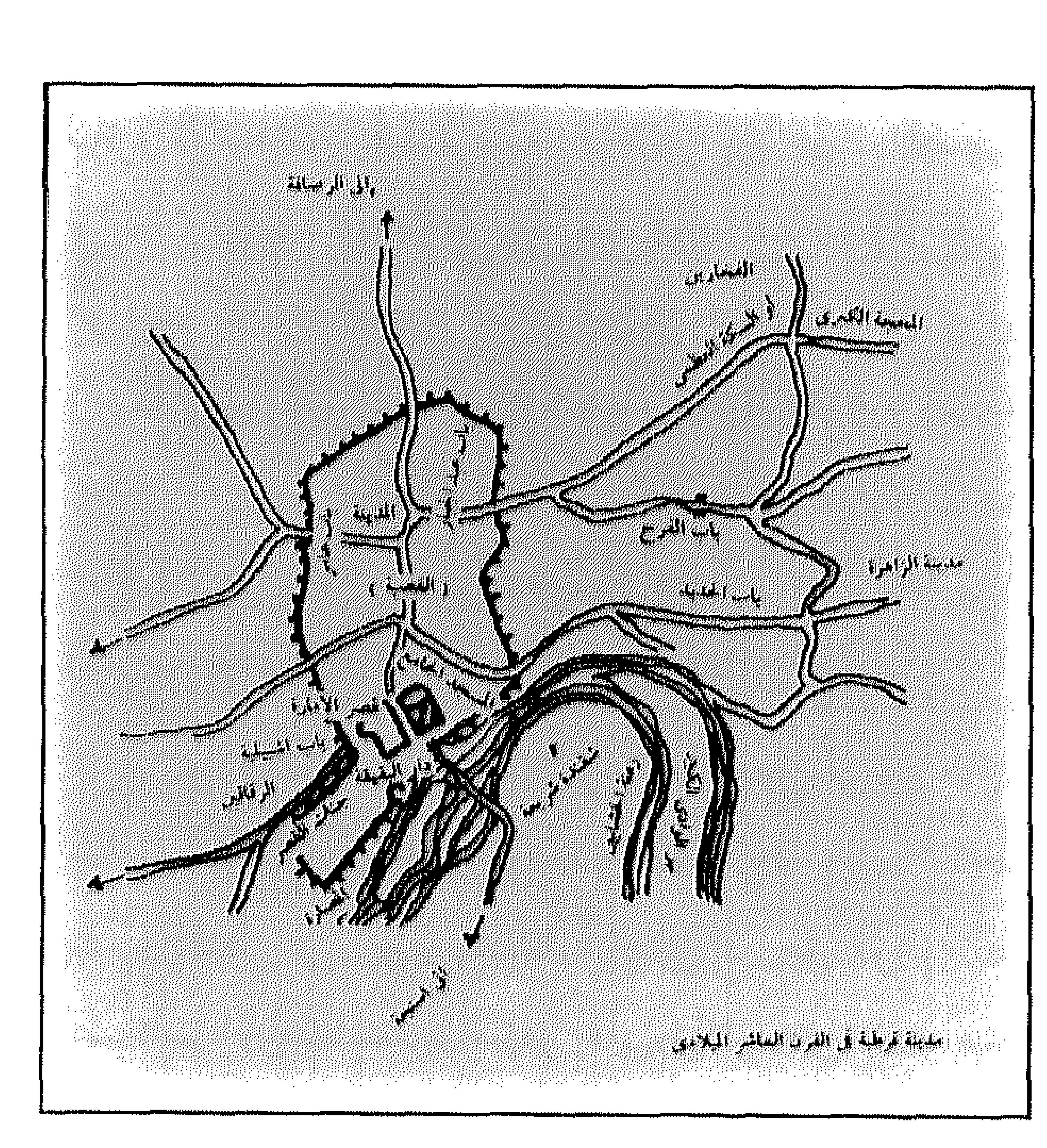
قبة القصر – أشبيلية



تقلص سلطان العباسيين عن بلاد الأندلس؛ ذلك أن أهل تلك البلاد ولوا عليهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى (المضرى) سنة ١٣٩هـ، واستمر يوسف على عمل الأندلس، حتى غلب عليه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام. وكان عبد الرحمن هذا قد أفلت من أيدى العباسيين إبان حملة الإبادة التى تعرض لها بنو أمية عقب قيام دولة بنى العباس، وهرب عبد الرحمن للأندلس وأسس بها دولة عَمَّرَتْ زمنا، وأقامت حضارة زاهرة كانت منبعا غنيا للحضارة الأوروبية الحديثة.

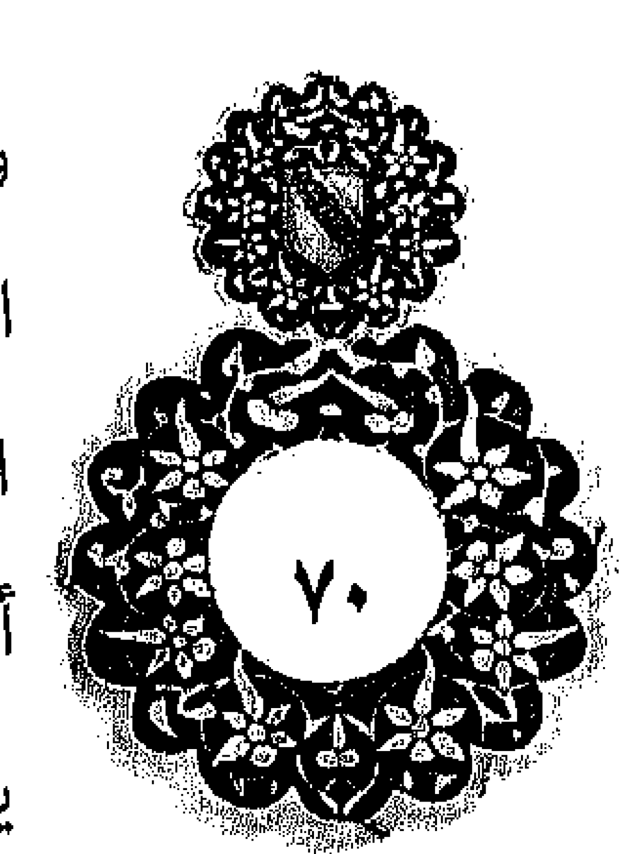
والحق، إن عبد الرحمن الداخل هذا واجه الكثير من الصعاب والأهوال وهو فى طريقه للأندلس، وخاصة أن العباسيين كانوا يطاردونه فى كل مكان، وأخيرا تستر عند جماعة من زناته فأحسنوا إليه وآووه، ويقال أنه قصد أخواله فى نفزاوة. منها ظل يراسل الأمويين فى الأندلس، ويدعوهم لنفسه مستعينا بغلامه بدر.

وقد استغل عبد الرحمن الداخل انقسامَ المسلمين فى الأندلس، وسوء الأحوال الاقتصادية، فدخل البلاد فى ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ وألف حوله قبائل اليمن الحانقة على يوسف الفهرى، وبذلك تمكن من السيطرة على بلاد الأندلس، ودخل قرطبة وقضى على سلطة واليها الفهرى.



خريطة مدينة قرطبة الإسلامية

والحق أن نجاح عبد الرحمن الداخل كان غُصَّة فى حلوق بنى العباس وبخاصة الخليفة أبو جعفر المنصور الذى بعث سنة ١٤٦هـ بالعلاء بن مغيث اليحصبى بجيش لمحاربة عبد الرحمن.



ولكن العلاء هزم فى نواحى أشبيلية وقتل مع آلاف ممن معه، وبعث عبدُ الرحمن برأسه ورؤوس جماعة ممن كانوا معه إلى القيروان ومكة التى كان بها المنصور العباسى. وهنا أدرك الخليفةُ العباسى أنه لا قِبَلَ له «بصقر قريش» كما أطلق عليه هذا الخليفة العباسى نفسه. وكان الخليفة المنصور العباسى كثيرا ما يشيد بعبد الرحمن الداخل هذا.

ولما أيقن المنصور بعجزه عن مواجهة عبد الرحمن الأموى، حاول أن يستعين عليه بملك الفرنجة «بيبن» (Pepin)، لكنه لم يصل إلى ما ينشده، بل إن مسعاه هذا ولَّد فى نفس عبد الرحمن الداخل مرارة وخوفا من أن يشن الفرنجة عليه هجوما، وحتى لا يكون عبد الرحمن فى مواجهة مع عُدوَّيْنِ فى وقت واحد، فإنه لم يظهر عداءه للخليفة العباسى المنصور. وبذلك استطاع المنصور أن يُجَمِّدَ ـ ولو وقتيا ـ نشاط عبد الرحمن الأموى المضاد للدولة العباسية. وكانت هذه السياسة التى وضعها المنصور نموذجا أو أساسا احتذاه من أتى بعده من بنى العباس.

غير أن الدول الأجنبية التى كانت تهاب الدولةَ الإسلامية، أصبحت الآن، وقد انكشف الأمر عن تصدع فى الجبهة الإسلامية ضدها، تنظر نظرة أخرى للدولة العباسية منذ خلافة «المهدى العباسى»، الذى سلك نفس نهج والده المنصور. وفى نفس الوقت كان عبد الرحمن الداخل يفكر فى غزو بلاد الشام وأخذها من بنى العباسى، ولم يمنعه من تنفيذ ذلك التفكير سوى الحالةُ الداخليةُ للأندلس وقتذاك؛ ولذلك اكتفى كل منهما بمعاداة الآخر. ثم أرسل المهدى بجيش ليغزو الأندلس بقيادة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ويأخذها من عبد الرحمن الداخل، لكن سليمان بن يقظان عامل برشلونة هزم الفهرىَّ وقواته، وطارد عبدُ الرحمن كلَّ جندِ الفهرى وأحرق مراكبه الراسية ليحول بينه وبين الهرب. فلما رأى ابن حبيب الفهرى ذلك، تحصن فى «بلنسية» وصمد لبنى أمية، حتى أرهبهم. ولولا أن عبد الرحمنَ نادى بمكافأة من يأتيه برأس الفهرى، لما أمكنه التخلص منه بالمواجهة المباشرة معه؛ ذلك أن رجلا من البربر اقتفى أثره حتى تمكن من قتله غيلة وحمل رأسه إلى الأموى، وهكذا فشل المهدى أيضا فى مواجهته، مع بنى أمية بالأندلس، ولم ينجح فى إعادتها إلى حظيرة الخلافة العباسية.

وكان عبد الرحمن الأموى قد جعل قرطبة عاصمة لحكم بنى أمية، وبنى بها قصرا ومسجدا جامعا، وقطع منها الدعوة لبنى العباس، وجدد ما طُمِرَ لبنى أمية من ملك بالمشرق، وكان يهتم بنفسه بالنظر فى أمور رعاياه، حتى إذا حل موعدُ الطعام دعا إلى مائدته أصحابَه ومن قَصَدَه من أصحاب الحاجات، واستمر على ذلك حتى مات سنة ١٧٢هـ تاركا خلفه عشرين ابنا (١١ ذكرا و٩ إناث).

أ - هشام الأول (١٧٢ - ١٨٠هـ):

تولى حكمَ الأندلس بعد عبدالرحمن ابنه «هشام الأول» (١٧٢ - ١٨٠هـ). وكان أبوه قد عَهِدَ إليه بالإمارة من بعده، وأعده لهذه المهمة، وكان يأنس فيه الحزم ويثق فيه، وقد شبهه «المقَّرى» بالخليفة «عمر بن عبد العزيز» فى عدله واهتمامه بشئون المسلمين. وقد صرف كل جهده فيما يعود على البلاد والرعية بالخير والرفاهية، إذ عنى بالعمران، «وإقامة القناطر والسدود، والمساجد. كما اهتم بنشر اللغة العربية حتى فى مدارس اليهود، وبلغ من تواضعه أنه اختلط بالرعية، وطاف شوارع «قرطاجة» يتحسس أحوالَ الناس وينظر فى مطالبهم، ويشهد الجنائز معهم، وظل على ذلك إلى أن توفى سنة ١٨٠هـ. وكان خلال حياته وحُكْمِه من أهلِ الخير والصلاح، كثيرَ الغزو والجهاد.

ب - تولى الحكم الأول بن هشام الأول بن عبد الرحمن الداخل (١٨٠ - ٢٠٦هـ):

حكم الأندلس وكان عكس والده، فأقصى الفقهاءَ عن أمور الدولة، وجعل عملهم مقصورا على القضاء والشعائر فقط، فثاروا عليه وسبُّوه وحرضوا العامة على الثورة. ومما زاد فى حُنْقهم عليه استخدامُه المماليك المرتزقة حرسا له، فعاثوا فى الطرقات وثار المولّدون والإسبان الذين اعتنقوا الإسلام فى قرطبة وطليطلة. وقاد الفقهاء ثورة قرطبة الفقهاء بزعامة يحيى بن يحيى الليثى، وطالوت الفقيه، فخلعوه وبايعوا أحدَ أفراد أسرته وكانوا بالربض الغربى لقرطبة. لكنه تغلَّب عليهم وأَوْقع بهم تنكيلا رهيبا، فُسمِّىَ «الحكمُ الربضى» نسبة لهذه الحادثة، أما الربضيون فساروا إلى مصر، ثم هاجروا بعدها إلى كريت فظلوا بها حتى مَلَكَها الروم منهم.

وقد خرج على الحكم الربضى عماه واستوليا على طليطلة وبلنسية. واستعان أحدهما بشارلمان، لكن الحكم انتصر عليهم واسترد منهم ما أخذوه، وانتهز الأمراءُ المسيحيون، فى شمال إسبانيا، فرصة هذه الحرب الأهلية، وأغاروا على ولاية «أرجونة»، لكن الحكم هزمهم، وهزم والى برشلونة أكبر معاقل المسلمين، الذى استعان بشارلمان فأرسل جيشا استردها.

ومما ذكره عنه ابن خلدون أن الحكَمَ الربضى، كان أول من جنَّد الأجناد المرتزقة بالأندلس وجَمَعَ السلاح والعدد، واستكثر من الحشم والخدم، ورابطت الخيول على بابه، واتخذ المماليك، الذين سماهم الخُرْسَ لعُجْمتهم - خمسة آلاف، وباشر بنفسه الأمور، وكان له عَسَسٌ يطالعونه بأحوالَ الناس، وكان يُقَرِّبُ الفقهاءَ والعلماءَ الصالحين، وهو الذى وطَّأَ المُلْكَ لعقبه بالأندلس.

وقد أفاد شارل مارتل (المطرقة) من الخلاف العباسىّ الأمويّ، فتقرب للمهدى العباسى، ليهدد منافسه الإمبراطور البيزنطى، وقد جنى مارتل من سياسته تلك محبة «هارون الرشيد» وأرسل شارلمان إلى هارون الرشيد، وفدا من رجلين من النصارى ويهودى، لتيسير سبيل الحج



مسجد قرطبة

بلاطات عبد الرحمن الداخل بمسجد قرطبة



لبيت المقدس، ونشْرِ التجارة بين البلدين. والحصول على علوم الشرق. وقد لقيت رغبةُ شارل صدى فى نفس هارون؛ لأنه كان يريد التقوِّىَ به فى مواجهة الروم وإمبراطورهم كما يتخذه سندا فى عدائه للأمويين بالأندلس.

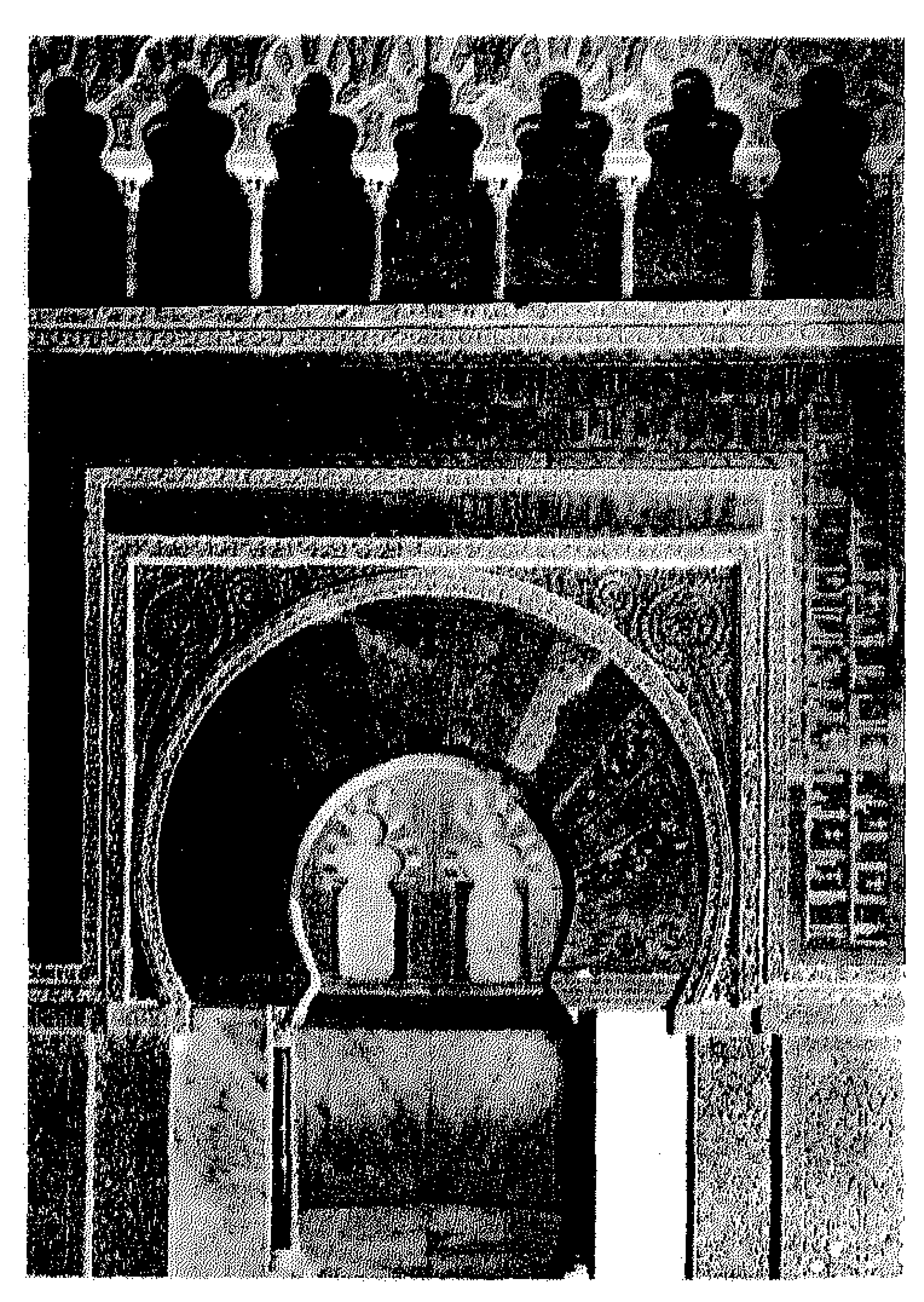
ولكن تلك الوفود، لم تؤد إلا إلى إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شارلمان، وتبادُلِ الهدايا بينه وبين الرشيد. ولا غرو، فقد أصبح شارلمان حامى المسيحيين الذين يفدون للأراضى المقدسة للحج. مما سيؤدى إلى نتائج خطيرة فى المستقبل، إذ صار لملك الفرنجة حقٌّ حماية الحجاج المسيحيين فى الأراضى المقدسة أثناء أدائهم للحج، وتبودلت الهدايا بين العاهلين.

ج - عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ):

تولى عبد الرحمن الأوسط (الثانى) حكمَ الأندلس سنة ٢٠٦ هـ. وقد تميز عهده بالاستقرار وكثرة الأموال والخيرات، كما كثرت القصور والمتنزهات فى عهده، وجلب المياه إلى قرطبة من الجبال، وأقام الجسور، واختط الشوارع، وزاد جامع قرطبة، وأنشأ العديد من المساجد فى كثير من مدن الأندلس، وجعل بجانب كل مسجد مدرسة ومستشفى، وأصلح الطرق الرومانية القديمة، وشجع العلوم والآداب فازدهرت الأندلس أيامه. حتى نافست الأندلسُ فى عهده الدولةَ العباسية فى علو الشأن والنهضة العلمية. وكان عبد الرحمن الأوسط من أكثر أمراء الأندلس على الإطلاق أبهة فى بلاطه. وكذلك كانت حاشيته التى اتسمت بسمات عربية كريمة، يرجع الفضل فيها إلى زرياب الذى قدم سنة ٢٠٦ هـ من العراق للأندلس، ورحب به عبد الرحمن الأوسط وأكرمه وأنزله منزلة كريمة.

كذلك من أهم ما اتسم به عهد «عبد الرحمن الأوسط» السماحةَ الدينيةَ التى عومل بها أهلُ الذمة، حتى أن المسيحيين منهم، كثيرا ما حاربوا إلى جانب المسلمين، وارتقوا المناصب الكبيرة فى الدولة، واعتنق الكثير منهم الإسلام.

غير أن هذه المعاملة الحسنة التى لقيها المسيحيون لم يقنع بها بعضُ القسس، وطفقوا يثيرون الفتن فى أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط، فحرَّضُوا المسيحيين على سب الرسول ﷺ. مما دفع عبد الرحمن الأوسط إلى قتل الكثير من القسس والمسيحيين الذين سبُّوا الدين ورسوله، تطبيقا منه لمبدأ «سب الدين جريمة يُعاقَبُ مرتكبها بالقتل». وكان ممن قتل من القسس «يولوجيوس» الذى حرض النصارى على التمرد على الحكم الإسلامى مصورا لهم ذلك على أنه تضحية، وقد ساعده فى ذلك «الفارو» الشاب القرطبى، وقسيسٌ آخر هو «برفكتوس» وغيره من القسيسين الذين أعمى التعصبُ بصائرَهم، وكان معهم بعض من النساء مثل «فلورا» التى كانت من أب مسلم وأم نصرانية.



مدخل مسجد عبد الرحمن الأوسط - قرطبة

ويعلق «لينبـول» على هذا التصرف الأحمق من قِبَلِ بعض القسس والمسيحيين الذين ضللتهم دعاية القسس المحرّضين المضلَّلين منتقدا مسلكهم فيقول: «إن المسيحية لا تعلم دعاتها أن يطرحوا بحياتهم هَدَرا لمجرد التمتع بالتعذيب والقتل. على أن نصارى الأندلس لم يُضْطَهدوا، ولم يحَلْ بينهم وبين شعائر دينهم حائل، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر من نصارى الأندلس أنفسهم. وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم؛ لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالجلالة والتبجيل من أظهر مبادئ الإسلام».

وحينما أيقن القسس أن سهمهم طاش وارتد إلى نحورهم، وأن الأمر يتطور بسرعة إلى حركة اضطهاد عامة حقيقية، أصدروا قرارا بتحريم المجاهرة بسب النبى أو القرآن، وبذلك عاد الهدوء ثانية. ومما يذكر أن المسيحيين فى الأندلس كانوا يتكلمون العربية ويكتبون ويؤلفون بها، ولم يعد هناك من يكتب باللاتينية الصحيحة سوى ٠.١٪ وهو ما أثار بولوجيوس أحد القسيسين الحمقى الذين حرضوا على الفتنة.

أما عن الأحداث الخارجية فى عهد عبد الرحمن الأوسط، فقد تعرضت بلاُد الأندلس لغزو (ألفونس) أمير (ليون اشتوريش) شمال غربى الأندلس، وغيره من مسيحيى الشمال، على البلاد الإسلامية الشمالية، لكن جيوش عبد الرحمن ردتهم على أعقابهم خاسرين، ومذعنين لدفع الجزية عن يد وهم صاغرون.

وزادت هيبةُ عبد الرحمن الأوسط وحكومتَه فى عيون حكام الدول المعاصرين له. فأرسل له إمبراطور بيزنطة يهاديه ويطلب عقد معاهدة معه، ورغَّبه فى العمل لاسترداد ملك آبائه وأجداده فى الشرق.

والحق، إن الإمبراطور البيزنطى كان يرغب فى التحالف، مع أمويى الأندلس، ليضرب بهذا التحالف، الوفاقَ الذى تم بين شارلمان ولويس التقى من بعده من جهة والعباسيين من جهة أخرى؛ ولذلك نجد عبدَ الرحمن الأوسط يأخذ دعوة إمبراطور الروم بحذر شديد؛ لأنه كان يدرك الدوافع التى حدتْ بإمبراطور بيزنطة إلى عرض المعاهدة، وتملقه لعبد الرحمن الأوسط.

والحق أن عبد الرحمن الأوسط كان ـ كما قال عنه ستانلى لين بول نَقشىَّ الذَّوْقِ، لين الخلق، سهل القياد، استطاع أن يسيطر عليه أربعة ممن نالوا لديه حظوة كاملة وهم: مغن، وفقيه، وامرأة، وعبدٌ أسود، وكان أشد هؤلاء تأثيرا فيه الفقيه يحيى بن يحيى الليثى، وهو نفسه الذى أثار الفقهاء على أبيه الحكم، أما المرأة فكانت «طروب»، والعبد «نصر» فكانت لهما سلطة نافذة فى شئون المُلْكِ. أما المغنى فكان «زرياب» الذى كانت حظوته عند عبد الرحمن الأوسط، مما

ساعد على نهضة الثقافة والفنون، ولم يزج زرياب بنفسه فى أمور الدولة لما قد يكون فيها من عواقب وخيمة قد تلحقه.

احتفظ مسلمو الشرق الذين استوطنوا الأندلس بتقاليد أجدادهم. ثم أخذت تلك التقاليد تتلاءم مع البيئة الجديدة؛ لاعتناق الأندلسيين الإسلام، واندماجهم مع العرب المسلمين بالمصاهرة. وقد تكونت من الجماعات التى جاءت لإحياء الخلافة الأموية، طبقةُ الشاميين ثم طبقة العرب الذين حضروا الفتح أو جاءوا بعده مباشرة كونوا طبقة البلديين (القوميين).

ولقد كان عهد الحكم الأول بن عبد الرحمن الداخل عهد هدوء سياسى ساعد فيما بعد على خلق نهضة علمية فى عهد الرحمن الأوسط، الذى يعتبر عهده عهد سرور ورخاء وازدهار ثقافى؛ وذلك لتأثير الشرق الإسلامى فى العصر العباسى.

وإذا كان العباسيون لم ينسوا إطلاقا ضَياع هذا الإقليم المزدهر من أيديهم، ولم يتمكنوا من التأثير فى هذا الإقليم سياسيا، إلا أنهم أثروا فيه ثقافيا واقتصاديا، يدلنا على ذلك مثلا أن نظام الحكم فى الأندلس، سار على نفس النهج العباسى المأخوذ عن الساسانيين فى فارس.

ويصف المؤرخ الأندلسى، الرازى - «مخطوطة نشر ليفى بروفنسال» - عصر الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط، فيذكر أن عبد الرحمن الأوسط قسم وقته بين رعاية وتعمير قرطبة وتجميلها، وبين الصيد فى سهول الوادى الكبير، وبين مجالس الأدب والموسيقى. وهذا يدلنا على أنه وضع نظام الدولة الأموية فى الأندلس قبل عبد الرحمن الثالث بنحو قرن، وكان يرسل رسله للشرق الإسلامى. فيصفون له نظام الحكم عند العباسيين، فلا يتردد فى قبوله برغم العداء التقليدى القديم بين بنى هاشم وبنى أُمية.

وهكذا سَمت الحياةُ وتألقّتْ الحضارة فى الأندلس، فأصبحت فى عداد الدول العظمى فى العالمْين الإسلامى والمسيحى وقتذاك. وتأثر المجتمع الأندلسى بتقاليد عراقية غزت الأندلس وامتزجت بالتقاليد الشامية ألّفتْ فيما بينها طابعا أندلسيا أصيلا، تمثلت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر حتى سقوط غرناطة.

ومما يذكر أن عبد الرحمن الأوسط، استجلب إلى الأندلس روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد عند مقتل الأمين بن الرشيد مثل عقد الشفاء، وأعلاق زبيدة بنت جعفر. فيذكر ابن عذارى، و«فى أيامه دخل الأندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء، وسيق ذلك إليه من بغداد وغيرها، وعندما قتل محمد الأمين بن هارون الرشيد، وانتُهِبَ مُلكُه، سيق إلى الأندلس كلُّ نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه، وقصد بالعقد المعروف بعقد الشباب وكان لزبيدة أم جعفر».

د - أحداث خارجية هامة:

على أن الحيـاة لم تصف تماما لـعبد الـرحـمن الأوسط إبان حكمـه للأندلس. فقـد تعرضت البلاد فى حكمـه لغارات النورمان الشمـاليين، الذين نزلوا الأندلس سنـة (٢٠٩ هـ - ٨٢٤م)، وتوغلوا بسـفنهم ـ ذات الأشـرعـة السود ـ فى البلاد أينما يشاءون، ثم أقاموا لهم معسكرات، فيما وقع فى يدهم من بلاد الأندلس، وكانوا يواصلون غـاراتهم السريعة فى البـلاد، فينهبـون منها ما يمكنهم نهـبه ويعودون لإيداعه المعسكر بسرعة، ثم ينقلون غنائمهم، بعد فراغهم من الغارة، إلى السفن الراسية على موانئ الأندلس، فتمضى بها إلى مكان آخر.

وكان من عادتهم ـ أى النورمان ـ أن يستـعملوا النار لإرهاب أعدائهم، وإلقائهم الرعب فى قلوب أهل المدن، فكانوا يشعلون نيرانا حيـثما نزلوا؛ ولذا حسبهم المسلمون مـجوسا (عباد النار) وسموهم فى نصوصهم «المجوس».

وكان أول هجـوم نورمانى على الأنـدلس فى يوم الأربعاء أول ذى الحـجة (٢٢٩هـ - ٢٠ أغسطس ٨٤٤م)، إذ هاجموا شواطئ الأندلس بحملة مـن ٥٤ سفينة حـربية، وعـدد آخر من السفن المساعدة الصغيرة عند نهر تاجه.

فهاجموا لشبونة واحتلوها، وقد استبسل أهلهـا فى الدفـاع عنهـا، مما اضطر الغـزاة إلى التخلى عنها والعودة بسـفنهم. ثم اتجهوا جنوبا فـحلُّوا بكورة أشبـيليـة ونزلوا عند مصب نهـر الوادى الكبيـر، واتجه فـريق آخـر منهم نحـو الجنوب بحـذاء الساحل الإسـبانى، فنزل عند ساحل كورة شذونه، واحتل ثغر «قادس». هذا بينما الفريق الأول بسفـينه رابط عند مصب نهر الوادى الكبير، ثم اتجه نحو أشبيلية.

وفى (١٢ محرم ٢٣٠ هـ - ٢٩ سبـتمبر ٨٤٤م) نزلت هذه السـفن على جـزيرة قـبطيل (الجزيرة الصـغرى)، واحتلت سفنٌ أخـرى قرية قورة، وأغار عليهـا جنود النورمان فنهبوها. ثم نزلت سفنهم بعد ثلاثة أيام على مدينة طليطلة،

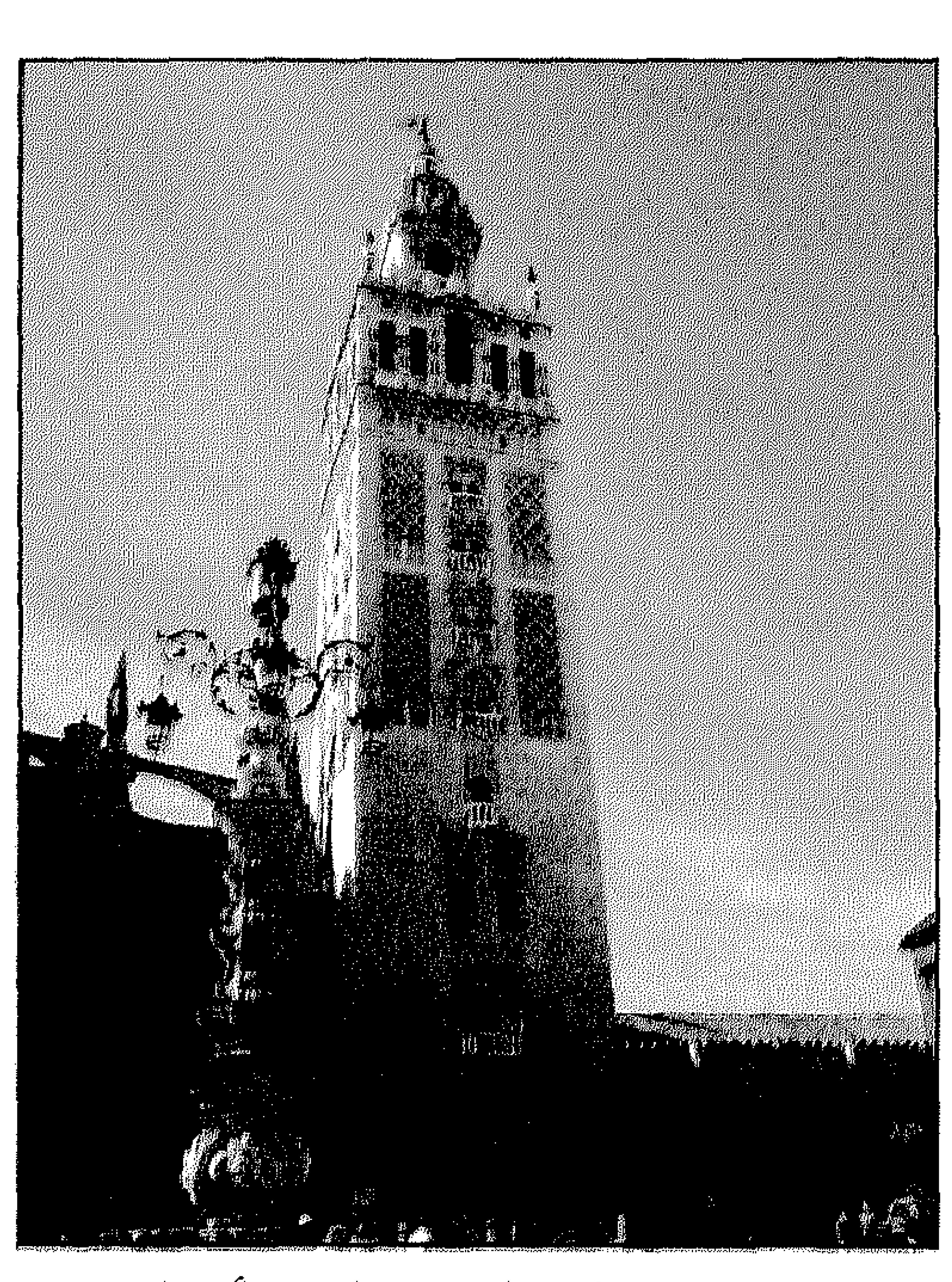


مجالس الطرب فى الأندلس عن كتاب الأغانى للأصفهانى

حيث التقوا بسفن إسلامية من أشبيلية فهزمهم النورمان وقتلوا منهم عددا كبيرا. ولم يعد أمامهم ما يحول دون احتلالهم أشبيلية فاحتلوها فى يوم الأربعاء ١٤ محرم سنة ٢٣٠ هـ قَسْرا وأحرقوا المسجد الجامع فى أشبيلية. ويعلق ابن عذارى على هذه الغارة فيقول: «وجعلوا يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الصبيان». وبقوا بأشبيلية سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحِمَام».

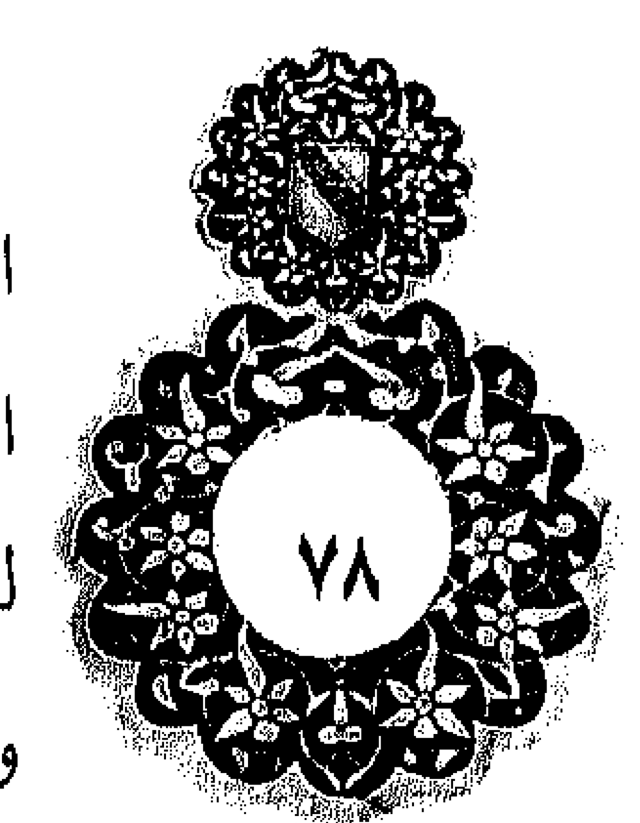
وإزاء هذه المصيبة التى حلت بالمسلمين فى أشبيلية وطليطلة وغيرها على أيدى النورمان فى هذه الفترة (٢٢٩ - ٢٣٠هـ)، لم يكن أمام الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلا أن يحشد جيوشه، ويستنفر أمراء المسلمين بالأندلس ويَحثُّهم على النهوض لمقاتلة أعداء المسلمين. فتوافدوا إلى قرطبة، وخرج بهم «نصر الفتى». والتحم الفريقان فى قتال دام عشرة أيام تقاتلوا فيها مع المسلمين فى طليطلة وأشبيلية وشذونة وقادس، كل ذلك وحملات عبد الرحمن الأوسط وإمداداته تتوالى على قواته برا وبحرا، فداهموهم ونصبوا المجانيق عليهم... فانهزم المجوس وقُتِلَ منهم خمسمائة علج... وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها، فأمر «ابن وسيم (ورد عند عبد الأثير سالم «محمد بن رستم») القائد المسلم بإحراقها وبيع ما فيها من «الفيء».

وقد تعددت روايات المؤرخين المسلمين حول هذه المعارك بين النورمان والمسلمين، لكنهم رغم خلافهم فى التفاصيل إلا أنهم أجمعوا على أن الخسارة والهزيمة التى حلت بالنورمان على أيدى المسلمين كانت فادحة. ولقد كانت الدائرة عليهم بقرب طليطلة فى ٥ صفر سنة (٢٣٠ - ١١ نوفمبر ٨٤٤م)، حيث «قُتِلَ لهم خلقٌ كثير، وأُحرِقَ من مراكبهم نحو ٣٠ مركبا، وعُلِّقَ من المجوس بأشبيلية عددٌ كبير منهم فى جذوع النخيل، وتشفى الناس بقتلهم، وقتلوا أميرهم، وركب سائرُهم مراكبَهم وساروا إلى لبلة ثم أشبونة فانقطع خبرهم».



الخير الدا - مئذنة المسجد الجامع بأشبيلية

وبعد أن تم للمسلمين النصر على النورمان المجوس، خرجت الكتب إلى الآفاق بخبرهم وكتب عبد الرحمن الأوسط إلى من بطنجة من صنهاجة يُعْلِمهُم بما كان من صنع الله بالمجوس، وبما أنزل بهم من النقمة والهلكة، وبعث برأس أميرهم وبمائتى رأس من أبطالهم.



والحق، إن أهم نتيجة تمخضت عن هذه الغارة النورمانية هى إنشاء البحرية الأموية بالأندلس والاهتمام بها، حيث كان أمويو الأندلس لا يولون القوات والأساطيل البحرية عناية كافية، ولم يهتموا بإنشاء بحرية حربية قوية لهم، فكان أن اهتم عبد الرحمن الأوسط بإنشاء دار لصناعة السفن بأشبيلية واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس، فألحقهم ووسَّع عليهم، فاستعدت بالآلات والنفط، وهكذا أصبحت أشبيلية منذ ذلك الحين الميناء الأول فى الأندلس. وكان لميلاد البحرية الأموية بالأندلس نتائج بالغة الأهمية؛ لأن الأسطول الأندلسى لعب - بعد ذلك - دورا خطيرا وهاما فى تاريخ البحر المتوسط كله. فأسهم فى فتح جزائر البليارد: «ميورقة»، ومورقة وبابسه سنة ٢٣٤هـ.

أصبحت دور الصناعة التى أنشأها عبد الرحمن الأوسط هى نقطة الانطلاق فى بناء أساطيل الأندلس الإسلامية فيما تلا ذلك من عهود. كما كانت مقدمة لما أنشئ بعد ذلك من دور صناعة فى قرمونة، وألقنت وبلنسية. وسيكون هذا الأسطول البحرى الحربى، هو الساعد الأمين لخلفاء قرطبة فى غزو بَرِّ العدوة ومنافسةِ الفاطميين ومنازعتهم السيادة فى البحر المتوسط.

ومما يدلنا على اهتمام الأمويين بأمر الأسطول منذ ذلك الحين ما كتبه عبد الملك بن حبيب عامل أشبيلية إلى عبد الرحمن الأوسط، من أن «بنيان سور مدينة أشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة فى المسجد الجامع» وصار للأندلس أسطولان أحدهما يعمل فى البحر المتوسط، والآخر فى المحيط الأطلسى. وكانت للأسطول مراكز كثيرة على الساحل الغربى والجنوبى، والجنوبى الشرقى بصفة خاصة. ومن أهم مراكزه لقنت، وشريش، وطرس، وقرطاجنة الخلفاء، وبجانة، والجزيرة، والأشبونة، وكان فى كل ميناء من هذه الموانى دار صناعة وإدارة خاصة بالأسطول، وكان رجال البحر يُعتَبَرون سلاحا خاصا من أسلحة الجيش (القوة الدفاعية) ولهم أجور عالية ونظام خاص فى الأندلس.

وقبل أن نختتم الكلام عن الأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط يجدر بنا أن نتحدث قليلا عن نشاطه وغزواته ضد نصارى أشتوريش، وضد البشكنس، ففى سنة (٢٠٨ هـ - ٨٢٣م) أرسل قواته بقيادة «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث» فى صائفه، قفزت، فج جرنيق الواقع بين سيرادى أنثيا وجبال أثوريتا.

يقول ابن عذارى: «وفى سنة ٢٠٨ هـ، كانت الغزاة المعروفة بغزاة ألبة والقلاع، غزاها «عبد الكريم بن عبد الواحد» بالصائفة، واحتل بالثغر، وتوافدت عليه عساكر الإسلام، واختلفوا فى الدخول على أى باب يكون إلى دار الشراء، ثم اجتمعوا على أن يكون من باب ألبة، إذ كان ذلك الباب أنكى للعدو وأحسم لدائه، فاقتحموا من فج يقال له جونيق (أو جرنيق)، وكان وراءه

بسيط للعدو، فيه خزائنه وذخره. فوقع أهل العسكر على تلك البسائط، فاستصفوها، وعلى ذُخْرِ تلك الخزائن فانتهبوها، واستوعبوا خراب كل ما مروا عليه من العمران والقرى وأقفروها، وانصرف المسلمون غانمين ظافرين والحمد لله. ووقع جند عبد الكريم على مخازن عتاد وذخيرة العدو فى بسائط هذا الفج، فنهبوها ودمروا الأراضى والبقاع التى مروا عليها وأقفروها.

ثم كانت غزوة الفتح سنة (٢١٠ هـ - ٨٢٥م) التى انتصر فيها المسلمون بقيادة عبد الله البلنسى على جيوش أشتوريش عند «جبل المجوس» ثم نَصْرُهم فى نفس السنة بقيادة العباس بن عبد الله القرشى على جليقية. والسير إلى بازو. وفى العام التالى عاود البلنسى غزو بلاد جليقية، ثم غزا سنة ٢١٢ هـ برشلونة التى ثار أمراؤها ضد الفرنجة سنة ٢٠٩ هـ، فى إقليم برشلونة واستنجاد النبيل القوطى أيزون ولم يتمكن البلنسى من برشلونة لاستماتة برنارد بن جيوم حاكم طولوشة فى الدفاع عن برشلونة.

ولذلك اكتفى عبد الله البلنسى بغزو نواحى برشلونة مدة ستين يوما وأمسكت الحملات عن مهاجمة برشلونة، ثم عاودت مهاجمتها سنة (٢٢٤ هـ - ٨٤٠م)، بعد وفاة لويس التقى بن شارلمان فى ٢٠ يونيو ٨٤٠م.

لقد شهدت سنة ٢٢٣ هـ نشاطا فى معسكر المسلمين، إذ أغزى عبد الرحمن ثلاثة جيوش إسلامية إلى مملكة أشتوريش: أحدها بقيادة عمه الوليد بن هشام دخل جليقية عن طريق بازو فخرَّب هذه البلاد. والجيش الثانى بقيادة سعيد الخير أخُو عبد الرحمن الأوسط، وهذا دخل ألبة وقشتالة القديمة، أما الجيش الثالث بقيادة أمية ـ أخو عبد الرحمن أيضا، حيث نجح هذا الجيش فى هجومه على حصن القرية (لعلها القلعة)، التى كانت قد سقطت منذ ١٣ عاما فى يد المسلمين بقيادة مرح بن سرة عامل جيان. وفى ٢٢٤ هـ غزا عبد الله البلنسى ألبةَ والقلاع، فهزم العدو. وفى نفس العام خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على «مدينة سالم»، فسار إليه «فرتون بن موسى» فانهزم لذريق. ثم خرج عبد الرحمن الأوسط فى العام التالى (٢٢٥ هـ) إلى أرض جليقية، لفتح حصونها وجال فيها، ويبدو أنه توغل فى غزواته فتعب لذلك كثيرا.

ويذكر «بروفنسال» أنه ربما لم ينجح عبد الرحمن الأوسط فى غزاته هذه، مما جعله يقلل من خروجه للغزو بنفسه بعد ذلك؛ ولذلك نراه يعهد بالصائفة التالية (٢٢٦هـ) لابنه «مطرف» والقائد «عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى». ثم يقل خروج المسلمين عموما إلى جليقية، فلا يصح فى باقى عهد عبد الرحمن الأوسط سوى غزوتين سنة ٢٣١هـ، وسنة ٢٣٥ هـ (٨٤٦ و٨٤٨م) ولم تهدأ حملات المسلمين على البشكنس منذ غزاهم عبيد الله البلنسى بين أربونة وهرطنية سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م، كما غزا عبد الرحمن بنفسه فهاجم بنبلونة سنة ٢٢٨هـ.

خريطة جزر البليار

ويؤكد «بروفنسال» حقيقة هامة ـ استنادا على رواية ابن حيان فى المقتبس ـ هى أن عبدالرحمن هاجم قوات موسى بن موسى الثائر عليه، وقوليت ملك بنبلونة، ألبة وجليقية، وذلك كله فى وقت واحد فى شوال سنة ٢٢٨هـ (آخر يوليو ٨٤٣م) وانتصر عليها كلها نصرا ساحقا، وعاد إلى عاصمته قرطبة. ولم يكتف عبد الرحمن بذلك النصر بل خرج فى العام التالى لمحاصرة موسى بن موسى عامل طليطلة المتمرد، ودوَّخ بلاده ثم صالحه، ثم تقدم إلى بنبلونه، فكانت له بها وقعةُ عظيمةُ على المشركين، فَنِيَ فيها أعداءُ الله، وكان معهم موسى بن موسى، فنالَه ورجالَه ما نالهم.

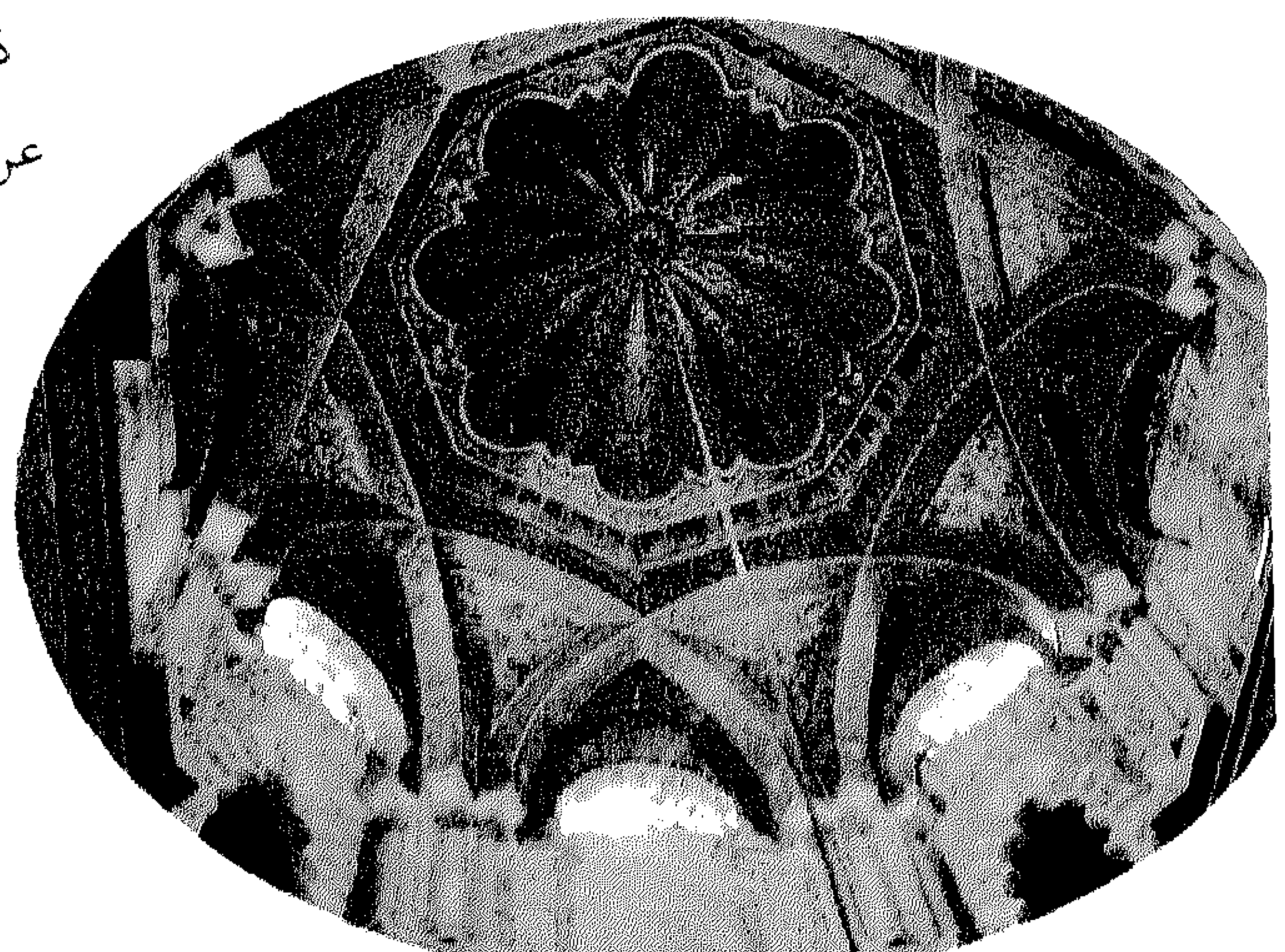
والحقيقة أن عهد عبد الرحمن الأوسط حفل بالعديد من ثورات المتمردين الثائرين عليه، ومحاولتهم العبث بالأمن.

سور مدينة أشبيلية

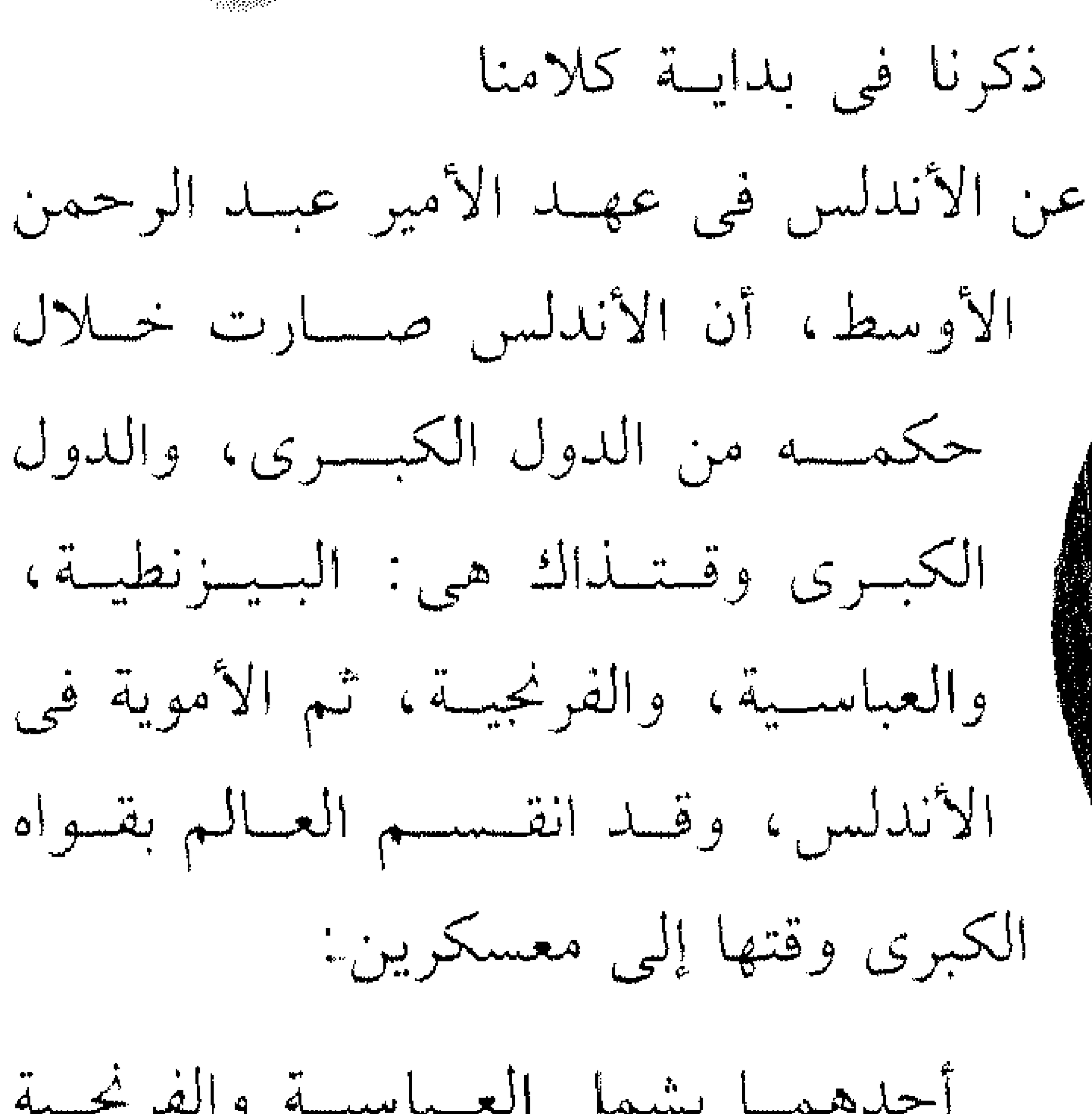


وقد اجتهد الأمير عبد الرحمن فى القضاء على هذه الحركات الخارجة عليه، كما قام بعـدد من الحملات على نصـارى الشمال وإن كـانت حملات صغـيرة؛ لأن الحالة هناك لا تدع إلى تجييش حملات كبيرة.

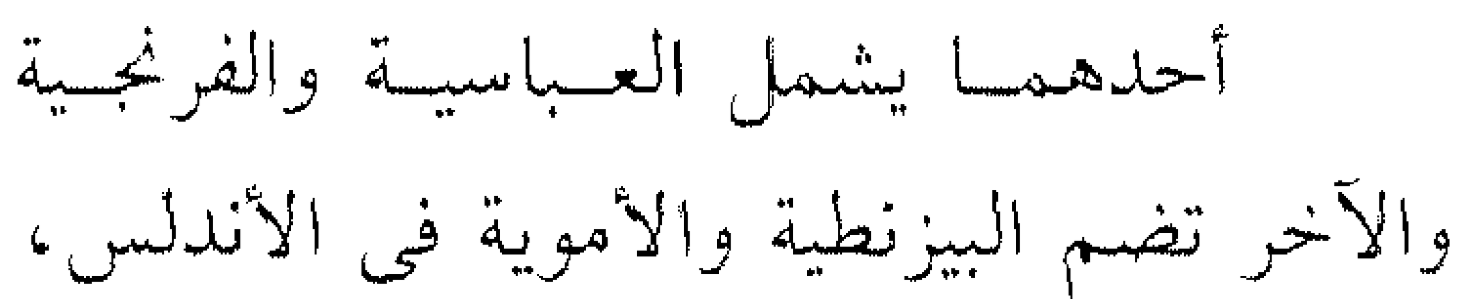
هـ - علاقات الأندلس الخارجية أيام عبد الرحمن الأوسط:



قبة مسجد قرطبة التى أضافها عبد الرحمن الثانى

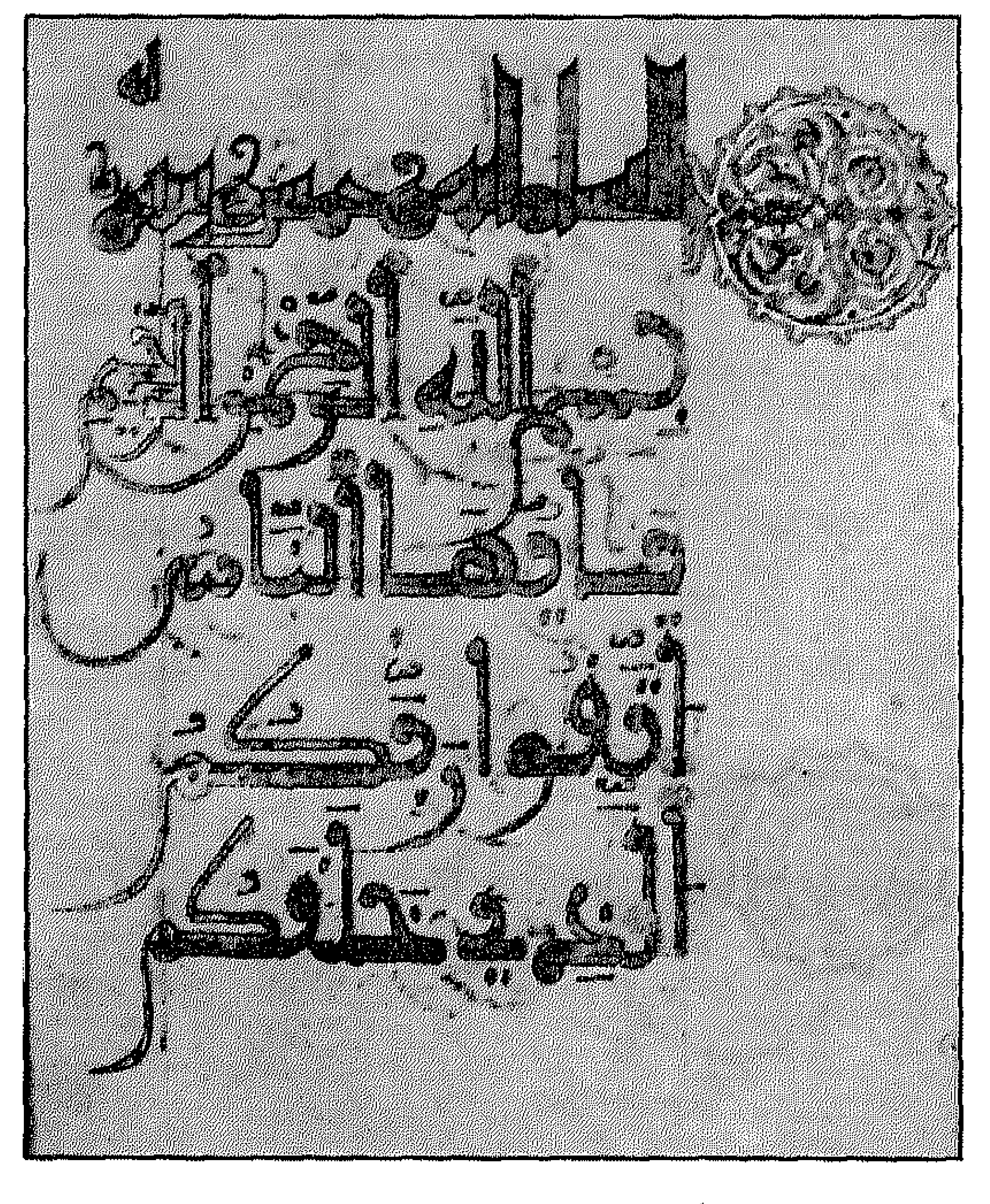


ذكرنا فى بدايـة كلامنا عن الأندلس فى عهـد الأمير عبـد الرحمن الأوسط، أن الأندلس صـارت خـلال حكمـه من الدول الكبـرى، والدول الكبـرى وقـتـذاك هى: البـيـزنطيـة، والعباسـية، والفرنجيـة، ثم الأموية فى الأندلس، وقـد انقـسـم العـالم بقـواه الكبرى وقتها إلى معسكرين:

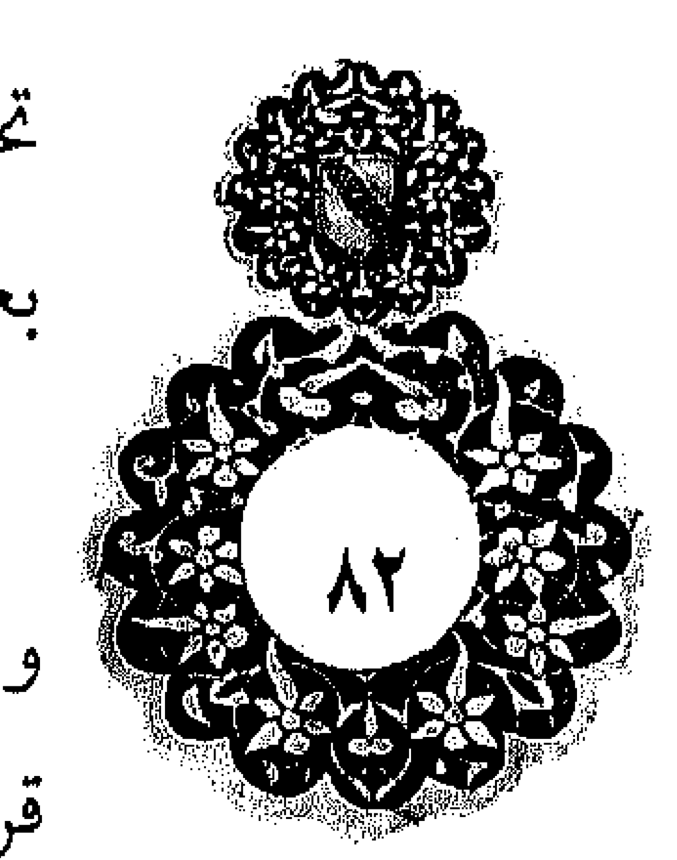


أحدهمـا يشمل العـباسيـة والفرنجية والآخر تضم البيزنطية والأموية فى الأندلس، وكل معـسكر كان يـعمل ضد الآخـر، لكن الاتحاد أو التحالف فى كلتا الجبهتين لم يتعد تبـادل السـفراء والهـدايا وإن صـاحب ذلك نشاط فى جـبهة المشـرق بقيـام الحروب بين العباسـيين والبيزنطيين أيام الرشـيد والمأمون والمعتصم، وإغـارات شـارلمان على شمـال إسـبـانيا وكـذلك ابنـه، وهذا يدلنا على أن السياسة الدولية قامت وقتذاك على التفاهم.

وقـد تعـددت رحلات سـفـير عبـد الرحـمن المشهـور وهو «يحيى الغـزال» لدى بيزنطة من ناحية، وملك النورمان من ناحية. والحق أن عبد الرحمن الأوسط لم يتورط فى



صفحة قرآن - مخطوطة بالأندلس ق ١٢



تحالف رسمى مع بيزنطة ضد العباسيين، وإنما اكتفى بتقديم الود واحتفظ بذلك بعلاقات الود مع بيزنطة وصد غارات الفرنجة على حدوده.

ووصل بلاطه - عبد الرحمن الأوسط - إلى درجة كبيرة من الإعزاز والفخامة مما جعل الفروسية النصرانية تحاول الاقتباس منه فيما تلا ذلك من قرون.

والواقع، أن الرخاء الذى ساد الأندلس طوال القرن الماضى ظهرت آثاره ونتائجه على أيام عبد الرحمن الأوسط، فعمرت المدن وزاد الخير فى الريف وكَثُر أهله، وبدأت مدائن الأندلس تأخذ تلك الهيئة المدنية العمرانية التى سيتميز بها ذلك القطر بقية عصره الإسلامى. وقد اهتم عبد الرحمن ببناء المبانى فى كل ناحية، ويقال أنه بنى مسجدا جامعا فى كثير من مدائن الأندلس. وإليه تنسب الزيادة الكبيرة الأولى فى مسجد قرطبة الجامع، ومسجد آخر يعتبر من أجمل ما بنى فى الأندلس وهو مسجد «ابن عبديس» فى أشبيلية (وقد تحول إلى كنيسة الآن ولا زالت آثاره باقية فيه لليوم).

وقبل أن نطوى صفحة عبد الرحمن الأوسط وحكمه فى الأندلس يجدر بنا أن نشير، على عَجَل، إلى تلك الموجة العاتية التى اكتسحت الأندلس فى ذلك الوقت، وكان أبطالُها جماعة من غلاة المستعربين ممن كانوا ينقمون على الإسلام سيادته على الأندلس، فكانوا يسبون رسول الله ﷺ وينكرون نبوته، ويستخفون بالإسلام ويسبُّونه، وكانت العقوبة التى تنالهم هى الموت. ولا جدال فى أن من عاش فى إسبانيا من النصارى تحت ظل الحكم الإسلامى وتأثروا بالثقافة العربية ونطقوا بلغة الضاد حتى نسوا لغتهم اللاتينية، يمثلون برهانا واضحا يدل على ما تمتع به عصرا أمراء بنى أمية فى الأندلس من حرية فى العقيدة والتسامح التام تجاه أهل الكتاب.

ولكن تغلغل حركة الاستعراب عند النصارى، كان لها رد فعل عنيف وحانق عند المتعصبين منهم، وخاصة القسيس والكهنة، فأخذوا يظهرون وُجْدَهم وأسَفهم لانصراف النصارى عن المؤلفات الدينية المكتوبة باللاتينية، إلى الشعر العربى والكتب العربية. وقد حاول أولئكم الغلاة ـ عبثا ـ وقف تيار الاستعراب، فكونوا حزبا مستعربا معارضا برئاسة اثنين من المعرضين على الثورة هما «أبو لخيو» وصديقه «الفارو». فكانا يدعوان النصارى لسب الرسول والإسلام، والطعن فى نسب النبى محمد والإسلام علنا. وكان من الطبيعى أن تقابل الحكومة الإسلامية الأندلسية هذا العمل بالحزم، فأعدمت كل من جاهر بسبّ الإسلام أو نبيه، أو النيل منه سخرية واستهزاء، وكثر عدد حمقى المسيحيين الذين قتلوا بإرادتهم وزادت بالتالى الموجه الانتحارية عنفا وضراوة بمرور الوقت، وهنا تصدى لهذه الحركة فريق من المستعربين المعتدلين ممن أنكروا على الغلاة هذا الجنون، واعتبروا هذا الاستشهاد انتحارا يحرمه الدينُ المسيحى، لكن حركة الانتحار الإرادى استمرت بقية عهد عبد الرحمن الأوسط وحتى بداية عهد ابنه محمد، ولم تنطفئ نيرانها وتخمد جذوتها إلا

عندما مات «أبولخيو» المحرِّض عليها فى ١١ مارس ٨٥٩م. ويعلق «لين بول» على هذه الحركة بقوله: «إن الرحمة التى تثير نفوسنا لشهداء قرطبة هى بعينها الرحمة التى تخالجنا لمن أصيبوا بالهستيريا؛ لأن كل من قتل منهم، كان فى الحقيقة شهيدا لمرض نفسى، وحال هذا شأنها تستدعى من الرحمة والإشفاق ما يستدعيها موت المستشهدين فى سبيل الدين حقا».

و - فترة الضعف والثورات بالأندلس (٢٣٨ - ٣٠٠هـ):

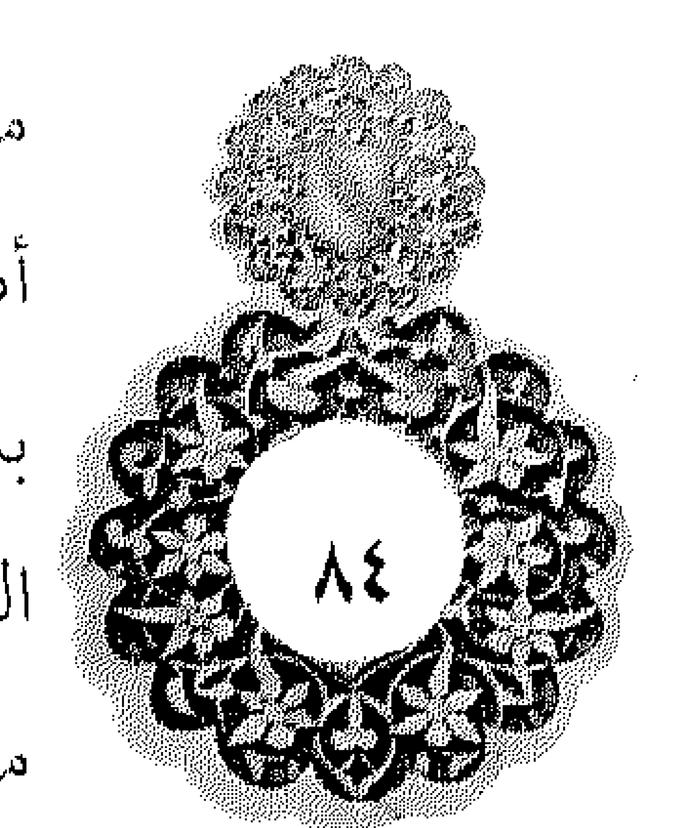
اتسم عهد عبد الرحمن الأوسط بأنه كان عهد ازدهار حضارى ضربت فيه الأندلس بسهم وافر من التقدم، ولم تتمكن المشاكل الداخلية من القضاء على الوحدة أو تُفَكِّكَ الدولة، ولعل السبب هو قوة الحكم والحاكم وقتذاك، فضلا عن الدولة كانت تجند كلٍّ كفاياتها لتتأهل للوضع الحضارى الذى تنشده، ولم يخل الأمر ـ كما رأينا ـ من ثورات داخلية تمكن الحكم من قمعها وعلاجها وأمكن التغلب عليها أيام عبد الرحمن الأوسط، لكنها كانت فى حقيقة أمرها إرهاصا لفترة كانت تعد هوة بالنسبة لما سبقها وما تلاها.

وفى هذه الفترة (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ) كانت الحالة متأثرة بالبيئة الطبيعية لشبه جزيرة إسبانيا، وبالعناصر المختلفة التى كان يتكون منها سكان إسبانيا. وقد حكم الأندلس خلال هذه الفترة: محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ/ ٨٥٢/ ٨٨٦م)، ثم ولديه: المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ - ٨٨٨م)، وعبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م).

والحق أن عوامل القومية والحكومة المركزية وهى عوامل وحدة البلاد، إذا ضعفت، أمكن أن يظهر جليا أثرُ العوامل الطبيعية والبشرية فى إضعاف تلك البلاد، ونحن إذا تابعنا ما جرى فى الأندلس أدركنا أن عوامل البيئة الطبيعية والبشرية تحكمت فيما ساد تلك الفترة من أحداث.

فإسبانيا، شبه جزيرة تتكون من هضبة قديمة تمزقها سلاسل جبال مستعرضة، تحصر بينها وديانا طولية من الشرق والغرب، وتخترقها أنهار مستعرضة فى غالبها من الشرق إلى الغرب، فى وديان محفوفة على الأرجح بحافات هضاب أو جبال، وبلاد كهذه تميل إلى اللامركزية، فإذا أضيف إلى هذا العامل الجغرافى العاملُ البشرى كذلك، ألفينا إسبانيا تعتبر من تلك البلاد التى تميل إلى اللامركزية.

وكان العنصر البشرى فى إسبانيا، يتكون من: القوط الذين حكموا قبل العرب، والسكان الأصليين الذين حكمهم القوط، ثم من العرب والبربر الفاتحين، وهى كلها شعوب تختلف جنسا وعادات ولغة ودينا، فالعرب احتفظوا بشخصيتهم المعتدة بخصائصها وأنسابها ونزلت أماكن معينة



من الأندلس، والبربر كانوا كـذلك قوما محتفظين بنظامـهم القبلى وأيضا نزلوا أماكن معينة من شـبه الجزيرة، أما المجتمع الإسبـانى نفسه فقد تغير تغيـرا كبيرا بسـبب انتـشار الإسـلام ولغـتـه بين سكانه، وتزاوج أهلهُ من العـرب والبـربر الفاتحـين، وهكذا حدث اندمـاج بشرى، ونشـأ من هذا الاندماج جـيل بشرى مشتـرك الدم والنسب، وهو ما نطلق عليه اسم «المولّدين»، وهذا الجـيل الجديد فى سماء إسبانيا كانت له طبـائعه وخصائصه. وفى نفس الوقت كان هناك جزء من أهل البلاد بقوا على دينهم فلم يعتنقوا الإسـلام، وإن تعلم العربية، وأُشرِبَتْ روحُهم أسلوبَ العرب فى الحياة وهم مـا نسميهم «المستعربة» وهى مـجموعة كانت لها أيضا شخـصية تميزت فى حوادث هذه الفترة.

كذلك تعاونت العوامل الطبيعية والبشرية لتقضى على كل سبب لقوة إسبانيا، وخاصة حين جاء خلفـاء عبـد الرحمن الأوسط وكـانوا ضعافـا، مما أدى إلى أن طغت عليهم هـذه العوامل، وأصبحنا نسمع عن دويلات قامت وقتذاك بعضهـا عربى، وبعضها بربرى، وبعضها مولدى.. أما المستـعربة فلم يقـيموا دولا، وإنما كـانت لهم قصة وثورة هى مـا تكلمنا عنه فيـما عرف بحـركة الارتداد المسيحى.

ولقد كانت دولة بنى حـجاج فى أشبيلية نموذجـا للدولة العربية، إذ أنشأها عـرب من قبيلة لخم اليمنية، وكانوا يطمعون فى أن تكون لدولتهم ما لدولة بنى أمـية من هيبة وقوة. وكان رئيسها «إبراهيم بن حجاج»، واسـتمرت دولة بنى حجاج قائمة بـأشبيلية حتى جاء عبـد الرحمن الثالث فأزالها كما أزال غيرها.

أما البربر ـ وهم دائمو السخْط والنَّزَق ـ فتـمردوا على الأمويين بالأندلس، وعادوا لنظامهم البدوى، واستـقلوا بالولايات الغربية (الاسترامـادور) وجنوب البرتغال، واحتلوا مراكـز هامة مثل «جيان» وكانت أشهر هذه الأسر البربرية أسرة «ذى النون» وكان عميدها يدعى «موسى» كان شريرا كبيرا هو وأولاده الذين لم يقلوا عنه قسـوة، فدهمت هذه الأسر الأندلسَ بالسيف والنار، وعاثت فى كل جوانبها فسادا تحرق وتنهب وتقتل أينما حلت وسارت.

وكان المولدون الإسبـان ـ وهم مَنْ صقلتهم مدنيـة العرب نوعا ما أقل وحشـية من البربر، لكنهم ماثلوهم فى بغضـهم للحكومة، فاستولوا على ولاية الجرف فى الزاوية الجنـوبية الغربية فى شبه الجـزيرة، وسيطروا على عدد كبيـر من الولايات المستقلة والمدن الأندلسيـة، وكان أشد هؤلاء بأسا «ابن حفـصون» ـ فى كورة رية بمعقلة ببشـتر ـ الذى ظل يثير سكان غرناطة والجـبال المحيطة بها، فحكم ومد نفوذه وسطوته على البلاد التى حوله، وظل يواصل زحفه حتى بات على مشارف

قرطبة التى لم تستطع أن ترد سهامه عنها لضعف حكامها الأمويين، لكن «ابن حفصون» استمر فى بطشه وطغيانه، حتى سولت له نفسه الارتداد عن الإسلام وكان فى ذلك نهاية أمره، فكان كمن فقأ عينه بأصبعه، إذا انفض من حوله المسلمون، ولم يُقْبِلْ عليه النصارى فضعُفَ أمره وزالت دولته على يد عبد الرحمن الناصر فيما بعد.

هكذا كانت الأندلس ممزقةَ الأشلاء، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة، حتى أصبحت أشبه بالضياع منها بالولايات التى تكوِّن دولة قوية. وحينما زادت حلكة الأمور وإظلامها على الأمويين بالأندلس، وتقلص ملكهم حتى صار يشمل قرطبة وحدها وما يجاورها من أعمالها، سطع شعاعُ الأمل لليائسين من سكان قرطبة وذلك باختيار الأمير عبد الله لولاية العهد من بعد حفيده «عبدالرحمن» وكان شابا جريئا محبوبا من الشعب والقصر، فقد تضافرت وسامته وقوة إدراكه وكرم أخلاقه على أن تصنع منه أميرا محبوبا، وحاكما ناجحا، استطاع لم شعث الأمة، وأعاد إليها وحدتها وسار بها نحو الذروة التى وصلتها الأندلس.

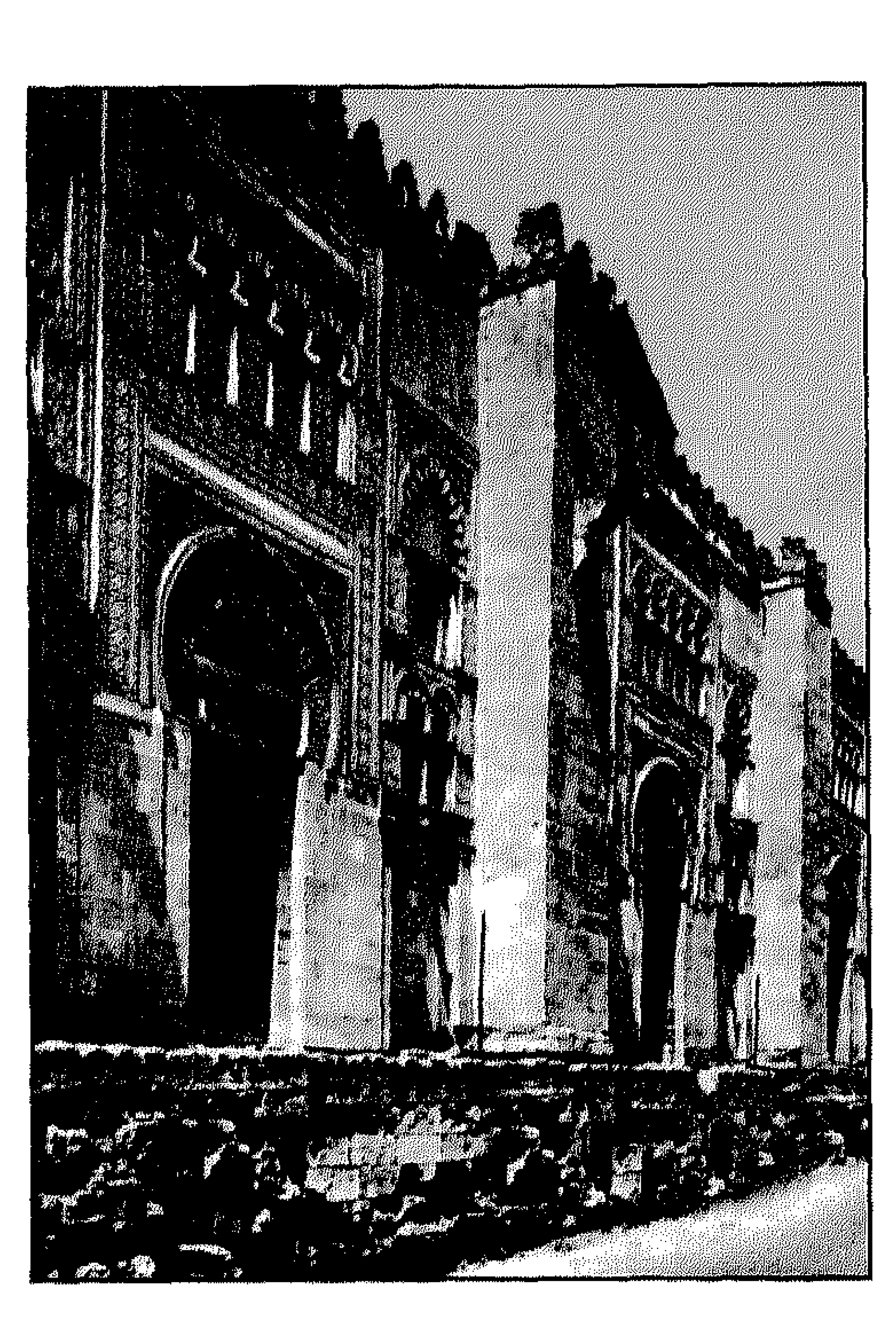
ورغم ما منيت به الأندلس وقتذاك ـ قبيل ولاية عبد الرحمن الثالث ـ من تجزؤ وضعف سياسى، إلا أن ركب الحضارة فيها لم يتوقف بل استمر ـ فظهر بعد الكتاب والمؤرخين أمثال «ابن عبد ربه» المؤرخ، و«ابن صاعد الأندلسى» صاحب كتاب «طبقات الأمم» الذى يذكر فيه أن أول ظهوره فى الفلسفة فى الأندلس كان فى عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣هـ).

وهكذا كانت الفترة من (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ) فترة تأخر وتفتت سيئ، ولكنها كانت ذاخرة بالتقدم الحضارى.

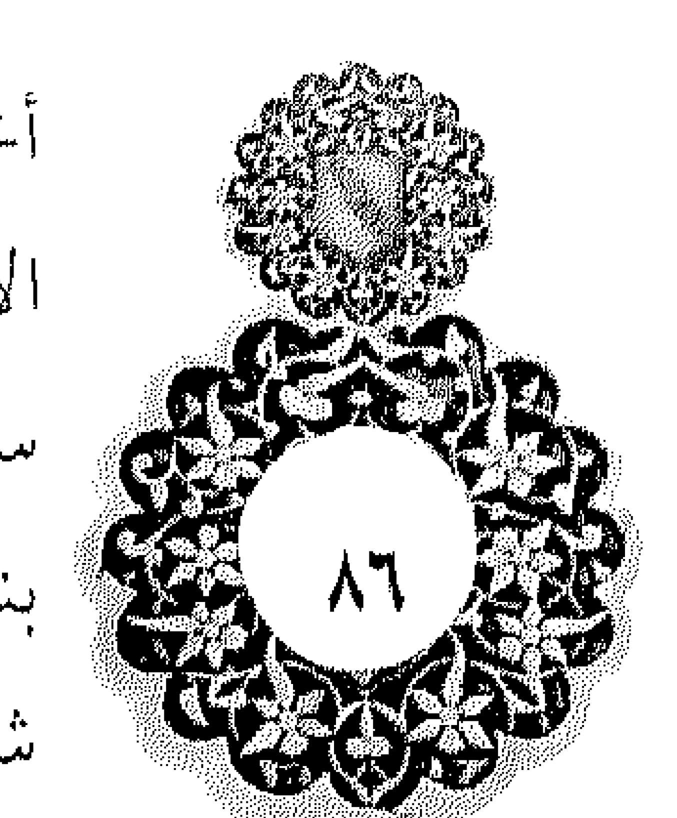
ز ـ أهم الأحداث الخارجية (٢٣٨ - ٣٠٠هـ):

انتهز الفرنجة ـ كعادتهم ـ فرصة الفتن والاضطرابات داخل الأندلس، وأغاروا على الولايات الشمالية الشرقية، فأقام محمد فى تلك الجهة جيشا قويا لحمايتها وتوجيه الغارات منها إلى حدود بلادهم وهى ما يعرف بفرنسا حاليا.

كما ظهر النورمنديون سنة ٢٤٥هـ مرة

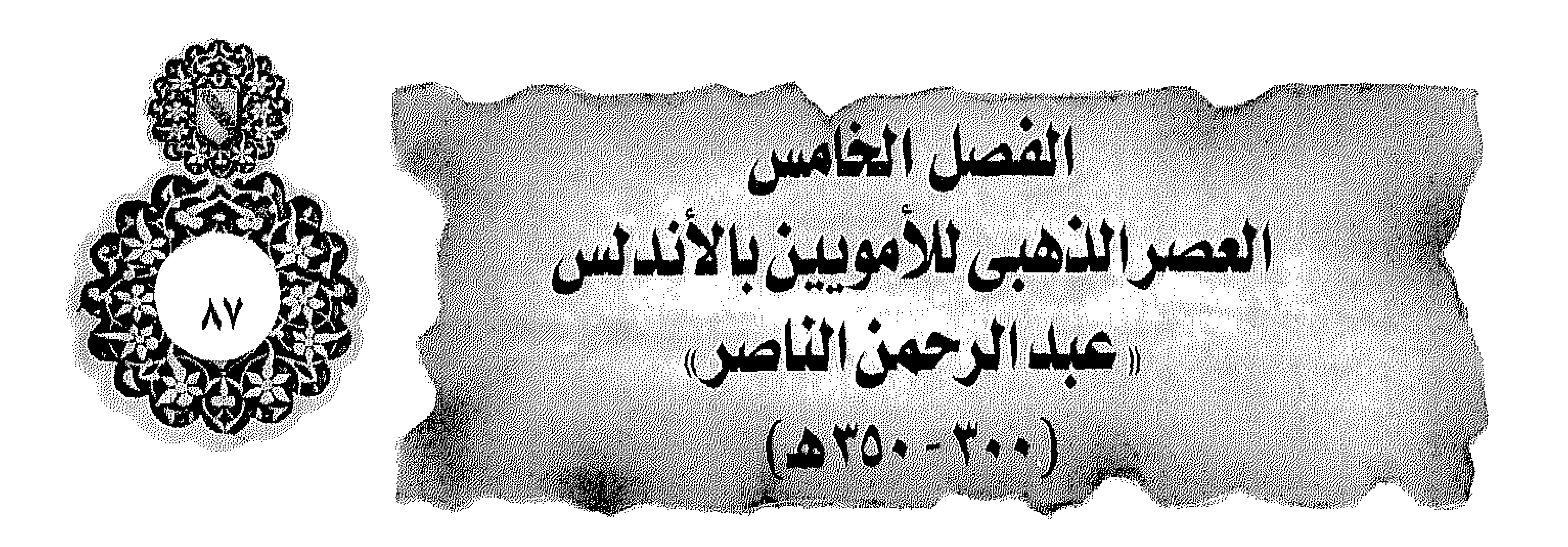


مدخل مسجد قرطبة



أخرى، بعد أن أغاروا على شاطئ بروفنس بفرنسا، وأخذوا يغيرون على الثغور الأندلسية الساحلية. لكن الأسطول الأندلسى طردهم منها بعد أن حطم كثيرا من سفنهم. وأرسلت الجيوش سنة ٢٤٦ هـ إلى جليقية، ونافار، وليون لتأديب بنبلونة فخَرَّبَتْ حصونها، وبعد أربع سنوات طلب أمير ليون الصلح بدون قيد أو شرط، وكان الجيش الإسلامى بقيادة عيسى بن الحسن الحاجب. وكانت سفن النورمان ٦٢ مركبا. ومما يذكر فى فتح الجيش الإسلامى بقيادة أحد قواد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أرض بنبلونة سنة ٢٤٦ هـ، أن غرسيه النورماندى كان متضافرا مع أردون صاحب جليقية. لكن القائدَ المسلم دوَّخَهم وظل ٣٢ يوما يفتح القرى والحصون ومنها حصن قشتيل، الذى أخذ منه «فرتون بن غرسيه» (المعروف بالأنقرو) وأخذه معه إلى قرطبة، حيث ظل حبيسا نحو عشرين سنة، ثم رده الأمير إلى بلده.

وهكذا انتهت هذه الغزوة النورماندية بالفشل، ورد اللهُ كيد الكائدين إلى نحورهم.



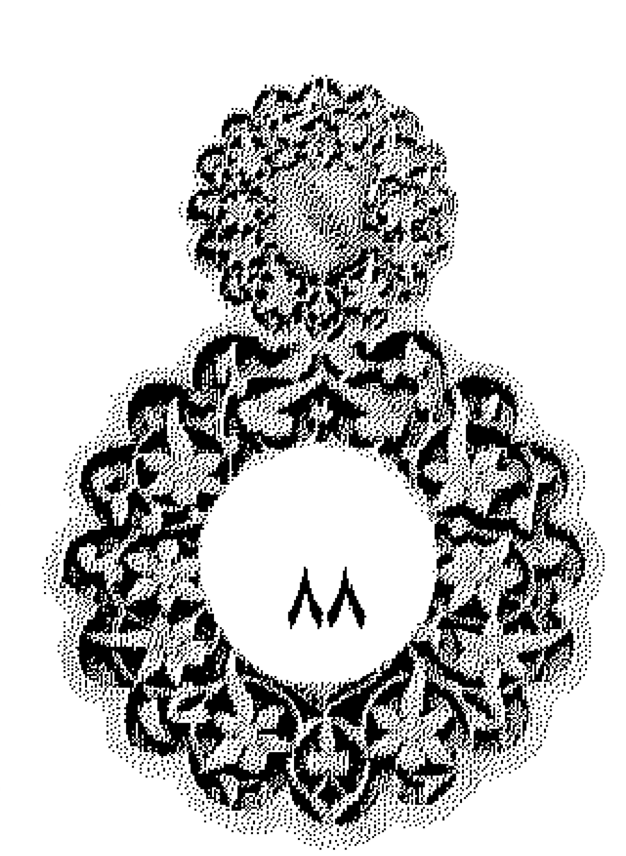
ليس فى تاريخ الإسلام فى الأندلس فترة أبهى ولا أزهى من حكم عبد الرحمن الناصر (الثالث)، فقد تمكن من تنفيذ سياسته بدرجة منقطعة النظير، وأخمد الثورات الداخلية - وكانت لا تهدأ بالأندلس - وظلت الأندلس تحت حكمه عشرات السنين تتمتع بالهدوء الاستقرار.

والحق، أن الأندلس فى فترة حكم عبد الرحمن الناصر وخليفتَه الحكم الثانى، وما تلاهما من كم العامريين الدكتاتوريين شهد بلوغ مُلْكِ المسلمين أَوْجَ عظمته، حتى إن الأندلس لم تستطع أن تصل بعد ذلك - فى نظر العالَمَيْن الإسلامى والمسيحى - إلى النفوذ السياسى والمدنية الزاهرة اللتين بلغتهما فى عهد أولئك الحكام العظام، ولا فى أن يكون لها شأنها الأول فى الغرب والشرق وأوربا كما كان أيام هؤلاء.

وعبد الرحمن الناصر هو أول من تسمَّى بلقب الخلافة من حكام بنى أمية بالأندلس. وكان يتطلع للسيادة على «بر العُدْوَة» - شمال مراكش - فأخذ سبتة سنة ٣١٧هـ، ثم سيطر على مراكش والمغرب الأوسط، فأطاعه الأدارسة أمراء العدوة، وملوك زناتة والبربر، وأنزل كثيرا منهم الأندلس وسلكهم جندا فى جيشه.

والحق، أن القرن الرابع الهجرى يمثل عصر الذروة فى تاريخ الأندلس والحضارة الأندلسية، إذ نضجت فيه الحضارة الإسلامية، شرقا وغربا، حتى استوعبت حضارات العالم المتحضرة قبلها فى قالب إسلامى قشيب متميز. وهذا القرن الرابع يشمل حكم رجال ثلاثة: أوَّلهم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) ثم ابنه «الحكم المستنصر»، وثالثهم رجل تمكن، بحده وسياسته ودهائه، من أن يقبض على ناصية الحكم الفعلى، ويصبح هو كل شىء فى الأندلس ألا وهو «المنصور محمد بن أبى عامر» (ت ٣٩٢هـ).

أما عبد الرحمن الناصر، فقد كان أميرا تضافرت وسامةُ طلعته وحسنُ سمعته، وكريم خصاله وأخلاقه، وقوة إدراكه فى أن تجعل منه أميرا عظيما، وخليفة عزيز الجانب، يحبه شعبه ويخضع له، ويحترمه أعداؤه ومنافسوه.



ولقد استمـرت فترة حكم عبد الرحمن الناصر لـلأندلس خمسين سنة، (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١م)، وكان طولُ فـترة حكمـه مما أعانه على إدراك المطالب، وخاصة أنه تولى الحكم وهو ابن عشـرين سنة، مما أفسح أمامه مجال العمـر الطويل وحيوية الشباب لإتمام العـمل والمشاريع التى أرادها. وكان عبدُ الرحمن حفيدَ الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

ويبدو أن ظروف الأندلس الـداخلية والخارجـيةَ، جعلت الحكم مـحفوفـا بالمكاره، مما زهَّد الأمراء من بيـت عبد الله فـيه، إذ كـانت الحالةُ سيـئة جـدا، فقد بلغت الحـروب من كل صنف ذروتها، وتكاثر الخارجون علـى طاعة الإمارة فى قرطبة، حتى بدا بوضوح أن مـصير الإمارة إلى زوال، أى أن ذلك الذى سيـتولى الملك كان ينبـغى عليه أن يُعَوِّلَ على حـياة كلها متـاعب داخليا وخارجيا.

أ - سياسة عبد الرحمن الناصر الداخلية:

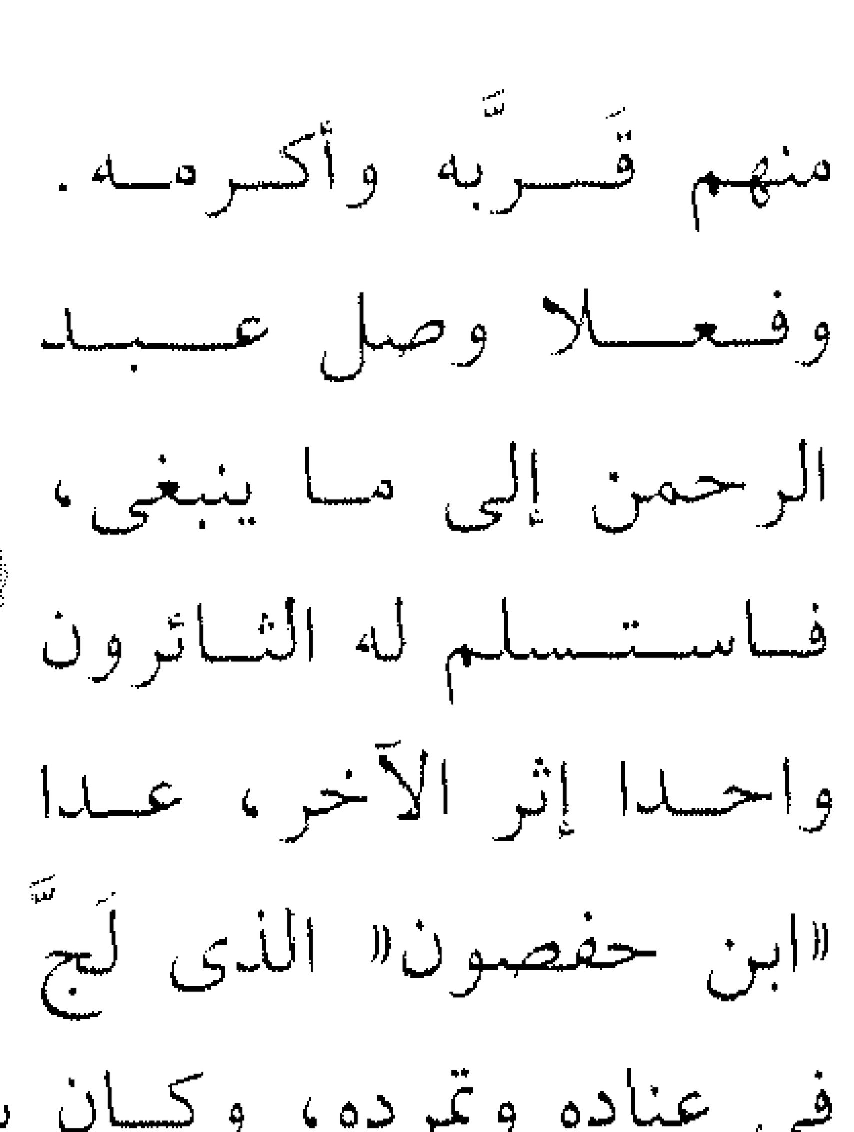
الواقع أننا إذا أمعنا النظر إلى الأمـور فى الأندلس، لوجدنا أن سـوء الحال كـان ظاهريا أكـثر منه حـقيقـيـة. حقـا، إن ابن حفـصون، وعـبد الرحمن بن مـروان الجليقى، وعـرب مرسـية، وعرب أشبيلية كان خطرهم على أشده، لكن الحقيقة أيضا أن هذه القـوى جيـمعـا كانت فى آخـر أيامـها. والراجح أن كـثيـرا من الخـارجين عن الطاعـة كـانوا يَسْدِرُون فى غَـيـهم وعنادهم بدافع الكراهية الشـخصيـة والاستعلاء على عـبد الله، فلما تولى عـبد الرحمن الناصـر الحكم لم يعد هناك ما يدعوهم إلى اللـجاجة فى العناد والتمرد.

وكـانت سيـاسة عـبد الرحـمن الناصـرى ترمى إلى تنظيم الأحوال الداخليـة، وتركيز السلطة فى يده، وإعادة الاتحـاد إلى ما كان عليه، وكان يعالج كل حالة بما تقتضيه من علاج، وكان رغم قوته وشدته، يؤْثِرُ جانب اللين والأرْيَحِية، والتسامح مع خصومه، ليمهد لهم طريق الاستسلام له والانضواء تحت لوائه.

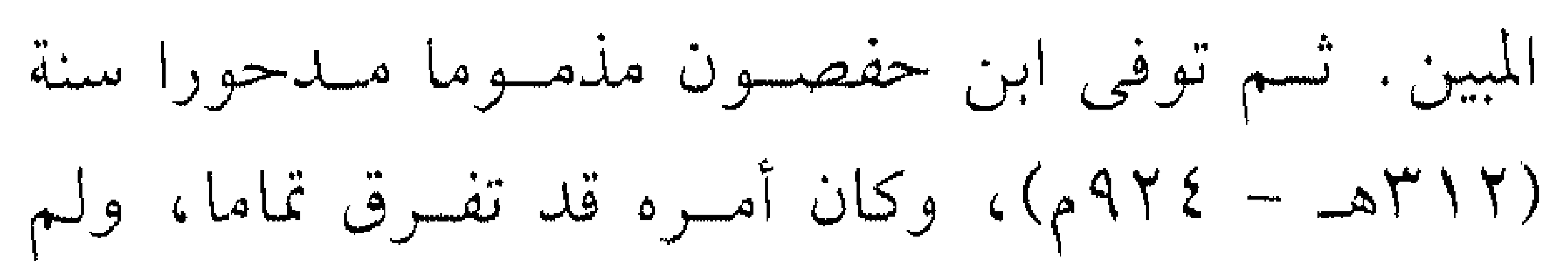
وقـد بدأ فـأرسل منشـورا إلى كل أمـيـر وملك من أولئك المتغلبين على النواحى، يتوعـد فيه ويعد، ويمنِّى ويحذِّر فى نفس الوقت. وكان لمنشـور الناصر هذا معنى وأثر، أراده الناصرُ نـفسه فيما يتعلق بالمتغلبيـن من أفراد الأسرات القديمة، فمن آثر المهادنة

محراب عبد الرحمن الناصر - مسجد قرطبة

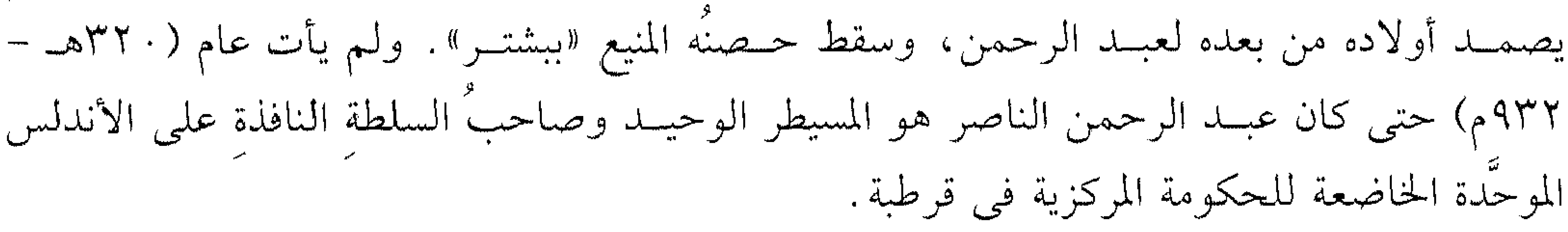




منهم قَربّه وأكرمه. وفعلا وصل عبد الرحمن إلى ما ينبغى، فاستسلم له الثائرون واحدا إثر الآخر، عدا «ابن حفصون» الذى لَجَّ فى عناده وتمرده، وكان بفعله ذلك كمن يتشنج من حشرجة الموت؛ ذلك أن أمرَه كان إلى ضعف وزوال، وخاصة بعد ارتداده عن الإسلام، وانفضاض أنصاره عنه نتيجة لذلك، فضلا عن نفور النصارى منه، فكأنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. ثم توفى ابن حفصون مذموما مدحورا سنة (٣١٢هـ - ٩٢٤م)، وكان أمره قد تفرق تماما، ولم يصمد أولاده من بعده لعبد الرحمن، وسقط حصنُه المنيع «ببشتر». ولم يأت عام (٣٢٠هـ - ٩٣٢م) حتى كان عبد الرحمن الناصر هو المسيطر الوحيد وصاحبُ السلطةِ النافذةِ على الأندلس الموحَّدة الخاضعة للحكومة المركزية فى قرطبة.



مئذنة عبد الرحمن الناصر بمسجد قرطبة

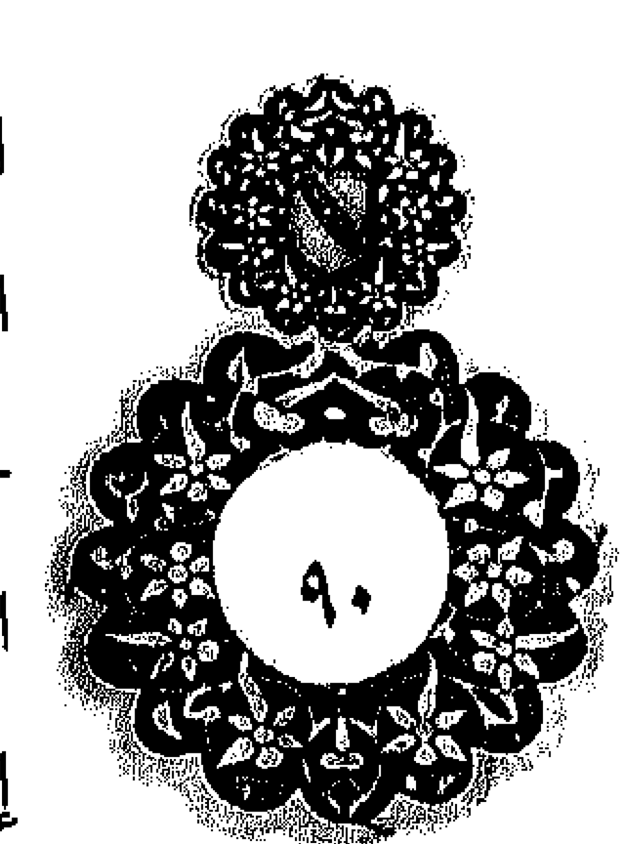


ب - موقف الأندلس من الفاطميين:

استطاع الناصر - مستعينا بالصقالبة - أن يطَهِّر البلاد من عصابات السود، وأن يَسلَّ منها روح التمرد، ثم أن يشعل حربا ضروسا على نصارى الشمال، ويعود مظفرا منصورا. وكان عليه بعد ذلك أن يحزِمْ أمَره إزاء الفاطميين، الذين ظهروا فى تونس، ثم أخذوا يَمُدُّون سلطانهم على



الناصرة - مدينة عبد الرحمن الناصر بالبرتغال



المغرب. ورأى الناصر أن يصد تيارهم قبل أن يستفحلَ أمرُهم فيُقْدِموا على غزو الأندلس نفسها، فقد كان من الطبيعى أن يذكر الفاطميون أن العرب قبلهم جعلوا المغرب معبرا إلى الأندلس، كما أن السياسة التقليدية بين ولاة إفريقية الأقوياء، كانت توسوس لهم أن يضموا ـ إذا استطاعوا ـ ولايات الأندلس إلى إفريقية.

وكان الفواطم ـ بعد أن تم لهم الاستيلاء على تونس ـ يقومون بغزوات قوية على المغرب الإفريقى، وفعلا وصل قائدُهم «جوهرُ الصقلى» إلى أرض السوس الأقصى، وكان للفاطميين ـ إلى جانب جيوشهم البرية ـ قوة بحرية قوية، سيطروا بها على الجزء الغربى فى البحر المتوسط وأقلقوا بها أَمْنَ السواحل الأوروبية المطلة على هذا الجزء.

هكذا أصبح على الأمويين بالأندلس التفكيرَ فى أمر الدولة الفاطمية، التى كانت تنادى بحقها فى الإمامة على المسلمين، وقد أرسل الفاطميون دعاتَهم فى كل الأنحاء، وعبر منهم للأندلس رجالٌ من ذوى الخبرة والعلم بطبائع النفوس، منهم العالم الجغرافى «ابن حوقل النصيبى»، الذى وصف الأندلس للخليفة الفاطمى بأنها: «بلاد غنية كثيرة الخيرات، غير أن حكومتها ضعيفة»، أى أن غَزْوَها سهل للفاطميين، وفعلا ترتب على غزو الفاطميين للمغرب الأقصى، أن انتاب القلقُ أمراءَ وحكام الأندلس على أنفسهم وإمارتهم من أذى الفاطميين.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الفاطميين فعلا كانوا يطمعون فى الأندلس؛ ولذلك مهدوا للفتح ببث دعاتهم سرا فى أنحاء تلك البلاد، لنشر مذهبهم فيها أولا؛ ولهذا فلم يكن غريبا أن نرى حرصَ الناصر على إقامة خط دفاعى يصد عن الأندلس عادية الفاطميين، فأقام خطا دفاعيا أماميا فى المغرب، بأن يثير الفتن بين القبائل البربرية فى المغرب، لئلا تكون هناك فرصة للوثوب عليه، فإذا ما خضع المغرب للفاطميين احتفظوا للأندلس بنفوذ يتمثل فى قلعتى سبتة وطنجة، ثم هو من ناحية أخرى يخصص مقدارا كبيرا من دخل الأندلس لبناء بحرية تنافسُ البحريةَ الفاطميةَ وتُنَازِعَهُمْ سلطانَهم فى بحر الروم، وتضمن للسواحل الأندلسية دفاعا بحريا قويا.

على أن الدولة الفاطمية كانت تهدف ـ إلى جانب السيطرة على المغرب والأندلس ـ إلى الاستيلاء على قلب العالم الإسلامى فى المشرق، حيث يستطيعون تكوين دولة إسلامية كبيرة تضم مُلْكَ العباسيين فى المشرق، ثم الجهاد بعد ذلك فى سبيل إخضاع العالم أجمع تحت سلطان الإمامة الفاطمية، التى كان الفاطميون يرون أنها يجب أن تحكم العالم الإسلامى كله، وكان اتجاهُهُمْ هذا إلى المشرق هو الذى أنقذ الأندلس من خطرهم المباشر عليه، وإن كان هذا الخطر لم ينته تماما بعد انتقالهم للمشرق.

ج- خطر الدولة النصرانية:

واجهت الإمارة الأموية فى الأندلس خطرا كبيرا هو خطر القوى النصرانية الشمالية فى الشمال الغربى لإسبانيا «إقليم جَلِّيقِيَّة». وكان العرب قد تركوا هذا القسم لفقره وبرودته، فصار بذلك كالبؤرة التى تجمعت حولها البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين، ورجال الدين، ونبتت فيه بذرة الدولة الإسبانية النصرانية، وظلوا كذلك يرقبون الفرص لتوسيع رقعتهم، إلى أن سنحت الفرص لهم بعد ذلك حينما بدأ تنازع العرب والبربر فى الأندلس، ووصل النصارى بُملكهم إلى ضفاف «نهر دويرة»، واحتلوا مدينة «ليون Leon» وجعلوها عاصمة لهم وسميت مملكتهم باسم «مملكة ليون».

ثم اتسعت مملكة ليون تدريجيا، حتى تمكنت من الاستيلاء على سمورة فى عهد «ألفونسو الثالث»، الذى حَصَّنها ودعَّمها بعدما أعاد بناءها، فصارت بذلك حِصْنا لإمارة ليون يواجه المسلمين عند هجومهم على بلاد النصارى، والواقع أن المسلمين هاجموا سمورة عدة مرات، حتى سموها «سمورة الخراب».

وقد وصلت سيطرة مملكة ليون آخر عهد ألفونسو الثالث إلى «نهر دويرة»، وأصبح نفوذها يشمل كلَّ ما يقع جنوبى نهر دويرة «المنطقة الواقعة بين دويرة وتاجه» غربا، كما ظهرت الممالك النصرانية شرق جزيرة إسبانيا فيما بين نهر إبرو وجبال الأندلس.

ونلاحظ أن كلَّ الإمارات النصرانية نشأت فى الجبال، بسبب قوة الخطر العربى فى الجنوب، ثم امتدت الممالك فى البسائط شمالا وجنوبا، أى أن جبهتَها الشمالية تاخمت أوربا المسيحية، بينما تاخمت جبهتُها الجنوبية إسبانيا الإسلامية.

وهذا الاتصال المباشر بين تلك الإمارات النصرانية وبقية العالم النصرانى، جعلها أقرب إلى تيار الحضارة الأوربية الغربية، ومتصلة باستمرار بالبابوية والعالم الكاثوليكى، أى أن مستواها الحضارى كان أعلى بكثير من مستوى مملكة ليون، وكانت أقوى الإمارات النصرانية آنذاك مملكة نبرة (نافارا) وعاصمتها بنبلونة ومَلِكَها شنجو، الذى تمكن من مد حدودها حتى تاخمت بلدة «لاردة» من حصون المسلمين.

هكذا وجد عبد الرحمن الثالث «الناصر» نفسه فى مواجهة مع «شنجو» ملك نافارا، الذى كان يطمح فى مزيد من المُلْكِ والأرض على حساب الدولة الإسلامية. كما كان على مملكة ليون مَلِكٌ قوى هو أردونيو «أردون» الذى كان يفكر فى متابعة خطة التوسع التى جرى عليها أسلافه فاستولى على ماردة. لكن القائد «أبو العباس أحمد بن أبى عبدة» تصدى له والتحم معه فى معركة عنيفة استشهد فيها سنة (٣٠٥هـ - ٩١٦ م).

إلا أن انتصـار أردونيو هذا لم يُنْه عنده شعورَه بالخطر الذى يتـهدده من ناحيـة الإمارة الإسلامـية، التى اتحد أمرُها، وأتـيحت لها الفرصـة لمهاجمـته، فتقرب أردونيو من «شنجو» ملك نافارا، وحاول الاثنان مهاجمة الثغر الأندلسى الأعلى. لكن عـبـد الرحمن الناصـر تصـدى للملكين فى حـملة كـبيـرة سنة (٣١٠هـ - ٩٢٠م). استـعـاد بهـا اسمـا وقسـطيلة وكاركـاسـو. كمـا تمكن عبدالرحـمن الناصر من هزيمة «راميز» الثـانى ملك ليون واقتحـام بلده والقضاء على استقـلالها، فظلت بقية حـكمه هادئة فى طاعة قرطبـة، كما تمكن عبد الرحـمن الناصر من تجريد خصمه من حلفائه واستمالتهم بجانبه.

وهكذا لا تشرق الشـمس سنة (٣٤٠ - ٣٤١هـ / ٩٥٠م) حتى كان عبد الـرحمن الناصر هو سيـد الأندلس كلها، إذ أخضع كل البـلاد الإسبانية الخـارجة عن سلطة الإمارة، كمـا حالف بعض الممالك النصرانية وكسب صداقـتها وأجبر بعضها الآخر على احترامه. وصـار الجميع يعتبره صديقا محترما يحكِّمونه فيما شجر بينهم.

لهذا نرى شـانجوه (سانشـو) ملك نافار يطلب من الناصـر طبيبـا يعالجه ويكون بصـيرا فى السياسـة. وكان من نتيجة سفـارته أن وفد إلى قرطبة (شانجـوه) نفسه فأكرمه عـبد الرحمن وندب الأطباء لعلاجه، وبذلك عُـقدت محالفة نال المسلمون من ورائها حـصونا على حدود مملكته. ومن ناحية أخـرى كان حكام ليون وأرجون يفدون إلى قـرطبة يحتكمون إلى أمـيرها ليقر السلام فـيما بينهم. وهكذا نستطيع أن نرى كيف تمكن عبد الرحمن الناصر بعد سنوات طويلة من العمل الجهيد الدؤوب، من أن يصبح صاحب الكلمة العليا فى إسبانيا، سواء بالنسبة للمسلمين أو النصارى.

وإذاء هذه الانتصـارات التى أحرزها الناصـر، وحتى لا يبدو فى نظـر رعاياه ومعـاصريه، وأنصاره فى المغرب، أقل شأوا من الفاطميين، الذين قـامت خلافتهم فى المغرب منذ أواخر القرن الثالث الهجـرى، لذلك فقد رأى أن من حقه إعـلان نفسه خليفة للمسـلمين فى الأندلس، وكان ذلك فى رمـضان سنة (٣١٦هـ - يناير ٩٢٩م). واسـتمـر عبد الرحـمن الناصر يـحكم كخليـفة للمسلمين فى الأندلس حتى مات سنة (٣٥٠هـ -٩٦١م).

وفيما يلى نص الكتاب الذى تلقب فيه عبد الرحمن بن محمد بالخلافة:

«بسم الله الرحمن الرحـيم، وصلى الله على نبيه مـحمد الكريم. أما بعـد: فإن أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كـرامة الله تعالى ما ألبسه فنحن للذى فضَّلَنَا الله به وأظهر أَثَرتَنَا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا دَرْكَه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذى أساد فى الآفـاق من ذكرنا، وأعلى فى الـبلاد من أمرنا، وأعلق مـن رجاء العالمين بـنا وأعاد من انحرافهم إلينا، واستشارهم بما أظلهم من دولـتنا ـ إن شاء الله ـ، فالحمد لله وَلِىُّ الإنعام بما أنعم

به، وأهل الفضل. بما تفضل علينا فيه. وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك، إذ كل مدْعُوّ لهذا الاسم غير منتحلٍ له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه، وعَلِمْناَ أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذى حق لنا أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فَمُرِ الخطيبَ بِمَوْضِعِكَ أن يقول به، وأَجِدْ مخاطبتَك لنا عليه، إن شاء الله».

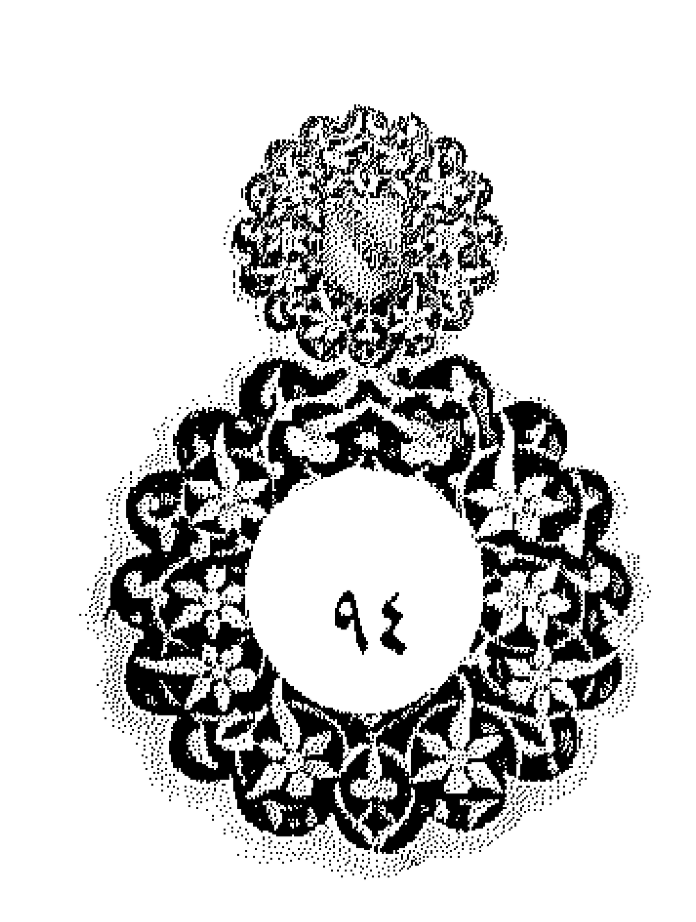
هكذا نرى أن حكم الناصر استمر قرابة خمسين سنة قضى نصفَها تقريبا وربما أكثر، فى إقرار الأمن والقضاء على الخارجين عليه، ودَحْرِ الطامعين من ملوك النصارى الشماليين، وجنى بعد ذلك ثمار ذلك كله خيرا وبركة للأندلس الإسلامية بفضل حكمته السياسية، وقدرته الإدارية، وقوة شخصيته وإرادته.

ويكفى للإقرار بعظمته أن نسمع فيه قول دوزى بأنه «أقرب إلى ملوك العصر الحديث منه إلى ملوك العصور الوسطى، وقد سبق عصره بعشرة قرون تقريبا».

وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اتسم بنزوعه للاستبداد أو الحكم المطلق، فإن ما يشفع له فى ذلك هو ميل الأندلسيين للعنف والثورة والخروج عن الطاعة، الأمر الذى كان يحتم على حاكم كعبد الرحمن الناصر أن يكون عليهم صعبا شديدا مُرا، وهو لنزاهته لم يتورع فى عقاب من تحدّث نفسه بالتآمر ضد وحدة الحكم فى الأندلس، حتى ولو كان هذا من أقرب المقربين إليه بل وحتى لو كان ابنه، كما حدث حين قتل ابنهَ عبدَ الله وجماعة من الفقهاء، قيل أنهم تآمروا عليه.

وإذا كان الناصر قد سجل صفحات من العظمة فى سياسته، فإن هذه العظمة أيضا كانت لها امتدادات أخرى فى العمران والفن والأدب وتجييش الجيش وبناء الأساطيل.

ومع أن حكمه دام حول ٥٠ سنة، وطابت له فى آخرها الايام، لكنه يرى أن أيام السرور التى صفت له بدون تكدير لم تزد ـ طول النصف قرن التى حكمها ـ عن أربعة عشر يوما. ولعل هذا الشعور من جانبه يبين لنا مدى ما بذله عبدُ الرحمن الناصر من جهد جهيد لينهض بأعباء الحكم على خير وجه.



الفصل السادس
خريف الدولة الأموية فى الأندلس
(٣٥٠ - ٤٢٢هـ)

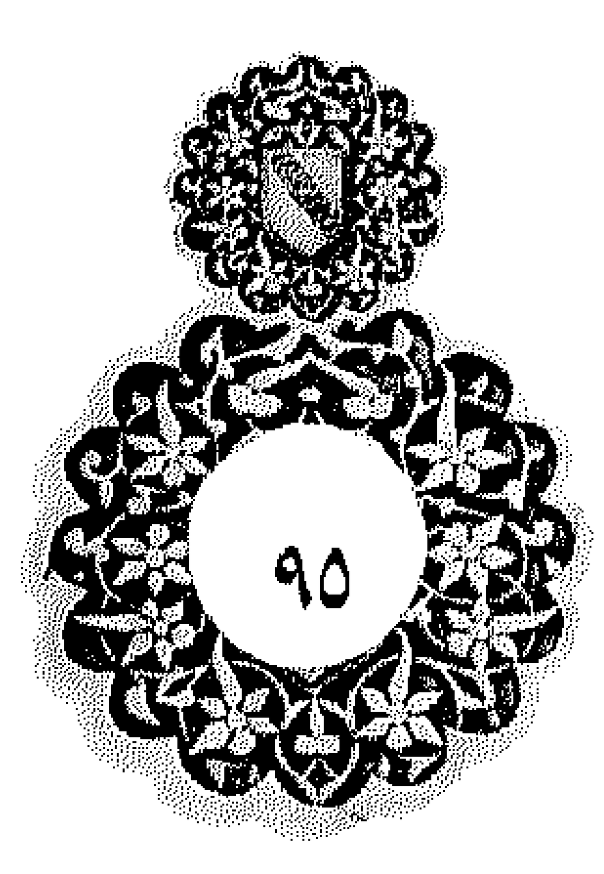
أ - الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ):

تولى الحَكَمُ بعد وفاة والده عبد الرحمن الناصر، وكان عند توليته الخلافة فى العقد الخامس من عمره، وكان أبوه يشاركه معه فى الحكم، وقد تميز الحَكَم بحبه للعلم والعلماء، حتى أن «ستانلى لين بول» وصفه بأنه (دورة كتب). ونضيف بأنه كان على درجة كبيرة من المقدرة السياسية والإدارية والحربية.

وكانت أولى المشاكل التى واجهها الحكم المستنصر، تتمثل فى تنصل النصارى من الاتفاق الذى قَبِلُوه مع والده سنة ٣٤٩هـ. وكان هذا الاتفاق يقضى بأن يُسَلِّمَ النصارى بعض الحصون على الحدود، فلما أتى الحَكَمُ المستنصر ظَنُّوا أن به لينا يمكِّنهم من التمرد على اتفاقهم للناصر، فجرَّد لهم الحَكَمُ جيشا وألزمهم تنفيذها، هذا من ناحية الشمال. أما فى الجنوب (أى فى بلاد المغرب) فقد طمع الأدارسة ـ بعد انتقال الفاطميين إلى مصر ـ فى الاستقلال بُملْكِهم لكن الحَكَمَ لقَّنهم درسا قاسيا، بأن جرد عليهم جيشا بقيادة «غالب» فقضى على دولتهم، وحمل بقايا أسرة الأدارسة إلى قرطبة، وكان هذا آخر العهد لهذه الأسرة التى قامت فى هذه البقعة منذ القرن الثانى الهجرى (١٧٢هـ)، وهكذا نرى أن الحَكَم كان حاكما بسيطا استطاع الحفاظ على حقوق مُلْكِه وحدود دولته. واستمر على ذلك حتى مات سنة (٣٦٦ هـ - ٩٧٦م).

ب - هشام الثانى (٣٦٦ - ٣٩٩هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨م):

لما مات الحكمُ المستنصر بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٦٦ كان، ابنُه هشام صغيرا (١٠ سنوات وشهور)، لا يستطيع إدارة الدولة الأموية فى الأندلس، وقد تسبب ذلك فى وقوع الانقسام بين رجال الدولة حول من يتولى الحُكم خلفا للحكَمِ المستنصر؟ فنرى العسكريين يقررون عدم توليته، ويعينون «المغيرة بن عبد الرحمن الناصر» عم هشام الثانى هذا، حيث رأوا فيه الشخصية الصالحة لتولى الحكم. بينما كان هناك قسم آخر (المدنيون) ـ بزعامة «جعفر بن عثمان المصحفى» ـ يرى تولية هشام الثانى، لما فى ذلك من إتاحة الفرصة لهم لاستمرار سيطرتهم على الأمور، مُدَّعين أن الحَكَمَ المستنصر قد عهد إليهم بهذا الأمر.



وكانت الغلبةُ للقسم المدنى؛ لأنه بادر بالتخلص من المغـيرة باغتياله خنقا بيد «محمـد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى القـحطانى» وبذلك رجحت كفةُ المدنيين، وتولى «هشام الثانى» الحُكْمَ ظاهريا بينما هو فى حقيقة الأمر محجوب عن السلطة، متغـيبٌ عن إدارة الدولة، ليس له من السلطان إلا اسمه، ولا من المُلْك إلا رسْـمُه. وبتـولى هشام الثـانى الحكم يصـبح المسيطر الحـقيـقى على الأندلس هو «محمد بن محمد بن عبد الله أبى عامر المعافرى» دون منازع.

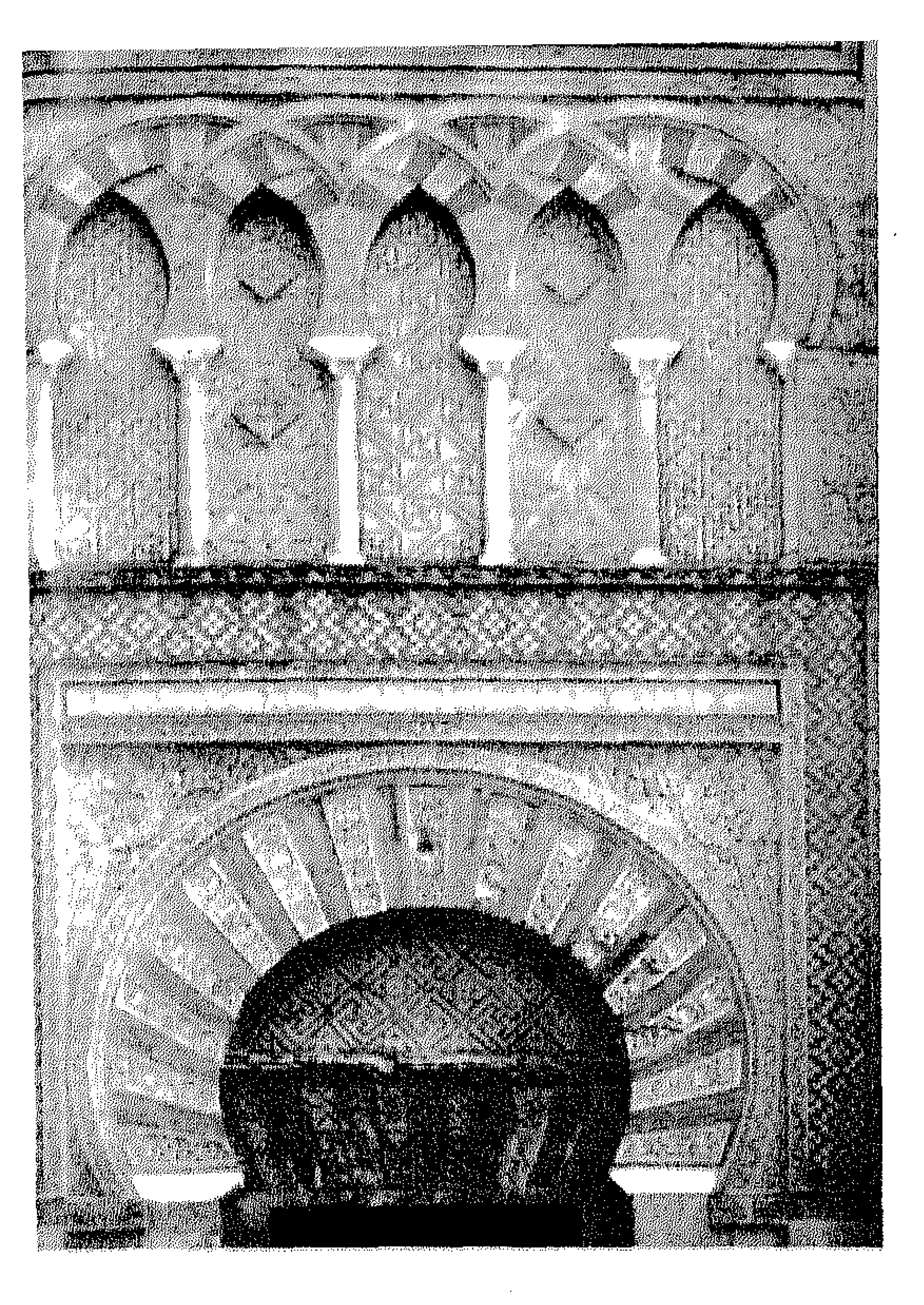
وعلى هذا نستطيع القول: إن فترة حكم الأمويين فى الأندلس من (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ما هى إلا تاريخ لهذا الشـاب الفتى المجاهد المثابـر، الذى اغتال المغيـرة خَنْقا بقبضـة يده. وكان ابن أبى عامر هذا ذا إرادة حـديدية وجرأة وشباب وذكـاء متقد، وكـان من مبدئه «الغاية تبـرر الوسيلة». وبذلك نستطيع القول بأن الدولة العامرية بدأت من سنة (٣٦٦ هـ - ٩٧٦م).

ج - المنصور محمد بن محمد عبد الله بن أبى عامر (الدولة العامرية) (٣٦٦ - ٣٩٩هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨م):

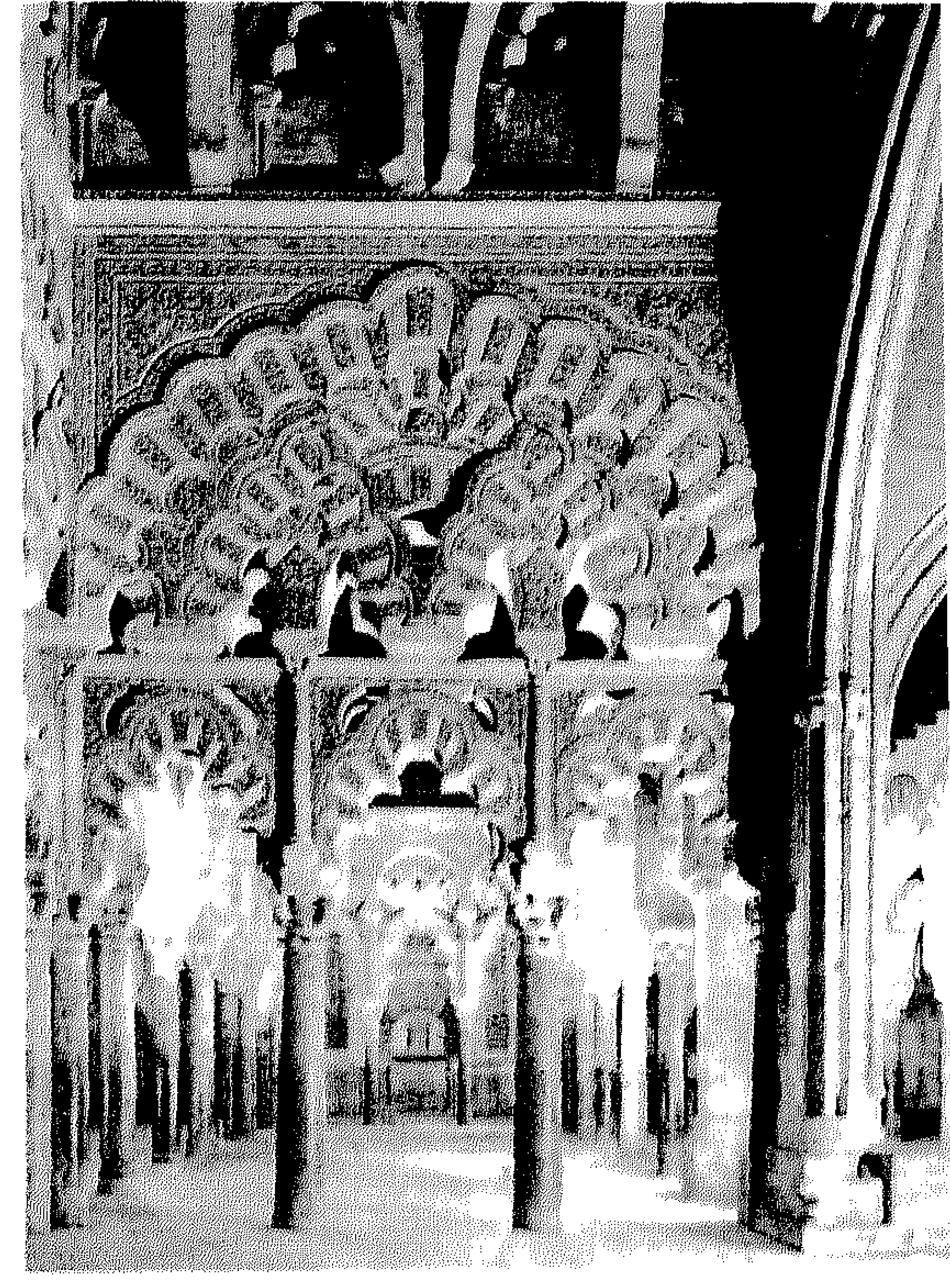
تولى المنصور «ابن أبى عـامر» حجابة هشـام (الثانى) المؤيد؛ لأن الأخير كـان طفلا. وكان لابن أبى عامر همة عالية وطموحة يحدِّثُ بها نفسَه بإدراك معالى الأمور، وتَزَيَّد فى ذلك، وكثيرا ماحَدَّث أصدقاءه بما فى نفسه. ولم يَزل شأنه يَعلو منـذ وفد إلى قرطبة، حتى تعلق بوكالة السيدة «صبح البشكنسـية» «أم هشام، فزاد ترقيـة، وضمن لصبح الاستقـرار فى المُلْك هى وابنها هشام. وقد ساعدته المقـادير، كما أمدَّتْه «صُبحُ» بالمال الذى استـمال به العساكر، وصار صـاحب التدبير المتغلب على الأمـور، وحجب «هشـام الثانى» فلم يظهره لأحـد ولا نفذ له أمرا، بـينما لقب هو نفسه «بالمنصور»، ودانت له الأندلس كلها، وأمِنَتْ به، ولم يضطرب عليه شىء طول حياته لعظم هيبته وفرط سياسته.

ولم تخل فترةَ حجابـته على هشام من أخطار خارجية، إذ جاشت نصارى الشـمال، فجهز لهم المصْحَفِىُّ جيـشا جعل على قيادته «ابن أبى عامـر» لردهم، فنصره الله عليهم، وبذلك علت مكانتهُ وتمكن حبُّه من قلوب الناس. وكان هذا النصر مما شـجع المنصور للاستبداد بالأمور، فمكر بأهل الدولة المنافسين له، وضرب بين رجالها فمال عليهم وحطَّهُم عن مراتبهم، وقَتَّلَ بعضا منهم ببعض، وادعى أن ذلك كله إنما تم بأمر هشام الثانى وتوقيعـه، واستمر على ذلك حتى استأصلَهم وجَمْعَهم.

وبعـد أن خلا له الجو مـن المنافسـين على الخلافـة والسلطة، رجع للجند واستـدعى أهلَ «العُـدْوَةِ» - شمـال مـراكش - من زناتة والبـربر، فرتب جـندا منهم، واصطنع أوليـاءَ منهم ومن



مدخل مسجد الحكم
المستنصر - قرطبة



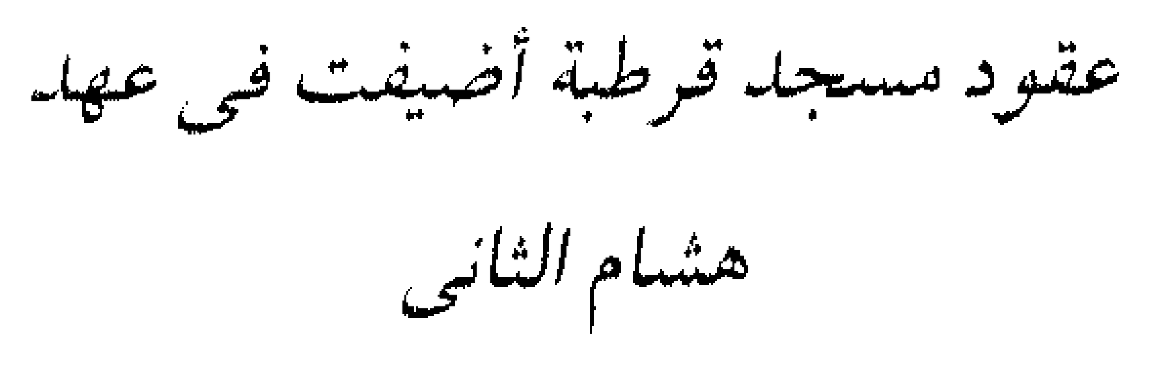
البلاطة الرئيسية لمحراب الحكم الثانى - قرطبة



صندوق من العاج للمغيرة بن الناصر



عقود مسجد قرطبة أضيفت فى عهد
هشام الثانى



صنهاجة ومغراوة وبنى يفرن ويرزال ومكناسة وغيرهم من البربر، وأخَّرَ العرب وأسقط عنهم رواتبهم وأسقطهم عن مراتبهم.

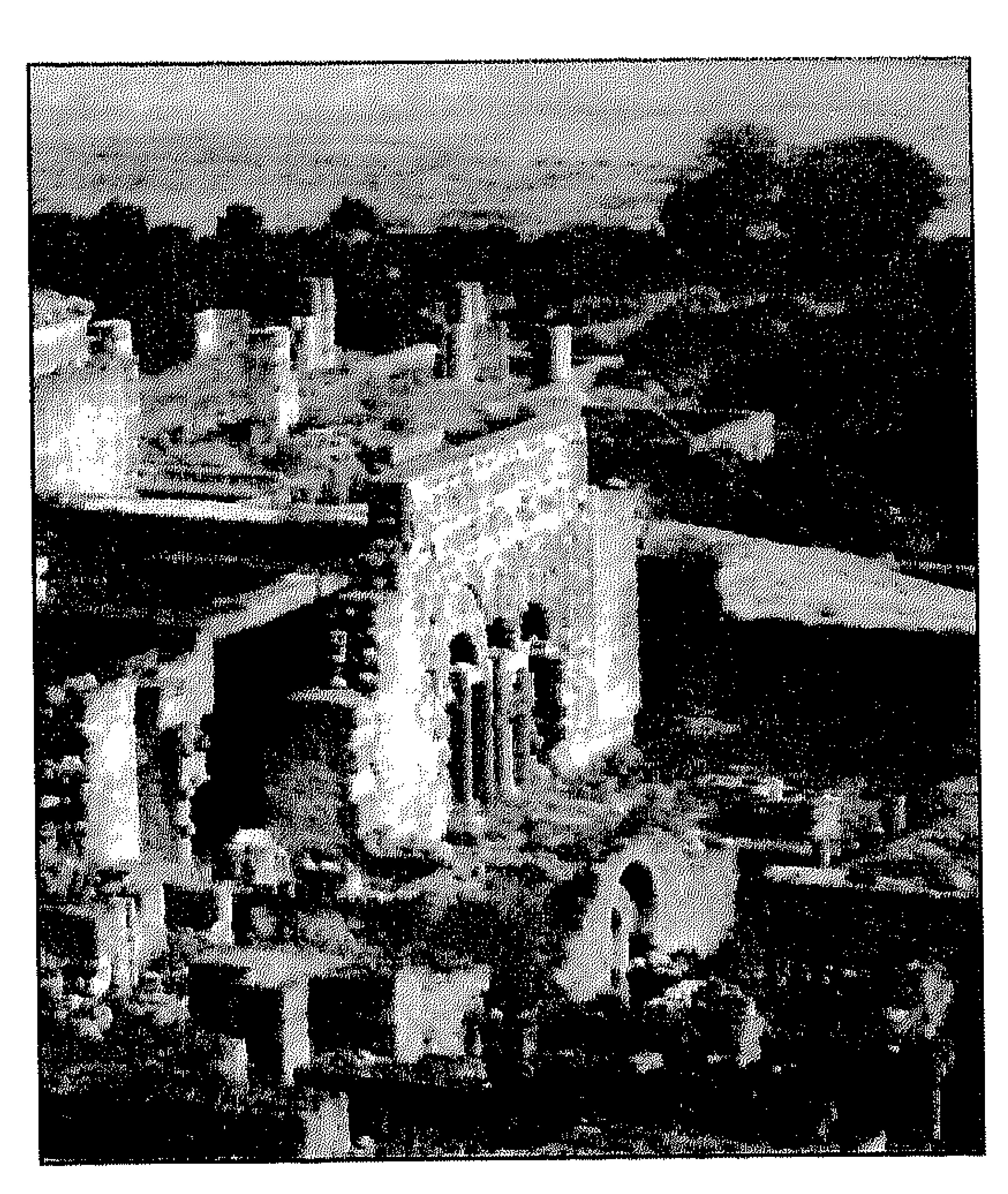
وبذلك استطاع المنصور بن أبى عامر الاستقلالَ بالمُلكِ والاستبدادَ بالأمر، فتغلب على هشام وزاد فى حجره، واستبد بأمور الدولة، وملأ الدنيا وهو فى جَوْف بيته من تعظيم الخلافة، والخضوع لها ورد الأمور إليها، وترديد الغزو والجهاد ما شاء له دعاؤه وإقدامه. وفى نفس الوقت شرع فى بناء مدينة جديدة: هى «الزاهرة» لتكون عاصمة لملكه، فشرع فى بنائها سنة ٣٦٧هـ وانتهى منها سنة ٣٦٩هـ، قال المقرى: «وفى سنة ٣٧٠هـ انتقل المنصور إليها، ونزلها بخاصته وحاشيته، وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل فى داخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرجاء، ثم أقطع ماحولها لوزرائه وكُتَّابه وقواده وحُجَّابه، فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات والمنزهات، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، حتى اتصلت أرباضُها بأرباضِ قرطبة وضواحيها». ثم عين لها واليا (محافظ الآن).

«وهكذا تم للمنصور بن أبى عامر ما أراد تحقيقَه من استبداد بالسلطة، وحَجْرٍ على هشامُ. فأقام هشام الثانى: خَفِيَّ الذكر، عليل الفكر، محجوب الشخص، لا يرادهُ خاص ولا عام، غير أن ابن أبى عامر ربما أركبه فى بعض الأحيان وجعل عليه برنسا وعلى حواريه مثل ذلك، فلا يعرف منهن، ويأمر من ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ثم يعود»، وكان المنصور إذا سافر وَكَلَ بهشام المؤيد من يفعل معه ذلك.

وعلى ذلك كان تصرف ابن أبى عامر سببا فى انقطاع ملك بنى أمية بالأندلس. وأخذ مع ذلك فى قَتْلِ من يُخْشَى منه من بنى أمية، خوفا أن يثوروا به، ويُظْهِرُ أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد، حتى أفنى من يَصْلُحْ منهم للولاية، ثم فرَّقَ باقيهم فى البلاد، وأدخلهم زوايا الخيول عارين من الطارف والتلاد، وربما سكن بعضُهم الباديةَ، وترك مجلس الأبهة وناديه.

وكان المنصور بن أبى عامر، مُحِبًا للعلم والعلماء فأكرمهم، وكان يجلس كل أسبوع فى مجلس العلم للمناظرة. وكان يفعل ذلك بهدف سياسى هو التفاف العلماء حوله حتى يدعم دولته وسلطانه؛ ولذلك لم يتورع عن إحراق كتب الفلسفة إرضاء للفقهاء مع أنه كان يعنى بها فى الباطن.

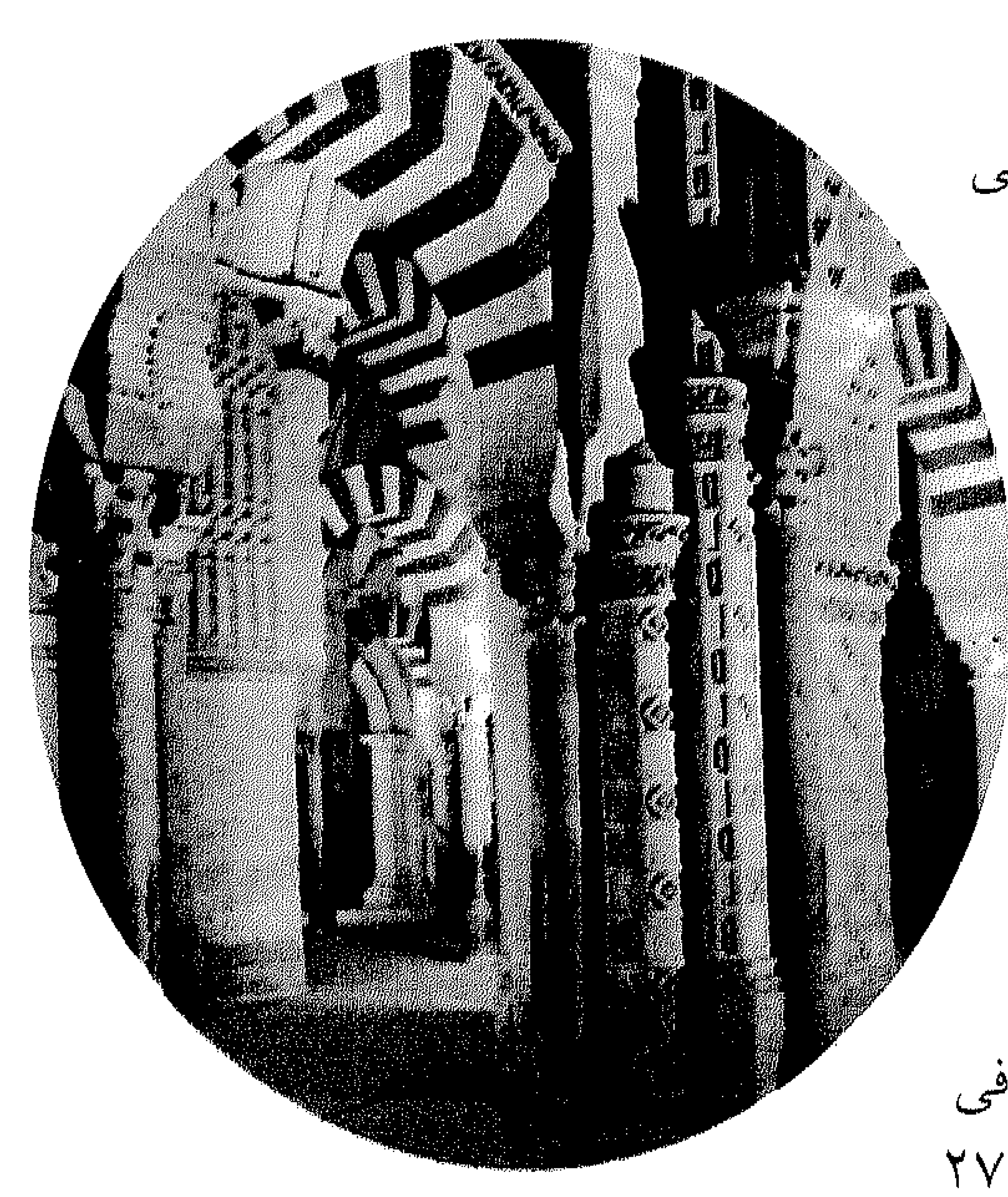
وقد حفل عهدُ المنصور بالكثير من الفتوح والغزوات، ففتح الكثير من البلدان التى استعصت على من كان قبله، فملأ الأندلس غنائم وسبيا. وكان مما ساعده فى ذلك عاملان: انتقال الخلافة الفاطمية للمشرق، والعامل الثانى هو ما كان بين الدويلات النصرانية فى الشمال من



بقايا قصر مدينة الزهراء

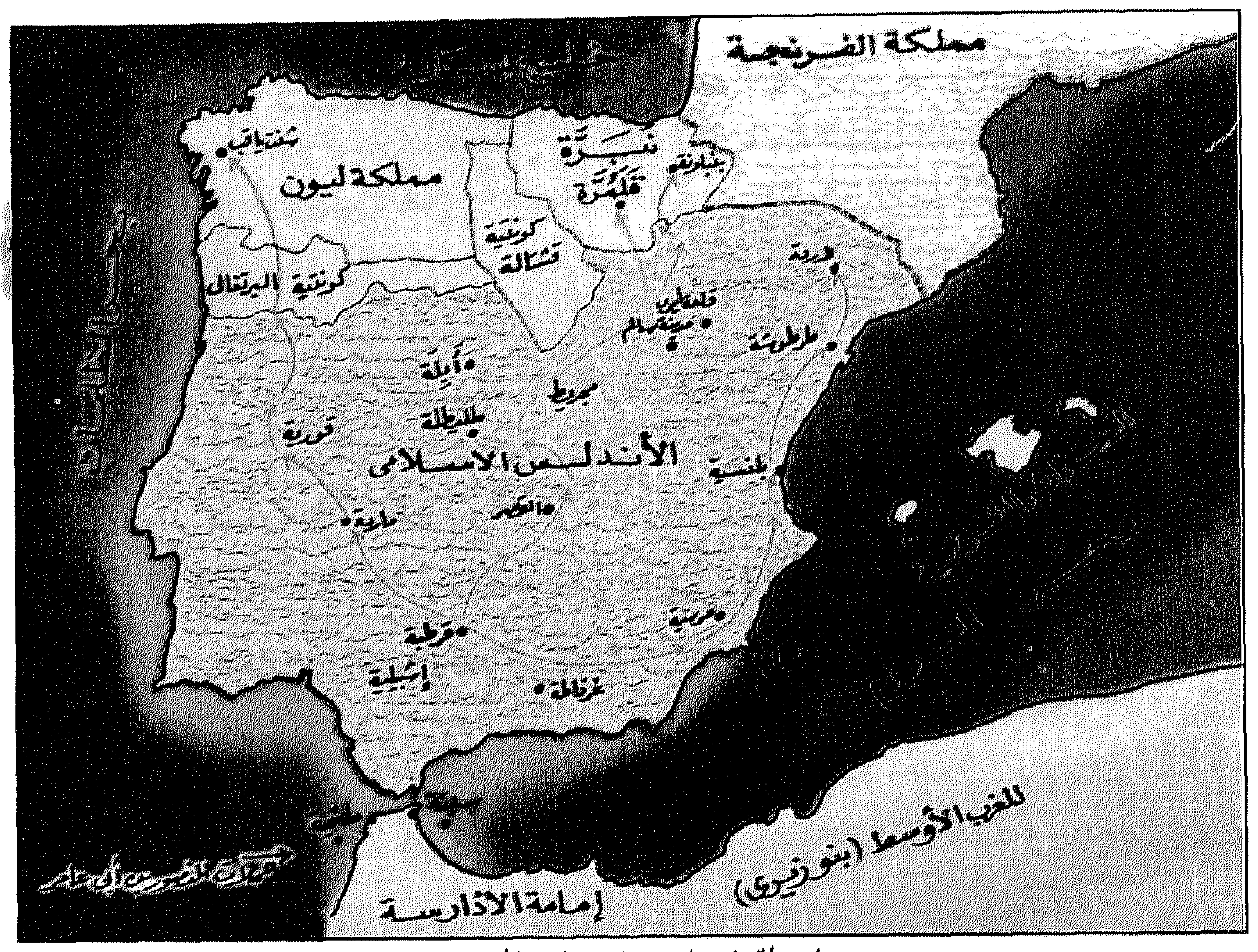
منازعات داخلية. مما أتاح له فرصة الانتصار في المغربين الأوسط والأقصى، وكذلك في شمال شبه جزيرة أيبيريا. ولذلك لَقَّبَ نفسه سنة ٣٧٠هـ «المنصور بالله»، وكان كثيرَ الغزو فغزا مدن: سمورة سنة ٣٧٤هـ، وبرشلونة سنة ٣٧٤هـ، وليون سنة ٣٧٧هـ التي حطم أسوارها وأبراجها، وأخضع مَلِكَتَهاَ لدفع الجزية.

وفي سنة ٣٨٧ هـ، توغل في ممرات جليقية الجبلية، وضرب كنيسة «سانت يعقوب» التي يزورها الحجاجُ المسيحيون الأوربيون، ثم دخل قرطبة منتصرا وأمامه الأسرى من النصارى وهم يحملون على أكتافهم أبواب الكنيسة التي وُضِعَتْ في المسجد الكبير في العاصمة، ويحملون أيضا أجراس الكنيسة فَحَوَّلَهاَ لمصابيح، والحق أن نجم الأندلس لم يزدهر في عهد بمثل ما حدث في عهده وعهد عبد الرحمن الناصر.



بلاطات المنصور في مسجد قرطبة

وكان من عادة «المنصور محمد بن أبي عامر»، عند عودته من الغزو، أن يأمر بنَفْض ثيابه التي قاتل فيها وحِفْظُ ما ينتَشِرُ منها مَن غبار، حتى إذا حضرته الوفاة أمَر بنثر ما اجتمع من ذرات غزواته على كفنه إذا وضع في قبره. ورغم كثرة غزاته، إلا أن وفاته كانت لبِطْنَة أصابته في «مدينة سالم» أقصى ثغور المسلمين. مثله في ذلك مثل القائد البطل سيف الله المسلول «خالد بن الوليد». قال «المراكشي» معلِّقا على وفاته: «فصحت له الشهادة، وتحققت رغبته في أن يموت مجاهدا في سبيل الله، وذلك في سنة ٣٩٣هـ، ومدة ملكه ٢٧ سنة، وعمره ٦٥ عاما.



خريطة غزوات وفتوحات المنصور

ومما يدلنا على الشجى الذى كان يعانيه ملوكُ النصارى من غزوات المنصور بن أبى عامر، ما رواه المقرى فى نفح الطيب عن «شجاع» مَولَى المستعين بن هود ـ أحد ملوك الطوائف ـ إذ قال: «لما توجهت إلى اذفونسن وجدته فى مدينة «سالم» وقد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لى يا شجاع أما ترانى قد ملكتُ بلاد المسلمين وجلست على قبر مَلِكِهم؟ قال ـ أى شجاع ـ فحملتنى الغيرة على أن قلتُ له: لو تنفَّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه، ما سمع منك ما يَكْرَهُ سماعَهُ، ولا استقر لك قرار بى، فحالت امرأته بينى وبينه وقالت له: صدقك فيما قال، أيفخرُ بمثل هذا؟

على أن هذه القصة وإن كانت تسجل فخرا لابن أبى عامر الذى أذل ملوك النصارى أمثال أذفونسن وغيره، حتى أنهم لم يقدروا عليه إلا ميتا فيشمتوا فيه شماتةَ الجبناء الضعفاء، إلا أنها تسجل أيضا حال الذلة والمهانة التى صارت إليها الأندلس أيام ملوك الطوائف، بعد الذى كانت عليه من العزة التى عاشتها أيام البهاليل من خلفاء بنى أمية ورجال دولتهم.

لكننا من ناحية أخرى نُحَمِّلُ المنصورَ بن أبى عامر تبعات ما حدث بعده. حقيقة لقد مهد المنصورُ الأندلسَ، ورفع ذكرَها، وأعلى كلمتَها، لكنه لم يصل إلى ذلك إلا وقد قضى تماما على رجالات الدولة، وطاردَ أبناء الأسرة الأموية، وترك الأندلسيين بعده سواسية كأسنان المشط، لا

يرى أحدٌ منهم لأحدٍ فضلا. فنزعوا للاستقلال بالولايات، وانتحال الألقاب؛ حتى صارت الأندلس مسرحا تُمثَّلُ عليه المهازل المضحكة بل المآسى المخزية المبكية.

كما أننا نخرج إلى جانب ذلك بنتيجة أخرى هى أن بنى هود وغيرُهم من ملوك الطوائف كانوا أذلَّ من أن يحموا رسولهم إلى أذفونسن، وإنما حمته امرأة الأذفونسن نفسها، إكراما للسيد الدفين (المنصور بن أبى عامر).

وبعد، فهل نستمر فى الحديث عن الدكتاتورية المصطنعة لابنى المنصور من بعده؟ وهل نواصل الحديث عما ساد الأندلسَ من فوضى شاملة عُقَيْبَ انهيار سلطان الدولة الأموية بالأندلس، وكان شامخا عظيما، ثم هل نتكلم عن دويلات ملوك الطوائف التى قامت على أنقاضها؟ وهل نجد فسحة من الوقت لنستبين دَوْرَ دولتى البربر العظيمتين «دولتى المرابطين والموحدين»، اللتين كان لهما الفضلُ فى استمرار السيادة الإسلامية على القسم الأكبر من الأندلس لمدة قرنين من الزمان بعد ذلك؟

ثم ماذا عن دولة بنى الأحمر فى غرناطة «الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس» التى استمرت قرنين آخرين، ختما بتلك القصة الموجعة، قصة خروج المسلمين من الأندلس وحرمانُهم من ذلك «الفردوس المفقود».

د - الأندلس فى عهد خلفاء المنصور:

لما توفى المنصور بن أبى عامر، قام بالأمر بعده ابنه «عبد الملك المظفر»، فنهج نفس منهج والده فى الغزو، واستمر حكمُه سبع سنوات، من (٣٩٣ - ٣٩٩هـ). وبعد وفاته ثارت الطوائف فى ممالكهم، وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم، وكانت أول غزوات عبد الملك المظفر وعددها سبع غزوات سنة ٣٩٣هـ، موجّهة إلى بلاد الفرنج، فدوَّخَ بسائط برشلونة، وفتح حصن القصر وأسكنه المسلمين.

وعندما رأى ملك القوط «أذفونسن بن أردن» المعروف «بابن البربرية» انتصارات «عبد الملك المظفر»، رغب فى مهانته. فبعث إليه سنة ٣٩٣هـ وفدا من وجوه النصارى وفرسانهم، كان منهم خاله «شانجة بن غرسيه» زعيم الجلالقة صاحب قشتالة وأبة. وتعهد الجميع باحترام الصلح السابق عقدُه فقبل عبد الملك المظفر عرضَهم وأكرمهم.

وبعد ذلك توجه لفتح برشلونة ففتح بها (ستة حصون) كما دمر ٨٥ حصنا.

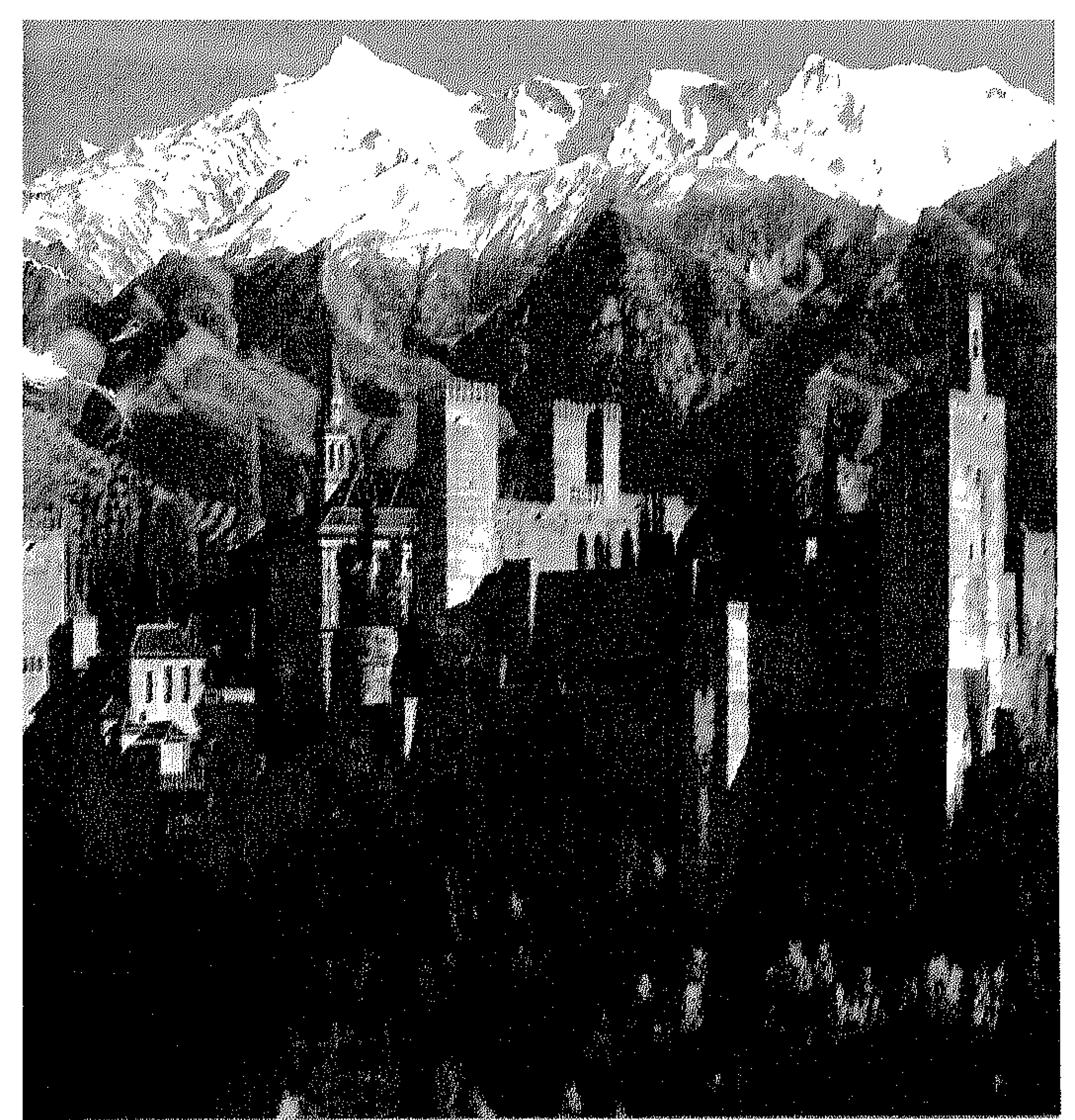
ولقد حفلت الفترة من ٣٩٥ هـ حتى آخر القرن الرابع الهجرى (أى خلال عهد عبد الملك المظفر) بانتصارات كثيرة أحرزها على ممالك النصرانية والفرنج، فغزا جليقية سنة ٣٩٥هـ، ثم بنبلونة وسرقسطة، ووشقه، وبربشتر، وذلك سنة ٣٩٦ هـ. وفى العام التالى (٣٩٧هـ) غزا قشتالة ـ وهى من أعمال الطاغية شانجة بنى غرسية ـ وعرفت غزوته تلك بغزوة النصر، إذ انتصر فيها عبد الملك المظفر بجيوشه. ثم قام فى شتاء سنة ٣٩٨هـ بغزوته السادسة واحتل «شنت مرتين»، وكانت السابعة فى نفس السنة. وقد قال فيها «ابن عذارى» نقلا عن «ابن حيان» ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الإسلام، ومؤذناتها بما جرى عليه من الانثلام، علّته الشديدة بمدينة سالم أثناء خروجه لها سنة ٣٩٨هـ، . . . . لقصد عدو الله شانجة، فصَدَّتْه ـ أى العلّةُ ـ عن الدخول إليه بجموع المسلمين، واشتدت به العلة مدة تفرّق عنه فيها أكثرُ المطّوِّعةُ، وصارت على الإسلام مصيبة، بما أوهنت من بطش عضده، ونقصت من حفيل عدبه. وقد رام المظفر من ذلك كله الاقتحام على أعداء الله فى حال نقاهته طمعا فى إتمام غزوته، فكانت آخرُ صائفة نفذت من الحضرة «قرطبة» وألقتْ بِركْبِها الفتنة.

ولما مات «عبد الملك المظفر» سنة ٣٩٩هـ، خلفه أخوه «عبد الرحمن الملقب» شنجول ـ لشبَهِه بجده لأمه شانجة النصرانى القوطى.

وكان شانجول على غير أخيه، أَرْعن غيرَ سديد، مسرِفا فى الإنفاق، وقد أمر «هشام بن الحكم» ـ الخليفة ـ أن يوليه عهدَ الخلافة ويلقبه «ولى عهد المسلمين» ففعل هشام لضعفه. وكان ذلك مما أغضب عليه أكابر الأندلس.

ويعلق شكيب أرسلان على ذلك بأن هذه هى الغلطة الكبرى، التى بدأ بها انقراض دولة المنصور ودولة بنى أمية ودولة الإسلام كلها فى الأندلس؛ لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين، وبدأت الحربُ الأهليةُ بين المسلمين وبعضهم، فتركوا الثغور عورة لمن يقتنصها، ووَجَدتْ ملوكُ الطوائف يقتتلون ليلا ونهارا بمشهد من عدو الأمة بل وبإغراء لهذا العدو باستعانة المتنازعين به بعضُهم على بعض؟.

وقد دبر المضربون (من بنى أمية) مؤامرة لخلع «شانجول» عبد الرحمن وهو فى إحدى صوائفه للجلالقة. فوثب المتآمرون بصاحب الشرطة فقتلوه، وخلعوا هشاما، وبايعوا محمد بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقبوه «المهدى بالله». وانفض الجمعُ من حول شانجول (عبدالرحمن)، وقفل إلى قرطبة وحيدا، بينما تسرب جندُه وبايعوا المهدى، وحرضوه على عبدالرحمن، فخرجت إليه فرقة من الجيش فقتلته وحملوا رأسه للمهدى بالله. وبذلك زالت دولة العامريين وأصبحت أثرا بعد عين، كأن لم تغن بالأمس.





قصر الحمراء – غرناطة

١٠٢

والحقيقة أن المهدى بالله لم يكن خَيْرا من سابقه، ولم يكن يمثل دولة بنى أمية العظيمة التى كانت قد فقدت قوتَها منذ أيام الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، الذى كان أول من دق المسامير فى نعش هذه الدولة التى أعزت الإسلام فى الأندلس وحَفظَتْ سيادته، مثلما حفظته قبل ذلكَ فى دمشق.

ذلك أن هذا الجيل المتأخر منهم - أمثال المهدى بالله - نسى طرائق أجداده وآبائه فى سياسة الدولة واصطناع الأعوان. فوقع الخراب والاضطراب واستحكمت بذور الشقاق وأَوْرَقَتْ شجرتها، فسخطتهم الأنفس، ولفظتهم القلوب، واضطر أهل قرطبة إلى طرد آخر بقايا بنى أمية، وصاروا يتوجسون خيفة من كل من يتعصب لهم.



آثار مدينة الزهراء

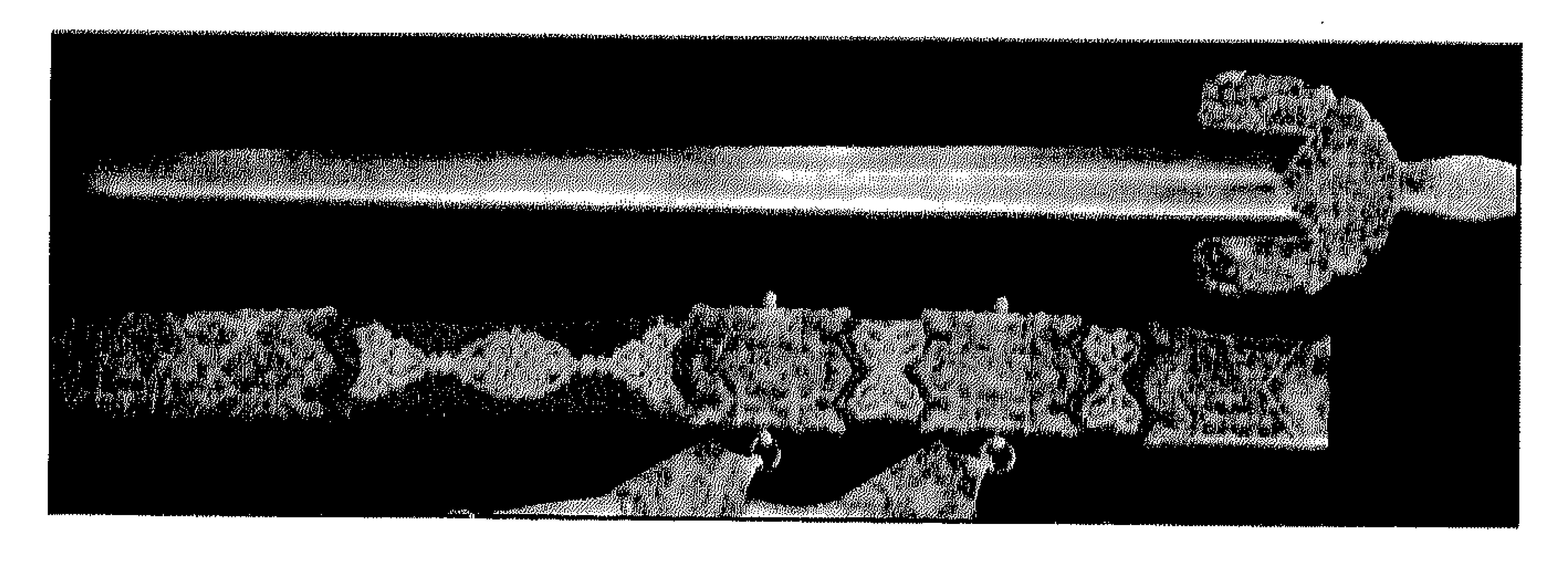


وقد رأينا ـ قبل قليل ـ أن البربر ـ عمادُ الجيش العامرى ـ هم الذين نصروا «المهدى بالله» على عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر (شنجول). فكان من الكياسة والحكمة أن يبادر المهدى إلى مصانعة تلك القوة توقيا لشرها. لكنه لغبائه وحماقته حَقَدَ عليهم وتعسف معهم، فجرد نفسه بنفسه من سلاحه، وفتح بذلك باب الفتنة على مصراعيه، فلما رأى البربرُ ذلك أسرُّوا نجواهم وتدبَّروا فى إسقاط المهدى، ومبايعة ابن عمه هشام بن سليمان بن الخليفة عبد الرحمن الناصر. وفشا فى الخاصة حديثُهم، فعوجلوا فى أمرهم ذلك وأغْرَى بهم السوادَ الأعظم ـ العامة ـ فثاروا بهم وطردهم من قرطبة، وقبض على هشام وأخيه أبى بكر، وقُتلاَ بين يدى المهدى، فانفتح بذلك باب الفتنة والخلاف بين الأمويين.



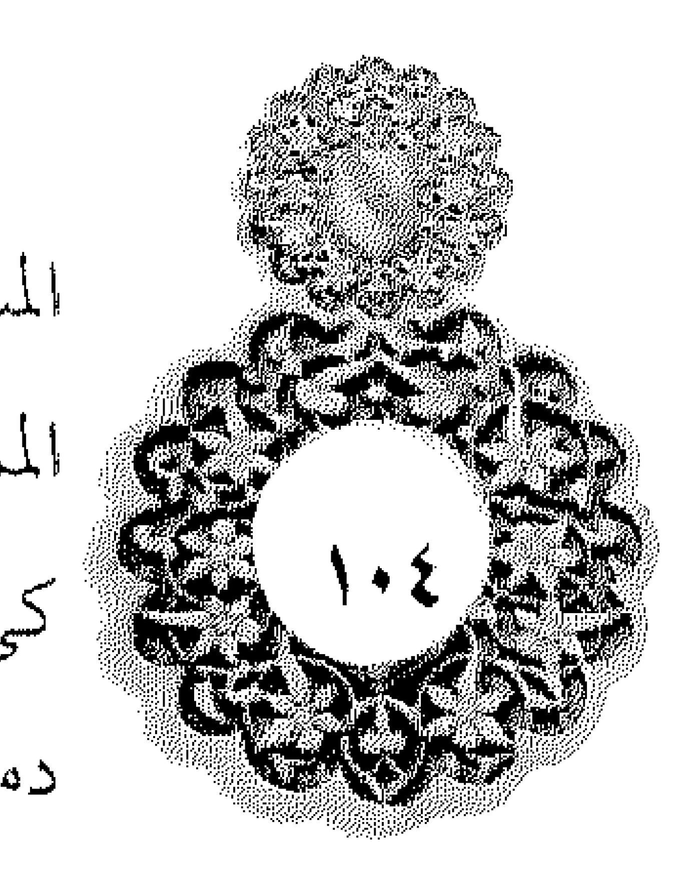
مدخل سان شيفانو – مسجد قرطبة بعد السقوط

هكذا أصبحت قرطبة مسرحا للفوضى والاضطرابات، وتفنن كل فريق فى الفتك بالفريق الآخر، فأسقطوا هيبة المسلمين ودولتهم، وخاصة حين استعانوا على بعضهم بمسيحيى شمال إسبانيا، فتمكن هؤلاء من رقاب المسلمين ومدنهم وحصونهم وثغورهم، وفقد المسلمون فى الفتنة المدلهمة نحو مائتى مدينة وقلعة.



سيف آخر ملوك الأندلس المسلمين –

محمد أبو عبد الله سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م



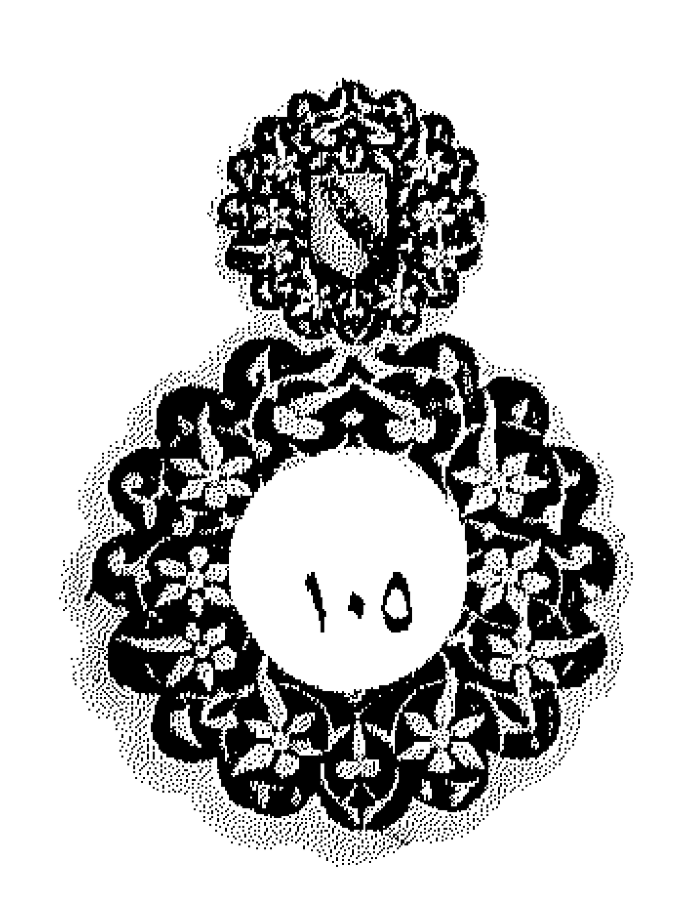
وهكذا يكون الحال، حين تستحكم النذالة وحب السلطان، فبعد أن كان المسلمون يمثلون جانبا مهابا محترما يملى إرادته وشروطه على ما يجاورهم من الممالك والدول المسيحية، إذا بهم اليوم يستجدون معونتهم ويمهدون لطغاتهم، كى يصبحوا هم (النصارى) أصحاب الكلمة العليا بين المسلمين، يخوضون فى دمائهم، وينتهكون حُرُماتِهم، ويتجرأون على مقام النبى الكريم ويسبونه فى عاصمة المسلمين ومعقل عزهم، فيغضون الطَّرْفَ ويكسرون الجناح.

ويكفى لإدراك مدى اضطراب الحال فى الأندلس فى هذه الفترة (٤٠٠ - ٤٢٣هـ) أن نعلم أن من تولى الخلافة الأموية فى الأندلس إبانها من الأمويين وغيرهم كانوا ستة هم: المهدى بالله والمستعين، والمرتضى، والمستظهر، والمستكفى، والمعيد، كما تولاها ثلاثة آخرون هم: على والقاسم ويحيى.

وانقسمت البلاد بين ملوك الطوائف، واستمر الصراع بينهم إلى سنة ٤٦٠هـ، لدرجة أن كان هناك أربعة منهم يحكمون مساحة لا تزيد على ثلاثين فرسخا (٩٠ ميلا) وكل منهم يلقب خليفة وهم: الواثق والمتأيد والمهدى والمستعلى، وصدق فيهم قول الشاعر:

مما يزهدنى فى أرض أندلسٍ ... ألقاب معتصم فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكةٍ فى غيرِ موضعِها ... كالهِرِّ يحكى انتفاخا قصة الأسد

ولم تنج قصور الخلافة من الخراب والدمار والنهب، بل كان هناك من اشتهر بهدمها وهو «ابن باشه» الذى قال عنه ابن حيان القرطبى: هَدَّامُ القصور، والمعمور، وكان من التبجج فى اللؤم مع دناءة الأصل والفرع على ثبج عظيم، بيده بادت قصور بنى أمية الرفيعة، ودَرَستْ آثارُهم البديعة، وحُطتْ أعلامُهم المنيعة... فعاث فيها عِيَاثَ النار فى الهشيم. وكانت رسل الأملاك (ملوك الطوائف) تأتيه لشراء ما يثلبه من القصور من التحف والآلات.. وقد ابتليت بهذا الإنسان الضعيف القُوَى ابتلاء سد مأرب بالجرذ المهيض، فدكها حتى عادت كَوْمَ رماد، ولم يقلع عنها حتى أضرم النار بصخورها، وسَيّرها كلْسا يبيعه لكل مرتاد». ويعلق على هذه الحال ابن بسام فى كتابه «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» (ج ـ ٢ ص ١١١ - ١١٣) فيقول: «فيا لها موعظة لمن بقى على الأرض ممن لحق هذه البقعة، التى سعدت بدولة أملاكها ـ الأمويين ـ فتبارك مُنَزِّلُ الآيات، ومصرِّفُ الدولات، ومبدل البقعات».





١ - أبو المحاسن بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ١، ٢.

٢ - أبو حنيفة النعمان بن حيون: المجالس والمسايرات (مخطوطة).

٣ - ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٥ و٦.

٤ - ابن الأبار: الحلة السيراء (جزءان).

٥ - ابن القوطية: افتتاح الأندلس.

٦ - ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٣ و٤.

٧ - ابن عذارى: البيان المغرب فى حلى المغرب.

٨ - ابن قتيبة الدينورى: الإمامة والسياسة (جزءان).

٩ - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس.

١٠ - المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

١١ - المقرى: نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب (٤ أجزاء).

١٢ - حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى. جـ ١، ٢.

١٣ - حسين مؤنس: ثورات البربر فى أفريقية والأندلس. (مقال منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١، المجلد ١، مايو ١٩٤٨).

١٤ - حسين مؤنس: فجر الأندلس.

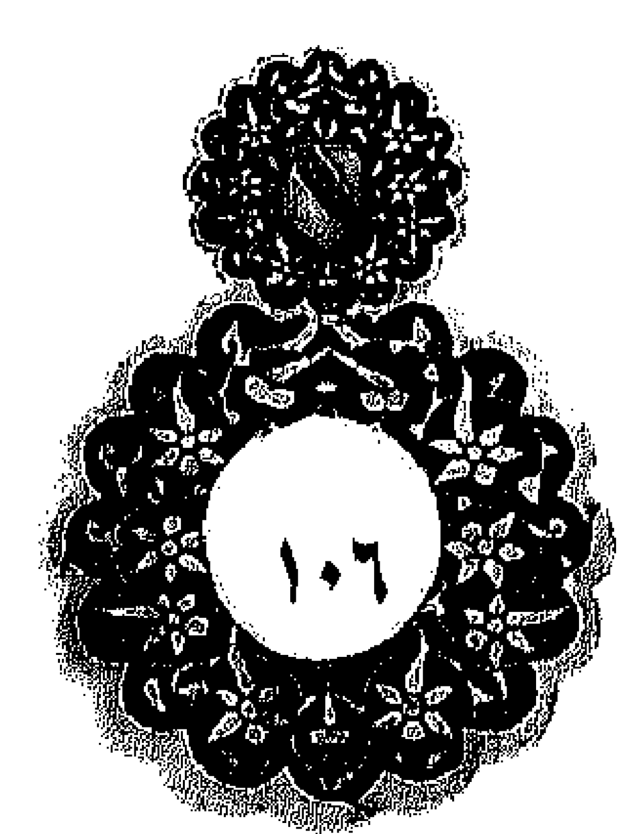
١٥ - صابر محمد دياب: سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط.

١٦ - عبد الحميد العبادى: المجمل فى تاريخ الأندلس.

١٧ - على حمودة: تاريخ الأندلس السياسى والحضارى.

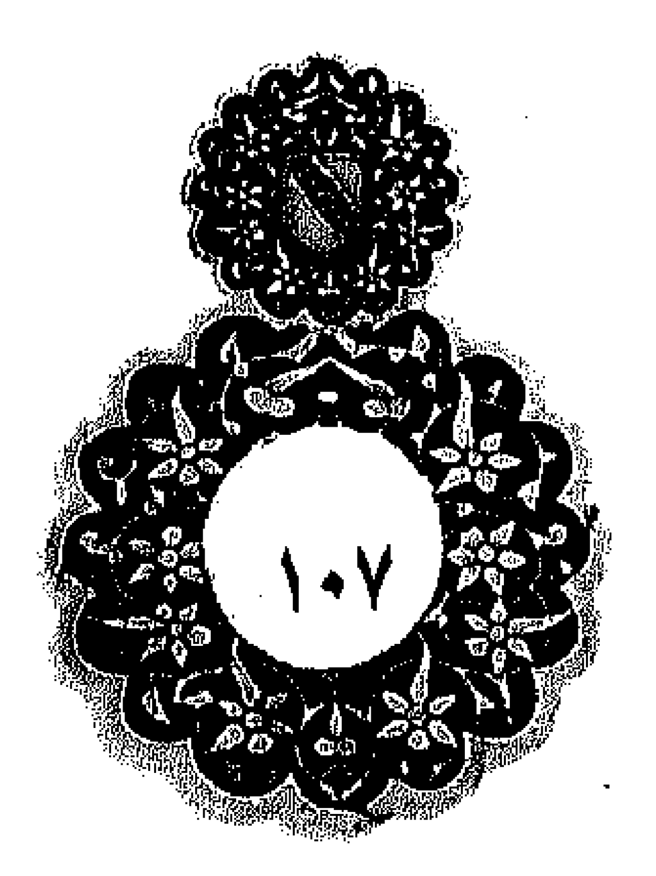
١٨ - مجهول: أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس.

١٩ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس.

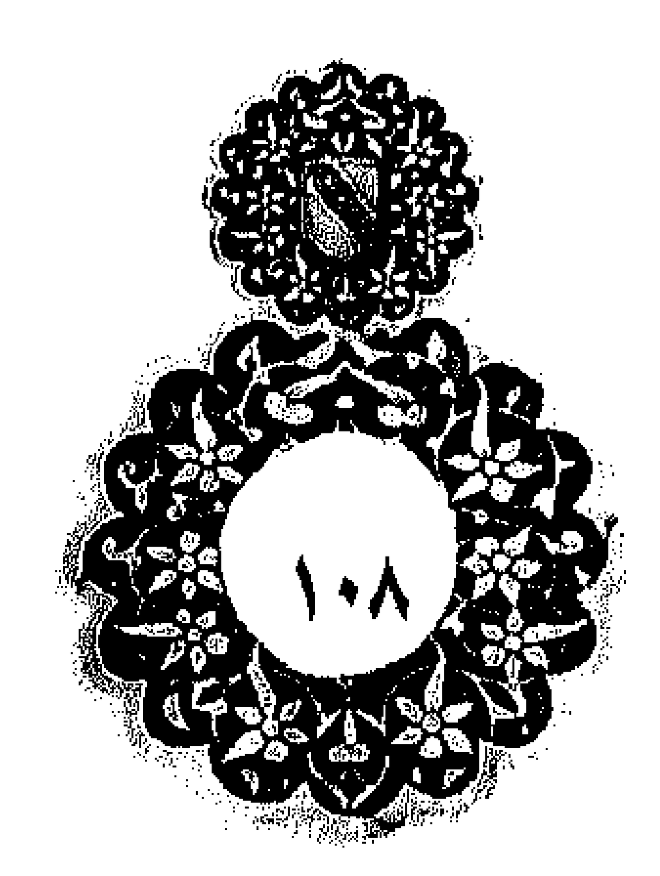




الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة



الموضوع | الصفحة

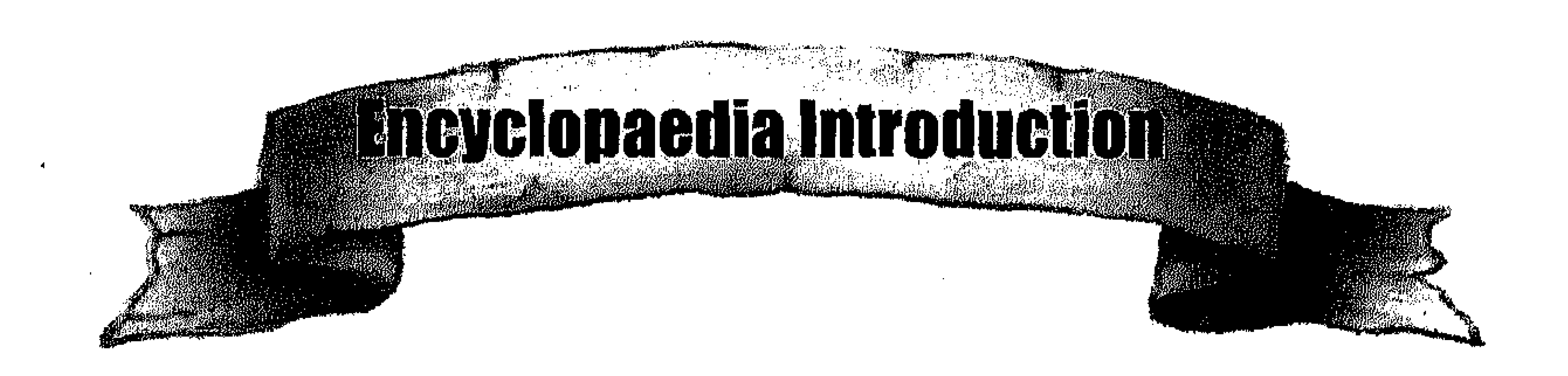


This book deals with the Muslim conquest of Spain in 92 H. until the downfall of Umayyad Dynasty in 422H. The author dwells upon the stages of the conquest, with reference to the conditions of Ostrogothic Spain, then there is a survey of the Wulah "Walis" age until the advent of Abdel Rahman Al - Dakhel " The Falcon of Quarysh"in 138H.

The relations between the Arabs of Spain and the Berbers in North Africa are also examined in order to reveal the repercussion of these relationships.

The Ummyad Dynasty in Spain came to an end at the hands of their Hujaabs " Marshals" in the year 422H. The New rulers were from Beni Amer, who stayed in power from 422H. Until the rise of "Twaef Kings". At this turning point, the Arabs in Spain began to lose grounds, and their history in Spain came into a dark channel which ended by the fall of Grnada in 1492 A.D. The only reason behind this downfall was the state of split, disunion, and personal greed. Had the Arabs been united in one strong front nobody could have overpower them in Spain.

Dr. Saber Diab



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

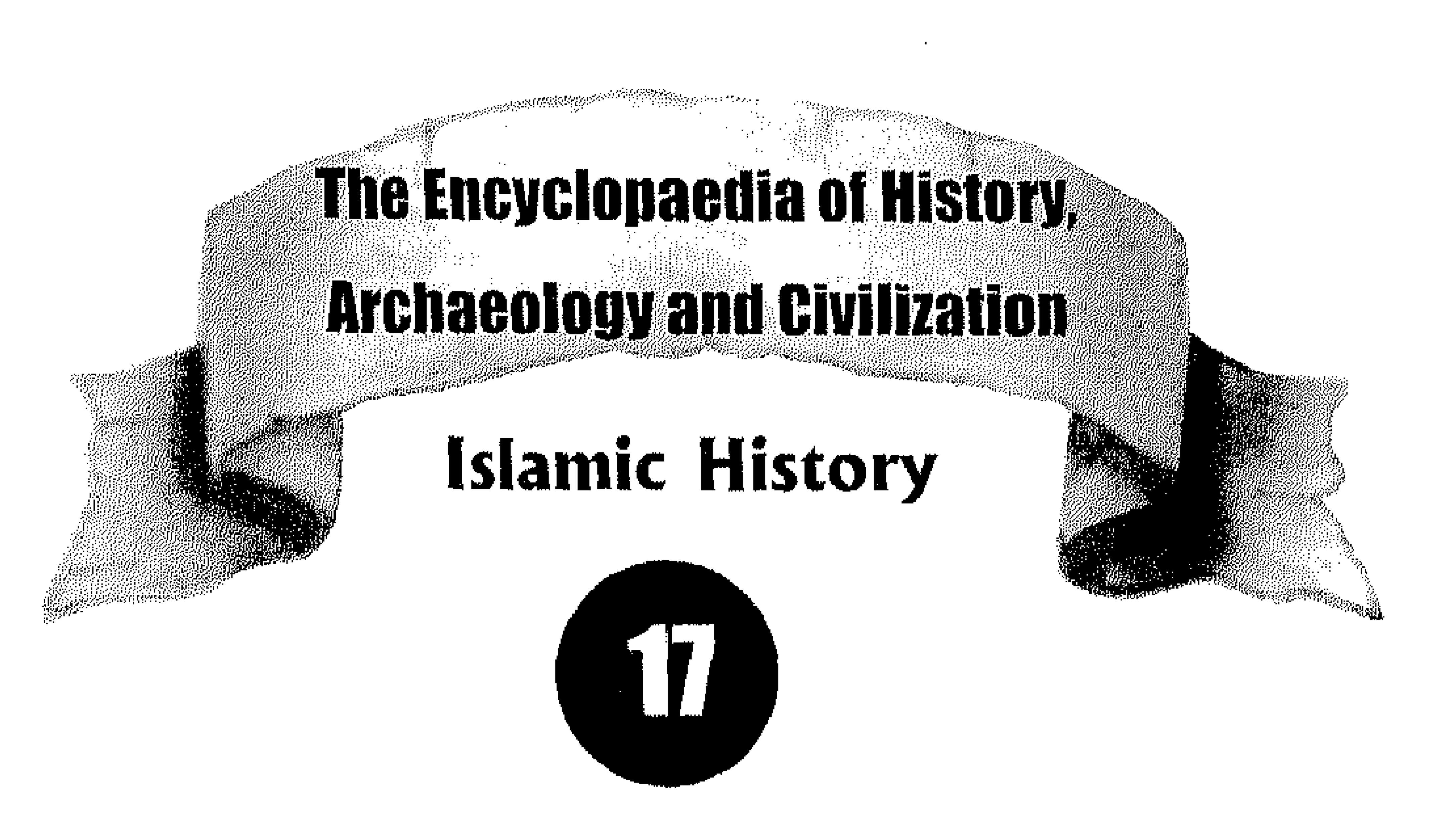
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

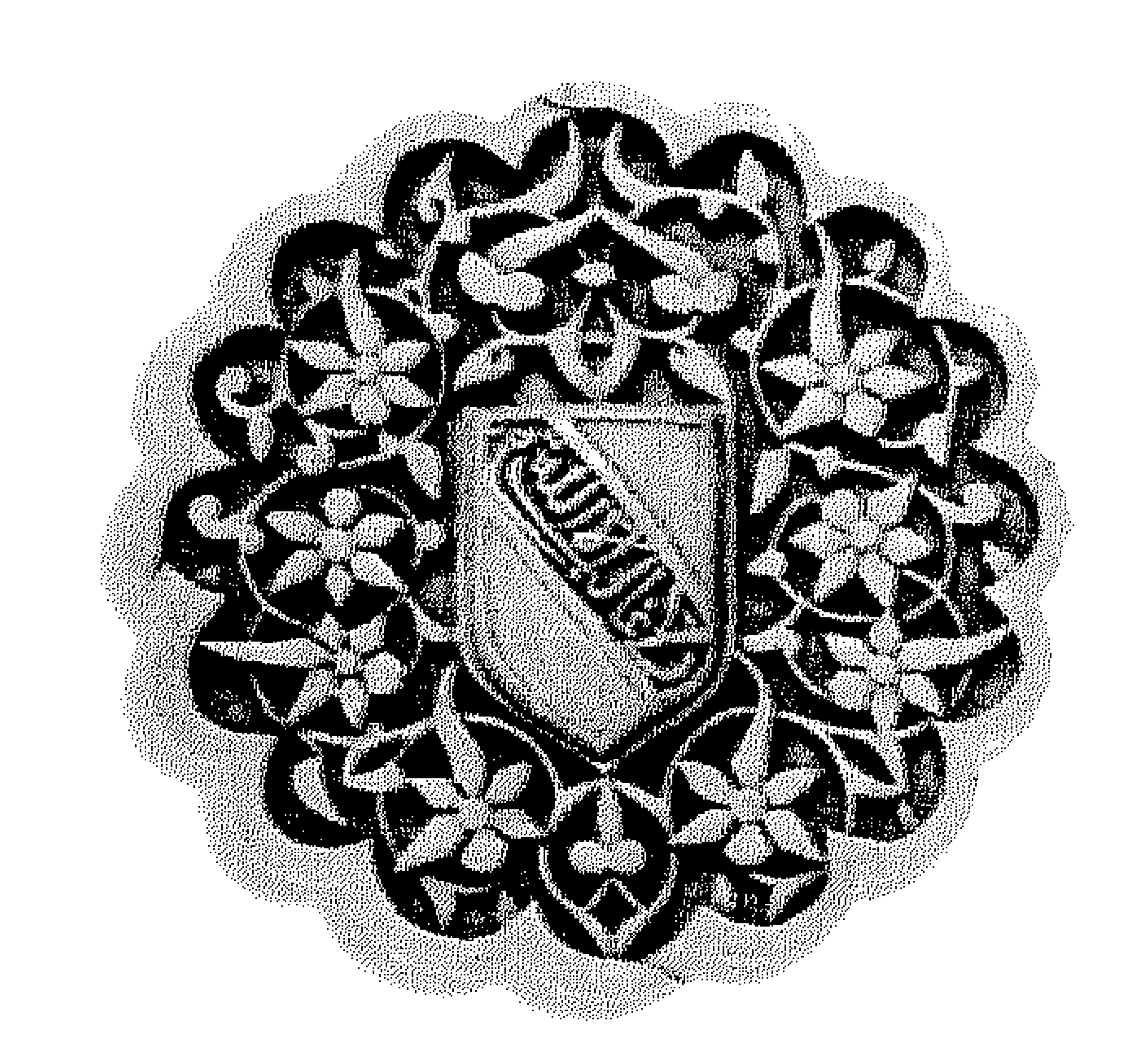
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



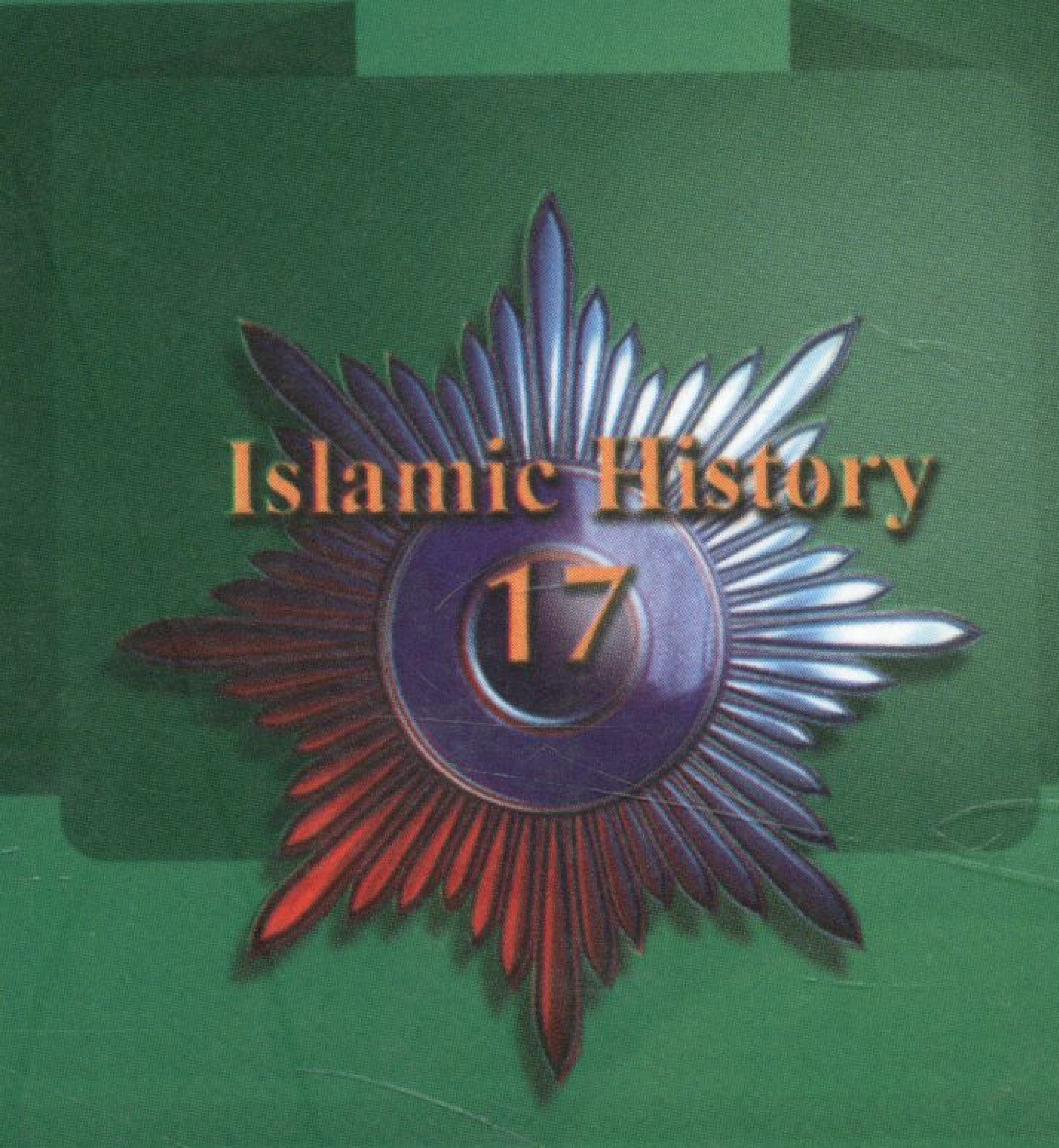
Muslims in Andalusia



Dr. Saber Diab

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Muslims in Andalusia



Dr. Saber Diab

